#950

THE GOOD NEIGHBOR

الجريق

مكتبة

إيه جيه بانر

ترجمة : محمد عبد العزيز





إهداء لـ..

MISS_AFROUDIT

شكرا لدعم مكتبة والترويج

THE GOOD NEIGHBOR

الحريق

#950



لتجارة الكتب

https://t.me/kotokhatab

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Good Neighbor
- العنوان العربي: الحريق
- طُبِع بواسطة: Lake Union
- طُبِع بواسطة: ليك يونيون.

- ترجمة: محمد عبد العزيز
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أكتوبر / 2021م
- رقم الإيداع: 21560/ 2021م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-46-6

THE GOOD NEIGHBOR

الجار

إيه جيه بانر

ترجمة: محمد عبد العزيز



مقدمة



أنا أغرق!

شعرت بتيار النهر يمزقني، خلعت حذائي، لكن بنطالي الجينز الثقيل التصق بساقي، بينما صدري يتحرق بحاجة إلى الهواء!

أين هي؟ لم أعد أستطيع رؤيته!

لا، ها هي ذي هناك بالقرب من الشلالات، برز رأسها إلى السطح، فبدا وجهها شاحبًا، بينما بدت شفتاها زرقاوين. سبحتُ وراءها، لكن التيار سحبني إلى أسفل، فابتلعتُ الكثير من المياه. جاهدتُ لشق طريقي إلى أعلى، مخترقة سطح المياه، باصقة ما بفمي من طمي وطين، بينما ارتفع هدير الشلال ليصبح ضجيجًا يصم الآذان. صرخت:

- أنا قادمة! تمسَّكي بأي شيء!

هل هي واعية؟

هل هي على قيد الحياة أصلًا؟

صرختُ طلبًا للمساعدة، فتاهت صرخاتي الصاخبة وسط العاصفة. مددت ذراعي اليمنى، ثم أتبعتها باليسرى، وجاهدت لسحب نفسي للأمام، شعرت بتنميل يغزو أصابعي، ولم أعد أشعر بقدمي. ومض برق بالسماء، ثم صدع رعد من بعده، وبعدها سمعت صوتًا مألوفًا ينادي من أعلى الجرف، بينما يتحرك ظل أحدهم على طول الجسر. صرخ الصوت منتصرًا:

- رحلة سعيدة، بئس المصير لكلتيكما!

☆☆☆

الفصل الأول

قبل شهرين

بدا كل شيء مثاليًا في شارع «سيتكا» في ذلك المساء بأوائل شهر أكتوبر.

توهجت سماء الشفق بظلال جذابة من اللونين الوردي والذهبي، بينما تساقطت أولى أوراق الشجر لتفترش العشب، وتمايلت أشجار الأرز والحور مع نسيم المحيط. كنت ما أزال أشعر بالقوة والصحة بينما أعدِّل وضع اللوحة التي تمثل شخصية الفأرة «معجزة»، والمعلَّقة على حائط الأستوديو الخاص بي. وقفت تلك المحققة ذات الفراء على كومة من الكتب، وقد التمعت نظرة ذكية في عينيها اللتين أطلتا من خلف نظارتها...

أنا بحاجة إلى كتابة مغامرتها التالية، لكن عندما ذهب «جوني» بعيدًا، انتهى بي الأمر وأنا أمضغ طرف قلمي وأحدّق إلى الفراغ. في كل مرة كان يرن فيها هاتفي الخلوي أتخيل ذراعيه حول جسدي، ويده تداعب الجزء السفلي من ظهري...

ما زلت أشعر وكأنني متزوجة حديثًا على الرغم من مرور ثلاث سنوات من الزواج. تخيلته في مؤتمره في سان فرانسيسكو، مفتونًا بآخر التطورات في علاج حب الشباب والأكزيما، بينما أتجول أنا بملل في بلدة «شادو كوف» الهادئة في واشنطن، أقوم بتزيين منزل أحلامنا، أو -لأكون أدق- منزل أحلام «جوني»، بما أنه كان قد اشترى المكان بالفعل قبل أن ألتقي به من الأصل.

ركزتُ على إعادة ترتيب مكتبي، والذي حمل أدلة دامغة على حياتي الحافلة؛ صناديق من الكتب سأتبرع بها للمكتبة، والجدول الزمني الخاص بنادي القراءة الذي اشتركت فيه، وملاحظات من الكُتَّاب في مجموعتي

النقدية. رنَّ هاتفي المحمول في السادسة والنصف، وظهرت كلمتا «أعز صديقاتي» على الشاشة، ضغطتُ زر الإجابة.

- ظننتك رحلتِ أنتِ و«دان» للهند.

ردت «ناتالي»:

- سنرحل خلال أربع ساعات (تصاعدت موسيقى للعازف الشهير «مايلز ديفيس» بالخلفية) لكن راودني شعور غريب تجاهك.

- ما هو الأمر هذه المرة؟

كانت «ناتالي» معروفة بنبوءاتها الغريبة، عندما التقينا كطالبتين جامعيتين قبل عشر سنوات، اعتادت أن تتوقع نهاية العالم قبل كل امتحان!

- أخشى أن تسقط إحدى تلك الأشجار الطويلة على سطح منزلك.

قلت:

- أنتِ تتصرفين بتلك الطريقة دومًا قبل أن تسافري.

- أعلم، لكنكِ وحدك في ذلك المنزل الضخم و...

- ليس ضخمًا لتلك الدرجة.

كان هذا صحيحًا، لكنني على الرغم من ذلك ارتجفت. استمرت الريح تعوي بالخارج، مندفعة عبر الأشجار.

- ما زلت لا أصدق أنك ستختفين لمدة ستة أشهر.

- العيادة بحاجةٍ إلى «دان» لمدة عام كامل، لكن مرضاه هنا بحاجة إليه أكثر. سأحضر لكِ بعض الحرير وخشب الصندل.

أجبتها:

- وشاي «دارجيلنغ».

- الشاي الأخضر أفضل لصحتك، إذا كنتِ تريدين الإنجاب!

- تعرفين أنني أفضِّل الشاي الأسود.

شعرت بوخز أسفل ضلوعي، كنا نحاول أنا و«جوني» أن أحمل منذ ما يقرب من عام. قالت «ناتالي»:

- لا تزيدي على كوب واحد في اليوم، أو اشربي نوعًا منزوع الكافيين.
- حسنًا، حسنًا، ألا تتوقفين عن لعب دور اختصاصية التغذية أبدًا؟
- فقط في أثناء نومي. عانقي زوجك الوسيم من أجلي.
- وأنتِ كذلك افعلي نفس الشيء.

ثم أغلقت الخط، وقد بدأت أفتقد «ناتالي» بالفعل. بينما كنت أضع لمساتي الأخيرة في ترتيب مكتبي، رنت كلماتها في عقلي. راودني شعور غريب. بعد بضع دقائق، رن هاتفي مرة أخرى، وأنارت كلمة «جوني» على الشاشة بأحرف بيضاء ضخمة.

أجبت مبتسمة:

- افتقدتك طيلة اليوم يا دكتور «ماكدونالد».

أجابني بصوت ناعس:

- أنا افتقدتكِ أكثر، كنت غارقًا حتى أذني في حالات التهاب الغدد العرقية القيحي.
- الغدد الـــ... ماذا؟
- إنه مرتبط بارتفاع معدلات المرض.
- أنا أكره هذه الكلمة، المرض! تبدو مثل الموت.
- وهي تتعلق بالموت. أنا بحاجة إلى العودة إلى المنزل.
- تقصد أنك لم تُستثَر بتلك المحاضرات المثيرة عن البكتيريا آكلة الجسد؟
- أنتِ من تثيرينني أيتها الحسناء، ماذا ترتدين؟
- ذلك القميص الدانتيل القصير الذي أهديته لي في الكريسماس.

أجبته كاذبة وأنا أنظر لأسفل، على قميصي وسترتي الجينز.

- همم، يمكننا أن... كما تعلمين... عبر الهاتف.

- انتظر دقيقة، هناك شخص ما في منزل آل «كيمبال»!

قرقرت سيارة في ممر بيت الجيران، وارتفع صوت محرك يدور.

- أعتقد أن من حقهم استقبال بعض الضيوف، أليس كذلك؟

- لكن آل «كيمبال» في هاواي، وقد طلبوا مني أن أراقب منزلهم! انتظرني.

توجهت إلى المطبخ، ورفعت الستائر، في ضوء الشفق القاتم، خرج جسدان من عربة في ممر بيت الجيران الأمامي!

كان مجرد شريط ضيق من العشب هو ما يفصل بين منزلهم ومنزلنا. تمكنت من تمييز «تشاد كيمبال»، بجسده الضخم ذي البنية القوية كلاعبي كرة القدم، باستثناء كتفيه المنحدرتين، بينما بدت «مونيك» مشابهة لـ «مارلين مونرو» بطريقة لافتة للنظر، بجسدها اللدن وحيويتها، بالإضافة للفستان الأزرق اللامع الذي أخذ يرفرف حول ساقيها. لكن أين «ميا»؟ ربما نائمة في مقعدها بالسيارة.

- لقد عادوا.

قلتها وأنا أترك الستائر تعود لمكانها.

- لقد عادوا مبكرًا. ربما مرضت «ميا». سأتحدث مع «مونيك» في الصباح.

تثاءب «جوني».

- تصبحين على خير يا حلوتي، لا أحب غيرك.

- أنا أيضًا، لا أحب غيرك.

أغلقتُ الخط وانتهيت من ترتيب الملفات الموجودة على سطح المكتب. كانت شخصية الفأرة «معجزة» تراقبني من مكانها على الحائط، رسمت جدتي كل ضربة فرشاة من فراء تلك الشخصية بكل حب، وأهدتني تلك اللوحة عندما قُبِلَ أول عدد في سلسلة ألغاز الفأرة «معجزة» للنشر. الآن ذهبت جدتي، لكنها بشكل ما سكنت نظرات تلك الفأرة «معجزة» الممتلئة فطنة وذكاءً.

لمست أنف الفأرة كما اعتدت كل ليلة قبل الخلود للنوم، وبينما أنا في طريقي إلى الطابق العلوي، سمعت رنين جرس الباب. وجدت «مونيك كيمبال» واقفة عند شرفة الدور الأرضي، والرياح تعصف بشعرها الأشقر الثلجي على وجهها. بدت ملامح وجهها السينمائية أكثر وضوحًا عن قرب؛ شفتان ممتلئتان، وعينان رماديتان معبرتان، برموش سميكة مقوسة. بدت بشرتها قد اسمرت قليلًا، وقد تناثر بعض النمش على خديها، بينما انبعثت منها روائح السفر الباهتة؛ رائحة الطائرة، والعرق، وعطر باهظ الثمن. قلت:

- لقد عدتم مبكرًا، هل كل شيء على ما يرام؟

ابتسمت بضعف مجيبة:

- الموضوع معقد، لكنني لم أحضر للشكوى. هل يمكنني استعارة حقيبة من الفحم؟

- تعالَي إلى الخلف؛ لدينا واحدة بالخلف.

دخلت «مونيك» وتبعتني إلى أسفل الردهة، وبينما نحن نمر عبر غرفة المعيشة، هتفت بسعادة:

- واو! أحب الطريقة التي أعدتِ ترتيب المكان بها. هل تلك الأريكة الزرقاء جديدة؟

- تخلصت من تلك الأريكة القديمة القبيحة السوداء. لم تكن تليق إلا بمنزل رجل عازب.

- لقد أصلحتِ المكان حقًا.

- شكرًا، كان الأمر ممتعًا.

عندما انتقلت للعيش هنا، جلبت بعض الوسائد الحريرية الصغيرة وأكياس اللافندر والصابون المعطر. كان لدي بعض قطع الأثاث الجميلة المصنوعة من الخشب المستدام، والمجموع بطريقة محافظة على البيئة، ومن ضمنها دولاب خشبي عتيق في الردهة. أما في الحديقة التي عصفت فيها الرياح

بالخارج، فقد استلقى كرسي الحديقة على جانبه، وقد سقطت فوقه مجرفة الحديقة.

التقطت حقيبة صغيرة من الفحم وناولتها لـ «مونيك». سألتها مبتسمة:

- هل أنتِ متأكدة من فكرة القيام بحفل شواء في هذا الجو؟

- تعرفين زوجي، يحب التحديات.

طوت «مونيك» الحقيبة تحت ذراعها، ثم عدنا مرة أخرى للردهة، وبدا على «مونيك» التردد.

- هل «جولز» بخير؟ لقد ذهب إلى السرير مبكرًا؟

سألتني وهي تحدق نحو السلم، كما لو كانت تنوي استعارة «جوني» أيضًا.

اعتادت أن تناديه من حين لآخر بـ «جولز»، ومناداة زوجها بـ «جيم»، على اسم شخصيتين في الفيلم الفرنسي الذي شاهده أربعتنا معًا: «جولز وجيم»، والذي يحكي عن رجلين يقعان في حب امرأة واحدة. لكنني تجادلت مع «مونيك» حول من الأكثر شبهًا بشخصية المرأة اللعوب، «كاثرين».

أجبتها:

- هو في مؤتمر جديد متعلق بالعمل، كيف حال «جيم»؟

- متعب وأُصيب بالكثير من حروق الشمس. بشرته حساسة للغاية.

بدت «مونيك» على وشك أن تقول شيئًا آخر، لكنها عوضًا عن ذلك التفتت لتلقي نظرة خاطفة من خلال النافذة الصغيرة المجاورة للباب الأمامي. عبر الشارع، جلست «جيسي راميريز» على درجات سلم بيتها الأمامية، مرتدية كنزة من النوع الثقيل وبنطالًا جينز، بينما تساقط شعرها داكن اللون على وجهها. جلس بجانبها صبي طويل يرتدي سترة ذات قلنسوة، يدخن سيجارة، وهو صديقها الجديد «أدريان»، وقد أوقف سيارته السوداء ماركة بويك في الممر. عبست «مونيك» وهي تقول:

- لماذا تتسكع معه؟

- إنها في السابعة عشرة من عمرها، سن الهرمونات الطائشة، لكنها فتاة طيبة.

- إنها تعتني بمنزلنا جيدًا عندما نكون بعيدين، لكن...

- لكن ماذا؟

- أحتفظ بقلم ذهبي بجوار الهاتف، والآن لا يمكنني العثور عليه. ربما يكون قد سقط خلف الثلاجة...

- هل تشكين أنها سرقته؟

- أنا متأكدة من أنه سيظهر. من فضلك لا تذكري ذلك لها.

- لا تقلقي، سألتزم الصمت.

غادرت «مونيك» في عجلة من أمرها، بينما ردفاها يتأرجحان وهي تعبر الشريط الضيق من العشب، متجهة نحو باب بيتها الأمامي. شاهدها كل من «جيسي» والصبي وهي تذهب. كانت «جيسي» طالبة مثالية قبل أن تتعرف إلى «أدريان» هذا، لكن حتى مع معرفتها له، ما زلت لا أستطيع تخيل تلك الفتاة تسرق أي شخص. لطالما كانت خدومة وأمينة، لكن مَن منا يستطيع أن يفهم ما يدور في أعماق عقول المراهقين هذه الأيام؟ كان المنزل الذي يقع على يمين منزل «جيسي» مظلمًا، لا بد وأن «فيليكس كالاسيس» وزوجته «مود» قد خلدا للنوم مبكرًا، على الرغم من أن «فيليكس» غالبًا ما يخرج للسير قليلًا عند الغسق.

خلف منزل آل «كالاسيس»، أضاء ضوء شرفة المنزل الفارغ عند الزاوية. لا بد أن السمسارة المدعوة «إيريس كوجلان» قد نسيت إغلاق النور، كانت هناك لوحة عليها «تم البيع» تغطي لوحة «للبيع» المنتصبة في حديقة المنزل.

على يسار منزل «جيسي»، فيما وراء مجموعة كثيفة من شجر التنوب، حافظ آل «فرينكيل» على منزلهم الواقع في نهاية الطريق المسدود نظيفًا، كان «ليني فرينكيل» يقف عند الشرفة الأمامية، وقد ثبَّت هاتفًا محمولًا على أذنه. كان هو الأنحف في توأمي آل «فرينكيل»، وهو شخص جذاب سريع

البَداهَة. العديد من الفتيات قد طلبن منه بالفعل اصطحابهن لحفل التخرج. أما «لوكاس»، التوأم البدين، فيشبه والده «فيرن» في كونه قوي البنية وخجولًا.

في شارع عريض مثل «سيتكا»، لا يحتوي إلا على ستة منازل واسعة متطابقة، كان من الصعب -ولكن ليس من المستحيل- الاحتفاظ بالأسرار. يمكنني مشاهدة الجيران يأتون ويذهبون، لكن لا أحد يعرف ما الذي يحدث فعلًا داخل كل بيت.

صعدت الطابق العلوي، وبداخل الحمام الرئيسي كان بإمكاني شم رائحة عطر ما بعد الحلاقة الخاص بـ «جوني» ذي رائحة الصنوبر، ومعه تصاعدت كذلك رائحة صابون زبدة الشيا المفضل لديه. خلعت المئزر الذي كنت أرتديه، واستبدلت به أحد قمصانه الطويلة، وفتحت النافذة قبل الصعود للسرير.

انجرفت روائح الليل إلى الداخل؛ رائحة هواء البحر المالحة، ورائحة شجر الأرز القوية، تصاحبهما رائحة الزهور العطرة من أسفل النافذة. حاولت التركيز على قراءة كتاب «طريقك للحمل الصحي»، لكن الكلمات بدت زائغة أمام عيني، ألم يكن الآباء في عصور ما قبل التاريخ يعرفون كيف يتصرفون دون كتب؟ ألم يثقوا بغرائزهم؟ من المؤكد أنهم لم يجلسوا في كهوفهم حول شعلة النار البدائية يقرؤون كتيبات تعلمهم كيف يفعلون كل شيء. ولكن يجب الاعتراف بنفس الوقت أن الكثير من الأطفال حديثي الولادة لا بد قد ماتوا وقتها، في زمن ما قبل عصر الطب الحديث.

علَت همهمات من الفناء الخلفي لبيت آل «كيمبال»، تختلط برائحة الهوت دوج المشوي. بعد وقت قليل، انفتح باب الفناء الخاص بهم وانغلق، تلاه فاصل من الهدوء. شعرت بثقل غير معتاد يتململ في الهواء، كأنه نذير بهبوب عاصفة قادمة. استلقيت وأغمضت عيني، لكن النوم استعصى عليَّ. تسللت الريح من خلال أغصان شجر التنوب، وأسفل صوت الريح تسللت قعقعة مكتومة لمحرك يجوب الشارع!

توقف المحرك، وتبع ذلك صمت تام من جديد. ربما هم مجرد مراهقين يمارسون الحب. لقد تأخر الوقت بالنسبة إلى موعد نومهم بالتأكيد، وبالتأكيد متأخر لموعد نومي أنا الأخرى.

أخيرًا، انزلقت نحو نوم مضطرب، فقط لأستيقظ وسط الظلام. هزت العاصفة النافذة، وتردد صدى صوت عالٍ في أذني، ربما هناك شاحنة تمر بالشارع؟

أشارت الساعة الرقمية على المنضدة للساعة 5:1 صباحًا، لمحت ضوءًا برتقاليًّا ينتشر عبر الجدران، بينما تسللت رائحة الدخان عبر الهواء. شغَّلتُ المصباح المجاور للسرير، فظهرت أركان الحجرة لعيني: صورة زفافي المفضلة على المكتب، وقميص من النوع الثقيل مُلقى على كرسي، وزجاجات مرطب الجسم على الخزانة. لا شيء يبدو غير طبيعي، ولكن قلبي أخذ يخفق بشكل متقطع. نهضت ونظرت من النافذة، واستغرق الأمر لحظة حتى ينطبع المشهد داخل عقلي النائم.

تصاعد الدخان وألسنة اللهب من المنزل المجاور، من نوافذ الدور الأول ببيت آل «كيمبال». انطلق إنذار الحريق الخاص بهم؛ صفير عالي النبرة، ثم اخترقت صرخات طفل مرعوب ظلام الليل!

«ميا»!

كانت محاصَرة في غرفة نومها في الطابق الثاني، فوق نيران مستعرة...



الفصل الثاني

التقطتُ هاتفي المحمول من فوق المنضدة، وضربت رقم النجدة سريعًا. شعرت بأصابعي ترتجف من الانفعال، لدرجة أنني اعتقدت أنني سأفقد وعيي. جاء صوت عامل التشغيل على الخط:

- نجدة منطقة «شادو كوف»، أين الحادث؟
- منزل جيراني يحترق! بسرعة! ابنتهما الصغيرة...
- ما اسمك يا سيدتي؟
- «سارة فينيكس». جيراني هم آل «كيمبال»، «تشاد» و«مونيك». ابنتهما تُدعى «ميا». إنها في الرابعة من عمرها فقط. وهي تبكي وتصرخ في غرفتها...
- ما هو عنوانهم يا سيدتي؟
- 595 شارع «سيتكا». نحن في منزل رقم 599، المجاور تمامًا. بسرعة أرجوك.
- المساعدة في الطريق.
- كم من الوقت سيستغرقون للوصول؟
- أول من يستجيب للنداء سيتحرك من المحطة المركزية.

أي أنهم على بُعد خمس عشرة دقيقة تقريبًا، أنهيت المكالمة، وطلبت رقم آل «كيمبال»، لكن الرقم أعطاني إشارة أن الخط مشغول.

لم أستطع الانتظار دون فعل شيء، هكذا ارتديت بنطالي وحذائي الرياضي بسرعة، ودسست هاتفي المحمول في جيبي، وركضت إلى الصالة.

في منتصف الطريق على درجات السلم تعثرت، وسقطت على درجات السلم، وانتهى بي الأمر واقعة على أرضية البهو.

يا لك من غبية، الناس لا تتعثر بهذه الطريقة إلا في الأفلام!

خلال لحظة كنت أقف على قدميَّ ثانية، وعلى عكس عادتي، اختطفت حقيبتي من فوق المنضدة وأحكمت وضع يدها على كتفي وأنا في طريقي للخروج من الباب.

تمايلت أشجار الأرز الطويلة مع عاصفة الليل، بينما زأرت النار وطقطقت كأنها كائن حي، في حين توهج الحي كله كأنه لوحة تتكون من ظلال برتقالية، أما الهواء فتثاقل ممتلئًا برائحة نفاذة من احتراق الأخشاب والبلاستيك. كان جهاز إنذار بيت آل «كيمبال» لا يزال يدق، بينما تصاعدت صرخات «ميا» المرعوبة وسط ضباب من الدخان. ارتفعت بعض الصرخات عبر الشارع، تبعتها أبواب تنفتح ثم تنغلق بعنف.

ابتلعت النيران الطابق الأول من منزل آل «كيمبال» بأكمله، فتسابق والدا «جيسي»، «دون راميريز» وزوجته «بيدرا»، وهما لا يزالان بملابس النوم، نحو المنزل المحترق، بينما تبعتهما «جيسي» مرتدية بنطالًا جينز وسترة بقلنسوة.

تجمع سكان الحي عند حافة حديقة آل «كيمبال»، كان «فيليكس كالاسيس» وزوجته «مود» هناك كذلك، وأيضًا آل «فرينكيل» مع ابنيهما التوأم المراهقين في ملابس النوم. حاول «دون» فتح باب منزل آل «كيمبال» الأمامي، لكنه كان محكم الإغلاق.

تقدم «لوكاس فرينكيل» واقتحم الباب، قبل أن يتراجع للوراء وهو يسعل جراء استنشاقه الكثير من الدخان الذي تسلل للخارج فجأة. شغَّل «ليني» خرطوم الحديقة وأطلق دفقة من الماء نحو الحريق.

صرخت «أورلا فرينكيل»، وقد انقبضت ملامح وجهها من القلق:

- لقد اتصلت بالنجدة!

ارتعش رداء نومها الحريري الخفيف مع الريح. صرختُ أنا الأخرى:

- أنا أيضًا اتصلت بهم، نحن بحاجة إلى الدخول!

قال «لوكاس» وهو لا يزال يسعل:

- لا يمكننا الدخول من الباب الأمامي.

هتفت:

- لكن «ميا» بالداخل! وماذا عن «تشاد» و«مونيك»؟ أين هما؟

- لا يزالان في الداخل كذلك!

صرخ «دون»، ثم ركض هو و«فيرن فرينكيل» نحو الجانب الآخر من المنزل، بينما ظل «ليني» يُغرِق مقدمة المنزل بالخرطوم، لكن بدا أن تيار الماء الرقيق يغذي النيران فقط.

هرعت للخلف، وحاولت جذب الباب الزجاجي المنزلق بقوة، لكنه كان مغلقًا!

اختلست النظر عبر فرجة الستائر، فرأيت النيران والدخان يملآن غرفة المعيشة. من خلال الضباب، لمحت نافذة المطبخ، والتي بدا أنها محطَّمة، كما لو أن شخصًا ما ألقى بحجر من خلال الزجاج.

- لا تدخلي!

هكذا قالت «أورلا» من ورائي وهي تشد كم ردائي، ثم استطردت:

- المكان غير آمن.

عدنا إلى جانب المنزل، حيث كانت غرفة نوم «ميا» في الطابق الثاني تواجه غرفتي. اقتربت «بيدرا راميريز» في رداء أبيض خفيف وخُف وردي اللون.

- رباه! أين آل «كيمبال»؟ أين «جوني» يا «سارة»؟

أجبتها لاهثة:

- في «سان فرانسيسكو».

صرت مغطاة بالعرق، بينما فتحت «جيسي» صنبور المياه الموجود بحديقتنا وسحبت الخرطوم عبر ممر قيادة منزل آل «كيمبال»، لتُطلق تيارًا من المياه عديمة الفائدة نحو النار.

ركض «دون» نحونا، بوجه غاضب متجهم.

- لا يمكننا العثور على طريقة آمنة للدخول. لقد اتصلت برقم النجدة مرة أخرى. إنهم على بعد ثماني دقائق.

كيف يمكن ألا تكون قد مرت إلا تلك الفترة القليل من الوقت؟ أشرت إلى نافذة غرفة نوم «ميا» وأنا أهتف:

- أحضروا سلمًا، بسرعة!

قالت «بيدرا» وقد اتسعت عيناها:

- لا يمكنك الصعود إلى هناك.

بينما صرخ «دون»:

- لدينا سلم.

قالها ثم تسابق هو و«جيسي» عبر الشارع عائدين لمنزلهما. سحبت الهاتف من جيبي واتصلت بـ «جوني». لا إجابة، لذلك اتصلت برقم الفندق الذي يقيم فيه، فردت عليّ امرأة مرحة تجلس على مكتب الاستعلامات.

- صليني بغرفة دكتور «جوني ماكدونالد». الموضوع عاجل.

- انتظري معي من فضلك. سأحاول إيصالك به.

لكن الهاتف ظل يرن في غرفة «جوني» دون رد. عاد صوت المرأة على الخط:

- لم يرد، سأوصلك ببريده الصوتي.

تركت له رسالة مذعورة ثم أنهيت المكالمة، وفي نفس اللحظة ظهر كلٌّ من «دون» و«جيسي» وهما يحملان السلم. أسنده «دون» على جانب منزل آل «كيمبال»، أسفل نافذة حجرة «ميا». تجمعت مجموعة من الجيران حوله، وجرّ آخرون المزيد من خراطيم الحدائق عبر الشارع، وأطلقوا الكثير من المياه نحو النيران المستعرة بجنون.

قلتُ:

- أمسكوا السلم.

شعرت بدقات قلبي تتسارع كأني بسباق، ألقيت هاتفي المحمول في حقيبتي، ثم سلمت الحقيبة إلى «بيدرا»، بينما علَّق «دون»:

- لن تصعدي!

قلت:

- حجمي يسمح لي بالمرور عبر النافذة.

علَّقت «جيسي»:

- وأنا كذلك!

- ابقي هنا دون مجادلة أرجوكِ.

قلتها وأنا أشق طريقي نحو السلم، وسحبت قالب طوب من حديقة آل «كيمبال» الجانبية، وأسقطته في جيب ردائي وأنا أتسلق الدرجات، صاحت «بيدرا»:

- انتظري! دعي «دون» يفعلها بدلًا منكِ.

هتفت:

- أنا بخير! تفقدوا فقط ما إذا كانت هناك طريقة أخرى للدخول، ربما هناك شيء ما فاتنا.

- سنفعل ذلك.

هتف «دون»، وركض مرة أخرى للخلف، صعد «فيرن فرينكيل» إلى الأمام وثبَّت السلم في مكانه. قال:

- لقد ثبته جيدًا.

صرخت «جيسي»:

- كوني حذرة.

- فقط أمسكوا السلم جيدًا.

أبقيت نظري نحو الأعلى. شعرت بركبتيَّ تتحولان إلى مطاط، وكفيَّ تتعرقان. أصررت على أسناني، عاقدة العزم على تجاهل خوفي من المرتفعات. تكاثفت حدة الدخان في الهواء، لتلسع عينيَّ وتجعلني أسعل.

بالأعلى وجدت نافذة غرفة «ميا» مفتوحة بضع بوصات، لكن محشورة مكانها بقوة!

تسلل ضوء الليل للداخل كاشفًا عن هيئة دولاب الملابس الخارجية، وكرسي هزاز، وسرير واحد. لكن لم يكن هناك أي أثر لـ «ميا». انقطع صوت جهاز الإنذار. توهج خيط فضي من الضوء حول إطار باب غرفة النوم. زأرت النيران على الجانب الآخر كأنها وحش يحاول اقتحام الغرفة.

- «ميا»، أين أنتِ؟

هكذا صرختُ من خلال الحاجز الموضوع أمام النافذة، فزحف جسد صغير من خلف السرير.

- أنا هنا. أريد أمي!

- لا تتحركي. سأدخل إليك!

جذبت الحاجز بكل قوتي وأنا أصرخ لمن بالأسفل:

- احترسوا!

ثم أسقطت الحاجز على الأرض، قبل أن أهتف بالفتاة:

- ابقي بعيدًا يا عزيزتي.

انكمشت «ميا»، وزحفت عائدة للوراء، بينما أنا أمسك السلم بيدي اليسرى، ولوحت بقالب الطوب بيدي اليمنى، ثم رميته نحو زجاج النافذة بقوة، صانعة ثقبًا في الزجاج، قبل أن يكمل قالب الطوب طريقه داخل غرفة «ميا» ليسقط على الأرض، مددت يدي وفتحت النافذة، وخلال لحظة كنت أقف داخل الغرفة، لأشعر بغلالة من الحرارة تغلف جسدي. خطوت للأمام لأسحق الزجاج المكسور الواقع على الأرض، وسحبت «ميا» أسفل ذراعي، فشعرت بوزنها أثقل مما هو مفترض. مستحيل أن يكون وزنها ثلاثين باوندًا فقط.

- ضعي يديكِ حول رقبتي، ومهما حدث لا تفلتيها!

كادت أن تخنقني بقبضتها المحكمة حول رقبتي. خطوتان أخريان ووصلنا إلى باب غرفة النوم، فكادت الحرارة أن تدفعنا للخلف.

- «تشاد»! «مونيك»!

صرخت، لكن بلا إجابة، فاستطردت:

- «ميا» معي!

لكن لا رد كذلك، عدت إلى النافذة وتسلقت فوق العتبة، وهي مناورة صعبة بوجود طفلة بين ذراعيَّ. صرخت فيمن بالأسفل:

- «ميا» معي! أنا آتية لأسفل!

- نحن بانتظارك!

هكذا هتف «فيرن».

- بسرعة!

في أثناء نزول السلم شعرت بجسد «ميا» يصبح أثقل مع كل لحظة تمر، على الرغم من أنها كانت ضئيلة الجسد بالنسبة إلى عمرها. قالت:

- أمي، حذائي المفضل.

أجبتها:

- سنحضر لكِ حذاءً جديدًا يا حبيبتي.

أين «تشاد» و«مونيك»؟ كنت آمل أن يعثر «دون» عليهما، وأن يكونا قد تمكنا من الهروب. همست «ميا» وهي تنظر في عيني:

- أنا خائفة.

- وأنا أيضًا. لكننا سنكون بخير.

احتويت جسد «ميا» الضئيل بين ذراعيَّ، داعية في سري ألا أسقطها. انتشرت رائحة المواد الكيميائية المحترقة الكريهة في الهواء، وفجأة انفجر شيء ما بالأعلى، ثم أمطرت عاصفة من الحطام من بين الدخان المتصاعد. انطلقت ألسنة اللهب من نافذة حجرة «ميا» كأنها طلقات من الرصاص،

لتطير قطع من الجمر وتستقر على سطح سقف منزلنا، لتشتعل النيران في السقف المصنوع من الخشب!

كانت «جيسي» تصرخ بالأسفل.

- منزلك يشتعل يا «سارة»، أسرعي!

وفي لحظة تسارع قطيع من الأفكار المجنونة في ذهني...

مخطوطة آخر كتاب لي، وصور الزفاف، ودفتر يومياتي، والأوراق القانونية، وجوازات السفر!

لوحة الفأرة «معجزة»، والمنحوتات الخشبية الكينية التي أهدتني إياها أمي من رحلتها إلى كينيا، وخاتم زفافي الموجود على الخزانة؛ أنا دائمًا ما أخلع خاتمي في الليل. يجب أن أعود لمنزلي، لكنني لا أستطيع أن أُسرع أكثر من هذا، خمس درجات أخرى ووصلنا إلى الأرض أخيرًا!

وبينما أناول «ميا» لذراعي «بيدرا»، اقترب عويل صفارات الإنذار من بعيد.

كانت النيران قد انتشرت عبر سقف منزلنا، وقد صارت غرفة النوم الرئيسية مضاءة من الداخل في منظر أشبه بالحلم.

تساقط الحطام من فوق، وعندما نظرت إلى الأعلى، كان هناك شيء أسود ضخم يندفع نحوي بالحركة البطيئة، كأنه نيزك، أو حطام فضائي يتدحرج نحوي بإصرار، ثم لم أرَ شيئًا على الإطلاق!

☆☆☆

الفصل الثالث

استيقظت لأجد نفسي بغرفة رمادية رتيبة وحيدة اللون، وهناك قناع يضغط على وجهي، يمدني بالأكسجين البارد.

مددت يدي للمس جبهتي التي آلمتني، فشعرت أصابعي بخشونة ضمادة. شعرت برأسي ينبض كما لو أن مبنى خرسانيًا عاليًا قد سقط عليه، بينما شعرت بشيء ما يوخز مؤخرة يدي، نظرت فوجدته جهازًا وريديًا يقوم بتقطير السوائل في عروقي. كنت أرتدي قميص المستشفى القطني الناعم وجوربين، وتغطيني ملاءة وبطانية خفيفتان. أين ملابسي؟ أين حقيبتي؟ لقد تركت حقيبتي مع «بيدرا». استطعت من مكاني أن أرى بابًا مفتوحًا يقود لحمام صغير، ونافذة تطل على غابة، ومنضدة معدنية وُضع عليها فنجان قهوة ورقي مطبوع عليه من الجانب شعار «مقهى بلو شادو».

أي مستشفى كان هذا؟ منذ متى وأنا فاقدة للوعي؟

استنادًا إلى زاوية ضوء الشمس الباهت، فلا بد من أننا بفترة بعد الظهر.

تردد صدى صوت بعيد على جهاز اتصال داخلي، تبعته قرعات حذاء ذي نعل ناعم يمر عبر الغرفة، وعلى الرغم من وجود القناع على أنفي، فقد شممت رائحة الكحول وغيره من الروائح الطبية.

تحدث صوت عميق ومألوف بنبرة خافتة خارج الباب مباشرة. حاولت الجلوس، لكن أطرافي كانت ثقيلة للغاية. تناثرت بضع كلمات هنا وهناك، كان صوت رجل يقول:

- ... يجب أن أبقى معها، لا أعرف لكم من الوقت، لكنها زوجتي...

خلعت القناع وهتفت:

- «جوني»!

خرج صوتي ضعيفًا وخشنًا، لكنه سمعني بطريقة ما، دخل الغرفة وهو يلقي الهاتف المحمول في جيب معطفه. تحت سترته المفتوحة، كان يرتدي قميصًا مجعدًا أبيض اللون وبنطالًا أسود، وقد تشعَّث شعره الداكن في فوضى، بينما بدا وجهه شاحبًا قلقًا. على الرغم من مظهره الأشعث، فقد كان مظهره يشع رجولة وكاريزما ساحرة.

امتلأت عيناه الزرقاوان اللامعتان بالقلق بينما يميل على السرير ويعانقني هاتفًا:

- «سارة»!

قبَّلَ وجنتي وشفتيَّ بينما مددت أنا ذراعيَّ حول رقبته. كم كنت أفتقد الشعور به، وافتقدت رائحة الصنوبر التي تتصاعد منه!

- أين أنا؟

همست في أذنه، فهمس مجيبًا:

- أنتِ في مستشفى مدينة «كوف». أصبتِ بارتجاج في المخ. لقد سقطت عارضة خشبية على رأسك.

آخر شيء أتذكره هو أنني كنت أناول «ميا» ليدي «بيدرا». همست بضعف:

- لكم من الوقت أنا هنا؟

تفقد ساعة يده، والتي لمع سوارها الفضي في الضوء قبل أن يجيبني:

- الساعة الثانية تقريبًا.

جلس على الكرسي بجوار السرير، وهو لا يزال يمسك بيدي. شعرت وكأنني ورقة في مهب الريح.

- ماذا عن آل «كيمبال»؟ ماذا حدث لــ «تشاد» و«مونيك»؟

- إنهما...

ماتت كلماته على عتبات شفتيه، بينما امتلأت عيناه بالألم.

- ماذا حدث؟

هز رأسه بصمت وهو يضغط على يدي. تعبيره الصامت هذا أخبرني بكل شيء. شعرت بالخدر يسري في جسدي، وداخل عقلي ارتسمت صورة «مونيك»، بابتسامتها النابضة بالحياة، وفستانها اللامع، كل شيء له علاقة بها ارتسم في عقلي كأنها مجموعة من الصور تُعرَض وراء بعضها في عجالة.

- لا. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا.

همس «جوني»:

- أنا آسف للغاية.

حاولت أن آخذ نفسًا عميقًا، لكن جسدي أخذ يرتجف، بينما انهمرت الدموع سيولًا على خديَّ. تذكرت مشهدًا حدث من قبل، كان «تشاد» يزيل فيه الفلفل من فوق شريحة سمك السلمون التي تبلتها «مونيك» من أجل الشواء؛ لطالما كره «تشاد» الفلفل. كيف يمكن أن يكون كلاهما قد رحل؟

- ماذا عن «ميا»؟

- إنها بخير.

- لكنها يتيمة الآن. لا بد أنها...

- إنها مع جدتها.

ثم صعد بجواري، فشعرت بوزنه يضغط على مرتبة سرير المستشفى الرفيعة، ثم جذبني بين ذراعيه.

- ماذا عن الباقين؟ ماذا أصابهم؟

- الجيران؟ كلهم بخير. لقد أرسلت رسالة إلى والدتك. إنها تقود السيارة إلى نيروبي، لتتمكن من الوصول لهاتف تكلمنا عبره.

- لا أريدها أن تقلق.

- تعلمين أنها ستفعل.

ناولني منديلًا مجعدًا من جيبه. سألني:

- ماذا حدث يومها بحق الجحيم؟

مسحتُ ما تساقط على خدي من دموع مجيبة:

- ليس لدي أي فكرة، كل شيء كان على ما يرام، أيقظني الضجيج فجأة.
- أي نوع من الضجيج؟
- انفجار أو شيء من هذا القبيل. ماذا عن منزلنا؟

شبك أصابعه مع أصابعي مجيبًا:

- متضرر بشدة، مدمَّر لأكون أدق بالوصف.
- كل شيء تدمر؟ لكن رجال الإطفاء كانوا في طريقهم للمكان!
- كان الطابق الثاني مشتعلًا بالفعل. لم يتمكنوا من إنقاذه، لم يعد المنزل صالحًا للسكن.

تذكرت جمرًا مشتعلًا محمولًا على أجنحة الريح. ولكن كيف يمكن أن يضيع بيتنا كله هكذا؟ كيف يمكن أن يموت كلٌّ من «مونيك» و«تشاد» بتلك السهولة؟ شعرت بالغرفة تتقلص من حولي؛ هدرت الأصوات الآتية من القاعة لتنفجر بالقرب من طبلة أذني.

- متى يمكننا العودة؟ أريد أن أرى...
- أنتِ بحاجة إلى البقاء هنا لمدة يومين. يمكننا العودة عندما نطمئن أن رأسك سليم.

أفلتُّ ضحكة جافة مصطنعة.

- رأسي لن يكون بخير أبدًا ثانية.
- أنا آسف يا حبيبتي.

صدر من جيبه صوت أزيز منخفض، أخرج هاتفه المحمول ونظر إلى الشاشة، ثم أعاد الهاتف في جيبه.

- شركة تأمين لأصحاب المنازل. سأعاود الاتصال بهم لاحقًا.
- هل تواصلت معهم بالفعل؟

بالطبع فعل، لطالما كان «جوني» هو الشريك الأكثر عملية، كان يفكر دومًا في المستقبل، وهي الصفة التي أثارت إعجابي به. قال:

- كان علي التأكد من أن لدينا تغطية مالية تكفي للعثور على منزل مؤقتًا، كنت أتحدث إلى شركة المرافق الخاصة بالمقاطعة، تم قطع الكهرباء والماء، كل شيء انتهى.

لا، ليس كل شيء، لم تنتهِ ذكرياتنا، ولا ذكرى أول مرة خطوت فيها داخل منزل «جوني» عندما دعاني إلى العشاء في موعدنا الثاني، وكان قد اشترى نباتي المفضل «الكوبية»، محفوظًا بوعاء فيروزي اللون، كان قد نسي إزالة بطاقة السعر، لكنه أذاب قلبي بمجهوده لإثارة إعجابي، وبخاصة عندما أحرق اللازانيا، لينتهي بنا الأمر نتشارك شطائر زبدة الفول السوداني على ضوء الشموع.

ضحكت على نكاته، وحكيت له عن الفأرة «معجزة»، فأخذ يستمع باهتمام شديد، متأملًا شفتيَّ، مُثيرًا موجات من الحرارة داخلي، وقد امتلأت عيناه ذاتا الرموش الطويلة بالتصميم.

وسرعان ما توقف الحديث القصير الذي كنا نتبادله. الآن علينا أن نتمسَّك بالذكريات، فقد صارت هي كل ما لدينا لإبقائنا مستمرين.



الفصل الرابع

قال طبيب الأعصاب إن جسدي ومخي بحاجة إلى وقت للتعافي.

كان رجلًا شبيهًا بالطيور، ذا نظارة كبيرة وشعر بدأ رحلته في التراجع للوراء، وهي الرحلة التي توشي باقتراب الصلع. كرر الطبيب ما قاله لي «جوني» من قبل. لقد أُصِبت بارتجاج في المخ؛ إصابة خفيفة، وأنني يجب أن أظل تحت الملاحظة لمدة يومين. ربما أعاني الصداع والدوار وفقدانًا مؤقتًا للذاكرة قصيرة المدى.

في تلك الليلة، ظللت نهبًا لنوم خفيف متقطع يخالطه القلق. كنت أستيقظ وأنا أتصبب عرقًا، نصف متذكرة أحلامي التي ظلت عالقة عند حافة عقلي.

لا، لم تكن أحلامًا، بل كوابيس تمتلئ بالنيران، وألواح خشبية تسقط، والوهج الذي ارتسم حول باب غرفة نوم «ميا». حلمت أحيانًا أننا في المنزل مرة أخرى، وقد توهجت الأزهار البيضاء في ضوء القمر، وقد وقفت «مونيك» عند الشرفة، بينما شعرها يتطاير حول وجهها.

حزن «جوني» بطريقته الصامتة الهادئة، اعتاد أن ينام على سرير المستشفى بجانبي، لأشعر بجسده يضغط على جسدي، متجاهلًا سرير المرافق الذي أعدته له الممرضة.

في الصباح استيقظ مبكرًا واستحم في دورة المياه الصغيرة. استلقت حقيبته على منضدة قابلة للطي، وبداخلها كان يحمل ملابس المؤتمر: سترات رسمية، وربطات عنق، وجوارب رسمية. غامر بالخروج للاهتمام بعمله، وعاد بملابس لا تناسب مقاسي على الإطلاق، بالإضافة لبعض أدوات النظافة والمجلات.

لحسن الحظ كان هاتفي المحمول سليمًا، فتمكنت من تفقد إيميلي الصوتي وبعض المكالمات الفائتة من الأصدقاء، وكان من بينها رسالة دامعة من «ناتالي»، التي كانت قد وصلت إلى نيودلهي، قالت برسالتها:

- أنا عائدة، ألم أقل إن هذا سيحدث؟

أجبتها:

- لم تسقط شجرة على المنزل.
- لكن شيئًا ما أصابك في رأسك. ربما كان غصن شجرة.
- ربما، لكن...
- هذه ليست النهاية. أشعر بشيء أسوأ قادم. لكنه هذه المرة لن يكون شجرة أو نارًا، سيكون شيئًا أقل وضوحًا، شيئًا خبيثًا.

علقتُ:

- أنتِ تشاهدين الكثير من أفلام الرعب. استمتعي أنتِ و«دان» بالهند. سأراكما خلال بضعة أشهر.

ثم أغلقت الخط قبل أن تتمكن من الاحتجاج. ثم اتصلت بالمحرر الخاص بي، وعندما تظاهرت أنني بخير، شعرت أن من تتحدث هي «سارة» أخرى تتحدث من خلالي، شعرت بأن من تتحدث مجرد قناع مصطنع أنشأه عقلي لخداع العالم.

اتصلت والدتي هاتفيًا بعد بضع ساعات عندما وصلت إلى نيروبي. تردد صدى صوتها البعيد عبر القارات.

- لقد قلقت بشأنك.
- أنا بخير.

أجبتها كاذبة، فرأسي ما زال يؤلمني، وأفكاري مشوشة.

- لماذا لا تذهبين إلى المنزل؟ يمكنك البقاء هناك كما تريدين. غرفتك جاهزة. هناك مفتاح تحت الحجر الذي له شكل السلحفاة.

كانت قد اشترت الحجر الرمادي ذا شكل السلحفاة قبل أن يرحل والدي. كنت في التاسعة من عمري وقتها. أقمت أنا وأمي في المنزل، وهو كوخ عتيق الطراز من طابق واحد في مدينة بورتلاند، بولاية أوريغون، حتى غادرت المنزل في الثامنة عشرة.

فجأة، شعرت بالاشتياق إلى غرفة نوم طفولتي بإطلالتها الهادئة على وادٍ مليء بالشجر. قلت:

- عرض كريم منك. لكنه بعيد جدًا. سنجد شيئًا هنا. سيستغرق الأمر بعض الوقت للوقوف على أقدامنا مرة أخرى.

- سوف أعود.

- لا حاجة إلى ذلك؛ نحن بخير.

لن تفعل والدتي شيئًا غير تعطيلنا، ستحاول أن تكون مفيدة، لكنني سأشعر برغبتها في السفر، كما أنها تقوم بعمل أهم في تلك القرية في كينيا، حيث كانت تُدرِّس لغة الإشارة للأطفال الصم.

- أحبك.

هكذا همست والدتي، وقد بدا الانفعال في صوتها، أجبتها:

- أنا أيضًا أحبك.

ثم أغلقت الخط، وقد ملأت الدموع عيني. وتبع ذلك سلسلة من الزوار، من بينهم «بيدرا» و«جيسي راميريز»، اللتان أحضرتا باقة من الزهور متعددة الألوان وبطاقة تهنئة عليها صورة «ووندر وومان» في الأمام. كانت هناك قصيدة في الداخل:

لطيفة ومراعية
وقوية أيضًا
تمكنتِ من إنقاذ «ميا» الصغيرة
يا بطلتنا الجميلة
عودي إلينا قريبًا

فنحن نحبك كثيرًا.

وقد وقَّع جميع سكان شارع «سيتكا» تقريبًا البطاقةَ. غرقت في البكاء، لم أشعر أني بطلة، ماذا لو كنت قد تسلقت السلم أسرع؟ هل كان بإمكاني إنقاذ «تشاد» و«مونيك» أيضًا؟

ما حدث قد حدث ولا سبيل لتغييره.

أخذنا، أنا و«بيدرا» و«جيسي»، نبكي معًا في غرفتي بالمستشفى، ممسكين ببعضنا بعضًا، ممتنات لما تم إنقاذه، حزينات على ما فُقِد.

☆☆☆

بعد ظهر اليوم التالي، بينما كان «جوني» في الخارج، عاد الطبيب إلى غرفتي لمرة أخيرة قبل التصريح بخروجي، وفحص أعصابي سريعًا، واختبر ردود فعلي واستجاباتي؛ في اللمس، والسمع، والشم، والتذوق، والبصر.

ماذا أصابني؟ ألا أستطيع أن أثق في حواسي؟ ربما لا. كنت قد استيقظت في الليل ورأيت ظلًّا في المدخل على شكل رجل، لكن «جوني» كان على السرير بجواري، يغط بهدوء!

شعرت بالرعب فأغمضت عيني، وعندما فتحتهما بعد دقيقة، كان الرجل قد اختفى. ربما كنت أحلم أو أهلوس. بعد أن اختبر الطبيب توازني وقوتي، أعطاني تصريحًا بمغادرة المستشفى. قال:

- لكن عليكِ أن ترتاحي. لا تبذلي أي نشاط بدني أو عقلي شاق لفترة من الوقت.

- لدي كتاب جديد سيصدر قريبًا. لدي جدول زمني للكثير من حفلات التوقيع كذلك.

- قومي بإلغائها.

- ولكن هذا هو عملي، وإلا كيف سأعيش؟

لم أستطع أن أوقف عقلي عن التفكير. في الحقيقة شعرت بخلاياي العصبية نشطة أكثر من المعتاد.

- على الأقل توقفي لبضعة أسابيع.

ثم رحل، بينما عاد «جوني» بأكياس التسوق، فوضعها على المنضدة بجانب بعض الهدايا من الأصدقاء. قلت:

- لقد سمحوا لي بالخروج. دعنا نذهب إلى المنزل.

نظر «جوني» نحوي وقد بدا مأخوذًا، قال:

- تذكري أنه لم يعد منزلًا.

- ما زلت أرغب في رؤيته.

- حسنًا، لا تذهبي إلى أي مكان. سأعود حالًا.

ترك هاتفه المحمول على المنضدة ودخل دورة المياه، مغلِقًا الباب وراءه، بعد لحظة، رن هاتفه، وظهر رقم غير معروف على الشاشة. أجبت:

- آلو؟ هذا هاتف د. «ماكدونالد».

لكنني سمعت نغمة تدل على انقطاع الاتصال، ثم ظهرت الكلمتان «انتهت المكالمة» على شاشة الهاتف بأحرف حمراء زاهية. سمعت صوت تدفق المياه في المرحاض، قبل أن يخرج «جوني».

- مَن المتصل؟

قالها وهو يغسل يديه في الحوض.

- لا أعلم. لقد أغلق الخط.

مط شفتيه مستغربًا، قبل أن يعقد حاجبيه قائلًا:

- هذا غريب. لقد حدث نفس الشيء معي عدة مرات مؤخرًا.

انتزع منديلًا ورقيًا من اللفافة وجفف يديه.

- شخص ما يلاحقك ربما؟

علقت وأنا أضع الهاتف على المنضدة، فقال:

- يحدث أحيانًا. سوف يملون ويتوقفون في النهاية.

ألقى المنديل الورقي في سلة المهملات، ووقف ورائي، ولف ذراعيه حول خصري، وأخذ كلانا يحدق إلى المرآة. بدا هزيلًا، وقد رسم القلق تجاعيد جديدة بجانب عينيه. كان يعمل بجد، ولا يحظى بما يكفي من النوم. قلت:

- أنا بحالة جيدة بما يكفي لمساعدتك الآن.

قلتها وأنا أمد يدي أداعب لحيته الخفيفة، مكملة:

- ليس عليك الاهتمام بكل شيء.

- لا مانع عندي. قال الدكتور إنك بحاجة إلى الراحة.

- لا يزال بإمكاننا اتخاذ القرارات معًا.

لكنه كان على حق. لقد تعرفت بالكاد على انعكاسي في المرآة؛ بشرة شاحبة، وعينان غائرتان، وشعر ضعيف متقصف. في صورتي المطبوعة على أغلفة كتبي، كان شعري اللامع يحيط بكتفي فبدوت متألقة مليئة بالحياة. قال «جوني»:

- نحن بحاجة إلى أن نقرر إلى أين نحن ذاهبان.

- للمنزل، أريد العودة إلى المنزل.

تراجعت للخلف حتى لامست صدره، فشعرت بنغزة من الحنين تغزو عظامي.

قبَّل «جوني» قمة رأسي.

- لا يمكننا النوم وسط الأنقاض.

لكنني أردت ذلك. بقوة الإرادة سأتمكن من جعل المنزل يقوم مرة أخرى من وسط الرماد ويعيد تكوين نفسه، التفتُّ للنظر في عينيه.

- أعلم أنه سيكون صعبًا، لكن...

قاطعني «جوني»:

- يمكننا أن نبدأ من جديد في مكان جديد، يمكننا الانتقال إلى تلك المدينة التي تهطل فيها الأمطار على مدار العام. فوركس، حيث صوروا أفلام

مصاصي الدماء الخاصة بسلسلة «توايلايت»، الجو رطب للغاية هناك، لا شيء لتشتعل فيه النيران ثانية.

- لديك التزامات، العيادة...

- سوف أنقل العيادة.

- مرضاك لا يستطيعون الانتقال معك، إنهم يعتمدون عليك...

- ششش.

لامس «جوني» شفتي بإصبعه.

- دعينا نتحدث عن هذا في وقت لاحق. أما في الوقت الحالي، فما يهم حقًا هو أنني تمكنت من استئجار مكان لنا في الجانب الآخر من المدينة.

- هذا هو المكان الذي كنت فيه طوال اليوم إذن!

- ليس طوال اليوم.

عن قرب، ظهرت تفاصيل وجهه بوضوح أكثر؛ رموشه الكثيفة، ووحمة بيضاء بالكاد ملحوظة على جبهته، واللحية الخفيفة التي نبتت على وجنتيه.

- كيف وجدت مكانًا بهذه السرعة؟

- قابلت «مود» بالصدفة، كانت بالخارج تنظف الحطام من حديقتها. أخبرتني بأن «إيريس كوجلان» لديها مكان يصلح للإيجار في الجهة الأخرى من المدينة، تعرفينها، إنها سمسارة العقارات، لذلك اتصلت بها، تبين أن لديها كوخًا نصف مؤثث ولكن لا يسكنه أحد. يمكننا الانتقال له في أي وقت، يقع في شارع هادئ للغاية.

- هل ذهبت هناك بالفعل؟

بدأ رأسي يدور مرة أخرى، «جوني» يؤدي واجباته بكفاءة. أعرف أنه اهتم بأمر كل شيء. كنت ممتنة للحصول على مكان أقيم فيه، فلماذا يهاجمني ذلك الشعور الممض بالقلق؟ ربما لأننا؛ «جوني» وأنا، كنا بلا مأوى، ومجبرين على الاعتماد على طيبة الغرباء. قال:

- نعم، تفقدتُ الكوخ، صحيح أنه صغير، لكنه جذاب بطريقة ما. بعد أن نمر بشارع «سيتكا»، سآخذك إلى هناك. يمكنك إلقاء نظرة واتخاذ القرار بنفسك.

قلت:

- أنا متأكدة من أنه سيكون رائعًا.

أي مكان سيكون رائعًا في حالتنا، حتى لو كان ديرًا.

وبما أن الضروريات توجب التغييرات، فيتوجب عليَّ أن أكون أكثر عملية الآن.

☆☆☆

الفصل الخامس

في طريق العودة إلى شارع «سيتكا»، شاهدت المشاة وهم منطلقون في طريقهم فوق الأرصفة الحجرية في طريق «ووترفرونت» يتفقدون نوافذ المتاجر، ويحتسون القهوة المثلجة، كما لو أن حياتهم طبيعية على الدوام ولم يمروا بأي مشكلات.

حلقت الأوراق الجافة على طول قنوات مياه الصرف، بينما تحولت أوراق شجر القيقب إلى ظلال عميقة من اللونين الذهبي والقرمزي. كان الخريف يتباهى بقوته، ولكن عاجلًا أو آجلًا سيفسح الخريف المجال للشتاء، وستفقد كل تلك الأشجار كل أوراقها.

قاد «جوني» سيارته غربًا عبر الجزء القديم من المدينة، الذي انتصبت فيه المنازل ذات الطراز الفيكتوري، التي بُنيت في أثناء ذروة صناعة الأخشاب منذ قرن. في نحو الساعة السابعة، ارتفع القمر محلِّقًا من خلفنا، بينما نثرت الشمس لطخة من اللون الوردي عبر الأفق الغربي. عندما دخل «جوني» في شارع «سيتكا»، شعرت بقلبي يخفق بشدة من التوتر، وجزء بداخلي يتساءل عن ماذا تبقى من المنزلين؟ أوقف «جوني» سيارته عند الرصيف وأمسك بيدي.

كان الضرر أسوأ مما كنت أتوقع. كيف كانت تلك الفوضى الرهيبة منزلنا يومًا ما؟

النوافذ محطمة، وقد سقطت الجدران الجانبية واسودَّ لونها، في حين غطس السقف إلى الداخل بسبب التلف الذي أصابه والمياه التي ابتلعها، وقد بدا الفناء أشبه بمكب نفايات محاط بشريط المطافئ الأصفر، ليدل على أنه كان مسرح حريق منذ فترة قريبة للغاية.

ظلت رائحة الخشب والنسيج المحترقان عالقة في الهواء، أما في البيت المجاور، فلم يتبقَ سوى هيكل بيت عائلة «كيمبال» الخارجي، بينما شق محققون ببذلة رسمية طريقهما وسط الأنقاض.

كان الشارع هادئًا بخلاف ذلك، وقد ألقت عليه أشجار التنوب الطويلة ظلالها، لكنني شعرت بالناس يختلسون النظر من وراء نوافذهم. ارتسمت ليلة الحريق في عقلي؛ اللهب والدخان، و«تشاد» و«مونيك» وهما محاصران داخل منزلهما، يختنقان ببطء.

- هل أنتِ بخير يا «سارة»؟

تردد صدى صوت «جوني» كأنه آتٍ من نفق طويل. أجبته:

- بخير.

لكنني في ذهني رأيت نفسي فوق السلم من جديد، بينما «ميا» بين ذراعي.

- فلنذهب.

- ألا ترغبين برؤية...

- ليس الآن!

ابتعد «جوني» عن الرصيف وهو يغمغم:

- ما كان يجب أن أحضرك هنا.

- أردت المجيء. كان يجب أن أفعل المزيد في تلك الليلة.

- لقد فعلتِ كل ما في وسعك.

أومأتُ برأسي في صمت، لأني لم أكن واثقة من قدرتي على التحدث دون أن أنخرط في البكاء، عندما عاد «جوني» بالسيارة عبر المدينة، متخذًا نفس الطريق، فتحت النافذة وأخذت أستنشق الهواء النقي. توجه بنا شرقًا إلى منطقة كثيفة الأشجار، وانحرف إلى طريق ضيق مليء بالغابات. كان مكتوبًا على لافتة الشارع «شادو بلاف»، وأسفلها لافتة أصغر مكتوب عليها «طريق

مسدود – لا مخرج». تباطأ في سيره وهو يمر بمنزل أبيض مهيب فيكتوري الطراز، محاط بسجادة من العشب الأخضر الشاحب.

في الممر، حزمَ رجالٌ يرتدون ملابس العمل المعدات في شاحنة زرقاء. قال «جوني»:

- هذا هو بيت «إيريس كوجلان».

انحنيت عبر النافذة لإلقاء نظرة أفضل. سألته:

- هل تعيش وحدها؟

- نعم، هي مطلقة. لست متأكدًا ما إذا كان لديها أطفال أم لا.

إلى اليسار عبر الطريق، استلقت مساحة من الغابات الكثيفة. وظل يقود سيارته متجاوزًا بستانًا آخر من أشجار التنوب العالية وأشار نحو كوخ أخضر اللون على اليمين، منعزل عن الطريق وتحيطه غابة.

- هذا هو المكان المعروض للإيجار.

قلت له بينما هو يوقِف السيارة في الممر:

- يبدو كأنه كوخ من أكواخ قصص الأطفال الخرافية.

من بين الأشجار، أطل منزل جار آخر في نهاية الشارع المسدودة. منزل حديث الطراز على شكل هرمي من خشب الأرز ذو نوافذ ضخمة. استرخى كتفا «جوني».

- هل أنتِ واثقة؟ قولي الحقيقة. لا يزال بوسعنا الذهاب إلى فندق.

- أنا أقول الحقيقة.

- يحتوي على غرفتي نوم وحمام واحد فقط.

- وهل سنحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك حاليًّا؟ لقد أقمت في غرفة مستأجَرة في الكلية، وكانت جيدة بما فيه الكفاية وقتها، وهذا المنزل أكثر من جيد بالنسبة إلى ما نحن فيه.

- إنه أكبر من غرفة مستأجرة على الأقل.

ترجل من السيارة وأخرج أمتعتنا القليلة من حقيبة السيارة، تاركًا الهدايا في المقعد الخلفي. صعدنا معًا الدرج الخشبي فتصاعد صريره وهو يقودنا إلى شرفة متهالكة. غردت الطيور على الأشجار، بينما ارتفعت أصوات بعض الحيوانات من أسفل الشجيرات القريبة، اندفع نهر من سفوح الجبال الأولمبية على مبعدة.

أدخل «جوني» المفتاح في القفل، وسرعان ما انفتح الباب ليندفع عبره حاملًا الحقائب للداخل، قبل أن يسقطها في الردهة. ثم انحنى مستندًا إلى الباب المفتوح.

- ها هو ذا، ما رأيك؟

دلفت للداخل. قادني المدخل إلى غرفة معيشة مضاءة جيدًا، ذات جدران مطلية باللون الأصفر الباهت، وأرضية من خشب البلوط تم تنظيفها مؤخرًا. أسفل روائح المنظفات والتلميع، استطعت تمييز رائحة عفن خفية من خشب قديم. كانت هناك نافذة كبيرة، بها شرخ رقيق في الزجاج، كشفت عن منظر لحديقة وافرة العشب، وأرجوحة مصنوعة من إطار قديم تتدلى من شجرة تنوب ضخمة، وغابة بالخلف.

لف «جوني» ذراعيه حول خصري من الخلف، فشعرت بصدره العريض يضغط على ظهري، فاستسلمت لدفئه. لامس بشفتيه تلك البقعة الحساسة في قاعدة رقبتي، فتنفست بسرعة، هو يعرفني جيدًا، استدرت لمواجهته فأخذ يقبلني، لأشعر بشفتيه قويتين ومليئتين بالتصميم.

كان هناك شيء مميز فيه، طاقة من نوع ما تتصاعد منه، كما تصاعدت منه رائحة خفيفة غير مألوفة، ربما خشب الصندل. عطر ما بعد حلاقة جديد ربما؟

- عفوًا؟ دكتور «ماكدونالد»؟

قاطعنا صوت رقيق.

- أوه، أنا آسفة للتطفل. سوف أعود لاحقًا.

- أوه لا، معذرة.

قلتها وأنا أتراجع للخلف، وقد توهجت وجنتاي خجلًا. وقفت «إيريس كوجلان» عند الشرفة. بدت امرأة رياضية وأنيقة، ترتدي بنطالًا جينز وأحذية رياضية، وقميصًا فيروزي اللون بأكمام قصيرة. تعرفت عليها بسبب المرات الكثيرة التي رأيتها فيها في شارع «سيتكا»، تعرِض المنزل الموجود في الزاوية على أحد الزبائن المحتملين، لكن لم أتحدث معها قط.

تهدل شعرها البني اللامع في موجات ناعمة على كتفيها، وهي تقف منتصبة القامة وقد بدت قوية، تشع مزيجًا من الطموح والوِد، مد «جوني» يده ليصافحها.

- «إيريس»، هذه زوجتي، «سارة».

مدت «إيريس» يدها تصافحني بأصابع باردة قائلة:

- سررت بلقائك.

قلت:

- لقد سمعت عنكِ الكثير.

- أشياء جيدة على ما أتمنى؟

قالتها «إيريس» وهي تطلق ضحكة صافية.

- أشياء رائعة. مبروك على بيع منزل شارع «سيتكا».

- الواقع أن المنزل باع نفسه، كان بناءً جميلًا في شارع جميل.

ثم بدا الحزن في عينيها.

- آسفة جدًّا بشأن الحريق.

أومأت برأسي، وشعرت بالجفاف يعود ليغزو حلقي من جديد.

- شكرًا لكِ.

بدا وجه «جوني» خاليًا من التعبير، لكنني لاحظت الانقباضة الخفيفة التي حدثت بجفنه. ابتسمت «إيريس».

- أخبرتني «بيدرا راميريز» بأنك مؤلفة وتصدرين كتبك باسمك قبل الزواج؟

قلت:

- نعم، اسم «فينيكس».

شعرت بالراحة لتغيير الموضوع.

- أتمنى أن تجدي بعض الهدوء هنا لكتاباتك. هل تحبين القيام بجولة في الكوخ؟

- سيكون ذلك رائعًا.

تنحيت جانبًا فمرت «إيريس» بجواري لتقود الطريق، تاركة أثرًا من العطر الخفي في أعقابها. أظهرت لنا خفايا الكوخ، بدءًا من منظم الحرارة الدقيق في غرفة المعيشة، إلى النافذة العالقة في المطبخ، ومرحاض الحمام الذي يعمل بمزاجه.

- سآتي بمن يُصلح كل شيء، الحقيقة أنني لم أكن أتوقع قدوم مستأجرين.

قلت:

- المكان ممتاز، شكرًا لكِ على تأجيره لنا في تلك المهلة القصيرة.

- أتمنى لو كان بإمكاني فعل المزيد للمساعدة.

قادتنا لغرفة النوم الرئيسية بسريرها الضخم الذي يكفي شخصين، وطاولتين على كل جانب منه، ثم أرتنا غرفة النوم الأخرى الموجودة في مقدمة المنزل، والتي حوَّلتها إلى مكتب للعمل، فوضعت به مكتبًا خشبيًّا، ورفوفًا، وكرسيًّا في الزاوية.

من خلال النافذة رأيت امرأة تتمشى فوق الممر بالخارج مقتربة، مرتدية معطفًا أسود بقلنسوة، وتمسك بمظروف. نظرت «إيريس» إلى الخارج. علقت:

- ترى ماذا تريد؟

جاءت المرأة حتى الشرفة وسحبت القلنسوة للوراء، فبدت باذخة الجمال، تشبه «إليزابيث تايلور» وهي شابة، ذات شعر أسود وبشرة عاجية، مثيرة للاهتمام وجذابة للغاية، أدخلَت «إيريس» المرأة للمكان.

- قابلي جيرانك الجدد يا «تيريزا مينكويسكي». هذان هما «جوني ماكدونالد» و«سارة فينيكس».

قال «جوني»:

- تشرفنا.

وصافح «تيريزا»، فشعرتُ بأن مصافحته بقيت لفترة أطول من اللازم، وأن تعبيرًا غريبًا ظهر على وجهه، كأنه يعرفها من قبل، ولكنه لم يشِر إلى ذلك. ربما كانت إحدى مرضاه. لقد عالج كل شخص تقريبًا في المدينة من مرض جلدي أو آخر.

- مرحبًا بكما في الحي.

سحبت «تيريزا» يدها وصافحتني. شعرت أن أصابعها دافئة ناعمة. قلت:

- نحن متزوجان، «جوني» وأنا.

- لكن بألقاب مختلفة.

أكملت «إيريس»، فابتسمت «تيريزا».

- أما أنا فأخذت اسم زوجي. هو وابننا كلاهما اسمه «كادين». نحن نعيش في البيت «أ» الموجود أسفل الشارع.

سلمت «تيريزا» المظروف الذي تحمله لـ «إيريس».

- وصلنا بريدك مرة أخرى. ها هو ذا.

- يا للهول. لا بد لي من إخبار شركة النقل الجديدة.

هكذا علقت «إيريس» وهي تدس المظروف في جيبها، لمحت جزءًا من عنوان المُرسِل، محامي قانوني. ابتسمت «تيريزا» في وجهي.

- سنراكما معًا غدًا إذن؟

- بالغد؟

سألها «جوني» وهو يبادلها النظر، بينما ضحكت «إيريس».

- لقد سبقتني. كنت أنوي دعوتكما لتناول العشاء.

- نحن نقدِّر العرض، ولكن...

نظرت إلى «جوني»، على أمل أن يساعدني في التهرب من تلك الدعوة، فلم تكن لدي أي طاقة للتواصل، لكنه أومأ برأسه مبتسمًا.

- بالتأكيد، فعلى كل حال، خزاناتنا فارغة من أي طعام.

- لكن...

اعترضتُ، لكن «إيريس» أجابته:

- جيد، موعدنا السابعة إذن.

قالت «تيريزا» وهي تخرج إلى الشرفة:

- أراكما وقتها إذن. يبدو كما لو أن لديكما زائرًا آخر.

تسللت شاحنة تحمل علامة «قائد قوات الإطفاء بالمقاطعة» إلى الممر، وتوقفت خلف سيارة «جوني»، شعرت بمعدتي تتقلص في عصبية حتى صارت كالهريسة. لم أكن مستعدة لاستعادة مشهد النيران، أو للإجابة عن أي أسئلة، لكن يبدو أنه ليس لدي خيار.

☆☆☆

الفصل السادس

- أنا «رايان جرين».

قالها قائد قوات الإطفاء بصوت عميق رنان، وقد أمسك بجهاز «تابلت» في يده. كان أطول ببضع بوصات من «جوني»، الذي يبلغ طوله نحو ستة أقدام. لم أستطع منع نفسي من التحديق في ملامح الرجل، الذي بدا كالصورة النمطية للرجال الخشنين الوسيمين، كان ذا شعر بني محمر، وفك مربع قوي، وأنف بارز نوعًا ما، وبنية رياضية قوية كما لو أنه يمارس رفع الأثقال وتسلق الجبال (ربما يمارس كلَيهما في نفس الوقت).

كانت «إيريس» و«تيريزا» قد خرجتا على عجل. شعرت بالحُمرة تغزو وجنتيَّ، ورسمت ابتسامة سريعة على شفتيَّ.

- أنا «سارة فينيكس».

صافحني بقوة.

- آسف لخسارتك يا سيدتي. كيف حالك الآن؟

ترك يدي ونظر نحو جبهتي، فلمست الضمادة بتلقائية.

- أفضل، شكرًا.

«أفضل» مصطلح نسبي على أي حال.

- هل تحب أن أقدم لك أي شيء؟ أخشى أن أفضل ما لدينا الآن هو ماء عادي من الصنبور، نحن بحاجة إلى القيام بشراء بعض البقالة.

عرض عليه «جوني»، فرد عليه السيد «جرين»:

- لا حاجة، أين يمكن أن نتحدث على راحتنا؟

أشرت نحو غرفة المعيشة، ودخلنا جميعًا، فزأرت الأرضية الخشبية مصدرة صريرًا تحت أقدامنا.

استرخى السيد «جرين» على الأريكة. استقر «التابلت» الخاص به على فخذيه، بينما جلست أنا و«جوني» على كرسيين أمامه. شعرت بظهر مقعدي صلبًا غير مريح.

- كيف حال «ميا»؟

سألته، كان لا يزال بإمكاني -داخل عقلي- رؤية فستان «مونيك» الأزرق اللامع، وسماع صوتها المنغم. قطب السيد «جرين» حاجبيه مجيبًا:

- إنها فتاة محظوظة أن لديها جارة مثلك.

محظوظة لأنها فقدت والديها؟

- هل اكتشفتم كيف بدأ الحريق؟

- نعتقد أن الحريق قد تم إشعاله عمدًا.

لم يبدِ السيد «جرين» أي عاطفة أو شعور.

- لقد استبعدنا جميع الأسباب العرضية.

- اللعنة.

علق «جوني» وقد تصلبت ملامح وجهه، بينما شعرتُ بتلك الكلمات كأنها رصاصات أُطلقت على عقلي، فتسمرتُ. وجاهدت للتنفس للحظة.

- هل يمكنك إخبارنا بأي شيء آخر؟

تنحنح السيد «جرين» لثوانٍ، ونظر إلى شاشة جهاز «التابلت» الخاص به، ثم نظر لوجهي مرة أخرى.

- لا يمكنني الكشف عن أي شيء حتى الآن، لكن من المهم أن تخبريني بكل ما تتذكرينه عن ليلة الحريق، حتى لو لم يبدُ شيئًا مهمًا.

ألقيت نظرة خاطفة من النافذة نحو سماء الشفق بالخارج. ماذا يمكن أن يفيد السيد «جرين» فيما عندي من معلومات؟ نبرة صوت «مونيك» وهي

تنظر لأعلى السلم وتسألني عن «جوني»؟ أم «أدريان» وهو ينظر من مقدمة شرفة منزل «جيسي»؟

- كان آل «كيمبال» قد عادوا قبل موعدهم بأيام قليلة. كانوا في إجازة في هاواي، في الجزيرة الكبيرة.

أخذ يكتب على جهازه اللوحي.

- في أي وقت كان ذلك؟

- وقت الغروب تقريبًا.

- وهل تعرفين لماذا عادوا مبكرًا؟

- قالت «مونيك» إن الأمر معقد، أو شيء مثل هذا.

- ثم ماذا حدث؟

- قاموا ببعض الشواء في الفناء الخلفي للمنزل، ثم ذهبت أنا إلى السرير. سمعت سيارة تجوب الطريق، ربما نحو الساعة الحادية عشرة. ثم غفوت، وشيء ما أيقظني. كانت الساعة 5:1 صباحًا، أتذكر أنني نظرت إلى ساعتي.

- شيء ما أيقظك؟

ارتفع حاجبه الأيسر، فأجبت:

- أتذكر بشكل غامض صوتًا عاليًا. والدخان واللهب القادم من الطابق الأول في البيت المجاور، وأتذكر انطلاق إنذار حريق بيت آل «كيمبال»، ثم... سمعت «ميا» تصرخ.

ظل «جوني» صامتًا ومتوترًا، بينما ظل السيد «جرين» ينقر على «التابلت» الخاص به، ثم نظر إليَّ مرارًا. أثارت نظراته المباشرة أعصابي.

- ما لون الدخان؟ أسود، أبيض، أم رمادي؟ وماذا كان لون النيران؟

- الدخان كان أسود على ما أعتقد. لكن الرؤية كانت مظلمة في الخارج، من الصعب التحديد. كانت النيران ذات لون برتقالي زاهٍ.

- هل لاحظتِ أي شيء آخر غير عادي قبل الحريق؟ نباح كلب مثلًا، أو أي شخص يتسكع في الحي؟

وهنا شعرت أن كلا الرجلين ينظران إلي باهتمام.

- جاءت «مونيك» إليَّ لاستعارة بعض الفحم. لكن لم يكن هذا شيئًا غير معتاد، فقد كانت دائمًا ما تستعير الأشياء منا.

- هل من شيء آخر؟

- رأينا «جيسي» عبر الشارع، جالسة عند شرفة منزلها مع صبي. أعتقد أنه كان صديقها، يُدعى «أدريان». لم يكن والداها في المنزل، لكنهما خرجا لاحقًا في أثناء الحريق.

عبس السيد «جرين» وهو ينقر كاتبًا المزيد من الملاحظات على جهازه، ثم نظر لأعلى نحوي مرة أخرى سائلًا:

- كيف عرفت أن والدي «جيسي» لم يكونا في المنزل سابقًا؟

- لأنهما يملكان سيارة هوندا فضية، دائمًا يأخذان تلك السيارة عندما يهمان بالخروج، لكن وقتها كانت هناك سيارة «بويك» سوداء في الممر الخاص بمنزلهم، و«أدريان» يقود سيارة «بويك» سوداء. لم تكن «جيسي» لتستقبله لو كان والداها في المنزل. هل تعتقد أن «جيسي» أو «أدريان» قد أشعلا الحريق؟

علق «جوني»:

- «جيسي» فتاة جيدة، لن تفعل شيئًا مثل هذا أبدًا.

أجاب السيد «جرين»:

- ستُفاجأ بما قد يفعله بعض الناس.

قلت:

- لكننا نعرف «جيسي» جيدًا.

لكن هل نعرفها فعلًا؟ هل أعرف أي شخص في ذلك الشارع بما يكفي لمعرفة ما إذا كانوا يمكن أن يضرموا تلك النيران؟ سيد «كالاسيس»؟ زوجته «مود»؟ «تشاد» و«مونيك»؟

- كانت «جيسي» تعتني بالمنزل في أثناء غياب آل «كيمبال»، تستلم بريدهم وتسقي نباتاتهم. ذكرت «مونيك» أن شيئًا ما قد فُقد هذه المرة. قلم جاف من الذهب. لكنها قالت إنه ربما سقط خلف الثلاجة.

نظر السيد «جرين» إليَّ مرة أخرى.

- هل رأيتِ «جيسي» تدخل منزل آل «كيمبال» في ذلك اليوم؟

- لا، لكنني لا أنظر طيلة الوقت من نافذتي.

- ذكرتِ أن لديها مفتاح المنزل، أليس كذلك؟

أومأت برأسي إيجابًا.

- في بعض الأحيان لا نهتم بإغلاق أبوابنا؛ لا شيء يحدث هناك... في المعتاد.

- هل لديكما علم بأي سبب قد يجعل أي شخص راغبًا في إشعال النار في منزل آل «كيمبال»؟

عبس «جوني» وهز رأسه نفيًا وهو يجيبه:

- لا، على الإطلاق.

علقت أنا:

- لا، لماذا يقوم أي شخص بإشعال النار في أي منزل؟

في الخارج، اكتسبت السماء لونًا أسود داكنًا خاليًا من النجوم.

- هل سمعتما آل «كيمبال» يتشاجران من قبل؟

سأل السيد «جرين»، ثم استطرد:

- ... أو أي علامة على وجود مشكلة؟

أجبت:

- أحيانًا كانا يرفعان صوتيهما. كل الأزواج يفعلون ذلك، أليس كذلك؟

- هل رفعا صوتيهما في تلك الليلة؟

- لم أسمع أي شجار، لا.

حدق السيد «جرين» إلى وجهي بشدة، كما لو كان يحاول أن يقرأ ما في ذهني.

- كانت نافذتك مفتوحة، وسمعتِ «ميا» تبكي وذهبتِ للخارج...

أخبرته بكل ما حدث بعد ذلك، كل ما استطعت تذكره على الأقل.

- انطلقت النيران من نافذة حجرة «ميا» وقفزت إلى سقف منزلنا.

- يمكن أن تكون النافذة المفتوحة كمدخنة، فتمتص الهواء في القاع وتطلق الدخان من الأعلى. في ليلة جافة عاصفة مثل ليلة الحادث، يمكن أن يطير بعض الجمر...

- وأحرق منزلنا. كسرتُ نافذة حجرة «ميا».

- لم يكن لديكِ خيار آخر. لقد أنقذتِ الفتاة الصغيرة، لا تنسي هذا.

ألقى السيد «جرين» نظرة متعاطفة نحوي، وقاومت البكاء مرة أخرى، بينما علق «جوني»:

- ماذا عن الاحتيال؟ هل يمكن أن يكون آل «كيمبال» قد استأجرا شخصًا ما ليضرم النار في منزلهما؟

حدقت إليه، عاجزة عن الكلام. كيف يمكن أن يحدث هذا؟!

نقل السيد «جرين» نظراته بيني أنا و«جوني».

- أصبح الاحتيال أكثر شيوعًا هذه الأيام. الناس يريدون الخروج من ديونهم، فهم يغرقون تحت تلال من القروض العقارية، أو فقدوا وظائفهم، أو فشلت مشاريعهم.

- لماذا قد يقتل جيراننا أنفسهم؟

سألته مصدومة، فلم أستطع تخيل «تشاد» أو «مونيك» يقومان بالتخطيط لمثل هذه المأساة. قال «جوني»:

- ربما ظنا أن بإمكانهما الخروج من المنزل في الوقت المناسب.

- أنا لا أقول إن هذا ما حدث، لكن...

- ولماذا تركا «ميا» في غرفتها؟

سألته بحدة، ثم استطردت:

- لو أنهما خططا للموضوع فعلًا، فلن يتركاها بغرفتها.

رفع السيد «جرين» أحد حاجبيه.

- لن نعرف أبدًا، شيء واحد تعلمته بهذه المهنة، وهو أن الناس يفعلون أشياءً غريبة لا تُصدَّق!

- لكن آل «كيمبال» لن يعرِّضا طفلتهما للخطر.

كررت بإصرار، لكن هل هذا صحيح فعلًا، أم أنهما...

نظر السيد «جرين» إلى «جوني».

- أنت كنت بعيدًا في مؤتمر طبي؟

- نعم.

- في كاليفورنيا؟

- بل في سان فرانسيسكو.

- متى غادرت؟

- قبل الحريق بليلتين، بالطيران.

- ومتى عدت؟

- كان من المفترض أن أبقى هناك ليومين آخرين. عندما وصلتني رسالة «سارة» اتصلت بها، لكن «بيدرا راميريز» هي من ردَّت وأخبرتني أن «سارة» في المستشفى. لهذا عدت على الفور.

- هل استقللت طائرة الليل؟

أجابه «جوني» باستغراب:

- نعم، ما صلة ذلك بالموضوع؟

شعرت بقشعريرة تسري في كتفيَّ.

- لم تتمكن من الرد على مكالمة زوجتك الأصلية في أثناء الحريق.

تمتم السيد «جرين»، فأخذ «جوني» ينظر نحوه وقد بدا شيء من الشعور بالذنب في نظراته، وأجاب:

- لقد تحدثت معها في وقت سابق من المساء، لكن فاتتني مكالمتها الثانية.

- التي كانت في منتصف الليل.

أخذ السيد «جرين» يحدق إلى «جوني»، لكن «جوني» لم يتلعثم.

- زميل لي كان قد فقد مريضًا بالسرطان للتو. كنا في بار الفندق.

- كنت تقوم بمواساته؟

- يمكنك أن تقول هذا.

- هل كان زميلًا أم زميلة؟

قال «جوني»:

- زميلة، لم أسمع هاتفي. ما علاقة كل هذا بالحريق؟

شعرت بغثيان خفيف يغزو حلقي، وربما يكون أحد الآثار الجانبية للارتجاج؟ أم أنه أثر ما سمعته؟

- لقد أخبرني «جوني» نفس القصة مسبقًا، وحكى كل تلك التفاصيل.

نظر السيد «جرين» إلى ساعته، ثم نهض مغلِقًا جهاز «التابلت» الخاص به.

- شكرًا. سنبقى على تواصل.

نهضت أنا الأخرى، ولا بد أنني كنت دائخة قليلًا، لأن «جوني» لف ذراعه حول خصري ليسندني.

- هل أنتِ بخير؟ هل أجلب لكِ بعض المياه؟

- أشعر ببعض التعب.

جلست على الكرسي بينما «جوني» والسيد «جرين» يتجهان صوب الباب.

- شكرًا لوقتكما.

سمعت السيد «جرين» يقولها في الردهة. قال «جوني» باقتضاب:

- لا توجد مشكلة.

انفتح الباب الأمامي بصرير ثم انغلق. شعرت بالارتباك، وعقلي في حالة فوضى عارمة، بينما هناك صداع جديد يضغط على صدغي. مشهد الحريق لن يغادر عقلي أبدًا؛ روائح الأخشاب المحترقة والمواد الكيميائية، وصرخات «ميا»، والدخان!

فكرت في أسئلة السيد «جرين» لـ «جوني»، حول مكان وجوده ليلة الحريق. لن يكذب عليَّ، لم يكذب عليَّ قط. أنا أثق به أكثر من أي شخص. لقد كان في حانة الفندق، يواسي زميلة، بالضبط كما قال لي. وعلى أي حال، أين كان بإمكانه أن يذهب؟



الفصل السابع

يحب «جوني» أن يقوم بالطهي، ولكن ها قد احترق كل كتاب طهو لديه، وكل ملاحظة دونها، وكل بقعة طماطم لطخت الصفحات، كل هذا احترق بلا رجعة. قام برحلة تسوق سريعة في منطقة وسط المدينة، وفي أول ليلة لنا في الكوخ، كان يخطط لتجربة وصفة تايلاندية من كتاب جديد كان قد اشتراه من مكتبة «شادو كوف».

- أنا أعيد بناء مكتبتنا، خطوة بخطوة.

قالها وهو يفتح الكتاب على صفحة وصفة الفول السوداني بالكاري، قبل أن يضع المكونات على المنضدة. اضطر لشراء توابل جديدة بعدما صارت مجموعتنا الضخمة -الزعفران والكركم العضوي وملح البحر المستوردون- طعامًا للنيران.

أخذ يدندن بينما هو يعمل، في محاولة عبثية منه لإعادة الحياة إلى طبيعتها. ذهبت من ورائه ولفَفْتُ ذراعيَّ حول خصره. أنا بحاجة إلى الشعور بصلابته ودفئه المألوفين. كنا بحاجة إلى التشبث بطقوس الحياة اليومية المعتادة. ذكرتني رائحة الكاري المتصاعدة برائحة المنزل القديم، مثل إحدى أمسيات الصيف الماضي، عندما كان «جوني» قد تبَّل الدجاج لتناول العشاء مع آل «كيمبال»، وتبَّل بعض شرائح التوفو بالكاري لي. لم يكن التوفو مطهوًا بما فيه الكفاية؛ انكمش وسقط من خلال الشواية. أخبرتني «مونيك» يومها أنني بحاجة إلى اللحم من أجل رغبتي الجنسية، ولكن بينما هي تتكلم، كانت تنظر إلى «جوني».

ماذا كانت تقصد بكلامها؟ هل كانت تقترح أنني لا أستطيع إعطاء «جوني» ما يحتاج إليه جنسيًا؟ بالكاد علق كلامها بذهني في ذلك الوقت. لكن لماذا عاد إلى الظهور الآن؟

ضغطتُ بيدي حول خصر «جوني» قائلة:

- لست بحاجة إلى الطهو، كان بإمكاننا طلب بعض الطعام الجاهز.

- أردت أن أطهو. أتمنى لو كان بوسعي إعادة منزلنا، لكن كل ما يمكنني فعله هو طهو طعامًا لكِ.

- فقط كن هنا معي، فهذا هو كل ما أحتاج إليه. لكني أتمنى لو لم تقبل دعوة عشاء «إيريس» هذه. أفضِّل أن أكون بمفردي لبعض الوقت.

- ليس علينا الذهاب. سأخبرها بأننا لن نتمكن من المجيء.

- لا، لا تفعل. لقد كانت لطيفة جدًا معنا.

- حسنًا، سنذهب ولن نبقى لفترة طويلة إذن.

ثم أطفأ الموقد، ووضع المغرفة على المنضدة.

- عِدني بهذا.

- أقسم لكِ.

ثم استدار ليواجهني، ولف ذراعيه حول جسدي.

- كان يجب أن أكون هناك من أجلك.

- لم تكن غلطتك. لم يكن بإمكانك معرفة ما سيحدث.

- لكنني أشعر بالمسؤولية.

- لست مسؤولًا عما حدث.

حملني بين ذراعيه، ثم اصطحبني عبر الرواق، إلى غرفة النوم الرئيسية الصغيرة، كما لو كنا في ليلة شهر العسل.

- لكن ماذا عن العشاء؟

سألته وهو يُرقدني برفق على السرير، فأجاب:

- العشاء يمكنه أن ينتظر.

قبلني مرة أخرى، قُبلة طويلة وعميقة.

أغلقت عيني، وفي عقلي، اتسعت غرفة النوم الصغيرة المعتمة بذلك الكوخ لتصبح غرفة نومنا القديمة الواسعة المليئة بالضوء بمنزل شارع «سيتكا». أصبح السقف كوة زجاجية تكشف عن النجوم اللامعة الموجودة بالخارج. بالتأكيد عرفت السماوات لماذا احترق منزلان، ولماذا مات شخصان.

في مخيلتي، يمكنني إزالة كل ما حدث من ضرر، ويمكنني إحياء الموتى، وتحويل الظلام إلى نور. كل شيء كان ممكنًا، تقريبًا.

في مكان ما على مبعدة، بينما كنا أنا و«جوني» نمارس الحب، سمعت هاتفه المحمول ينطلق بنغمة مألوفة مرحة. لقد غيَّر نغمة هاتفه مرة أخرى. ارتسمت كلمات الأغنية في عقلي، بصوت فرقة «إين فوج»، مرارًا وتكرارًا، قبل تحويل المكالمة للبريد الصوتي: «أكاذيب، أكاذيب، يستخدم الأكاذيب كأعذار».

☆☆☆

في وقت لاحق، تناولنا طعامنا بالأطباق الخزفية المرسومة يدويًا التي كانت في الكوخ. جلسنا متلاصقين في الزاوية المخصصة لتناول طعام الإفطار، التي كانت أصغر بكثير من طاولة الطعام الخاصة بنا في بيت شارع «سيتكا»، التي احتوت على مساحة إضافية للضيوف.

اشترينا طاولة من خشب البلوط كانت بتخفيض؛ إحدى ساقيها أقصر قليلًا من الأخريات، فكانت الطاولة مائلة وتهتز. قلت لـ «جوني»:

- أتمنى أن يكون بعض أثاثنا قد نجا.

بعد أن مارسنا الحب، تفقَّد بريده الصوتي، لكنه لم يرد على المكالمة الهاتفية التي سمعت رنينها. أخذ نفسًا عميقًا.

- في المرة الأولى التي عدت فيها إلى هناك، كان المحققون لا يزالون يبحثون عن أسلاك مكشوفة، وأشياء من هذا القبيل. ولكن يمكننا الدخول الآن.

- ربما غدًا.

هكذا أجبته، فقال:

- بعد العمل، اتفقنا؟ انتظريني.

أومأت برأسي، على الرغم من أن هناك خطة مختلفة بدأت تتشكل في ذهني.

بعد العشاء، قمنا بتنظيف المطبخ في ثنائية صامتة اعتدناها كثيرًا. شطف «جوني» الأطباق ثم وضعهم في غسالة الصحون. في هذه المساحة الأصغر مما اعتدناه بالسابق، والتي أجبرتنا على التلامس في الكثير من الأحيان لضيق المكان، أصبحت أكثر وعيًا بالطقوس الخاصة بالتنظيف.

ثم واجهت محنة تفريغ حقيبتي وتعليق أغراضي المتناثرة في خزانة غرفة النوم الصغيرة. هل كنت مدللة ومسرفة بسبب خزانة ملابسي الضخمة في بيت شارع «سيتكا»، التي كانت ضخمة لدرجة تكفي لوقوفي داخلها؟ لا يعني ذلك أنني كنت أبحث عن الرفاهية، فخزانة الملابس كانت هناك بالفعل عندما التقيت بـ «جوني»، كانت الرفوف موجودة في انتظار حمل البيجامة القطنية المفضلة لدي، وبنطال الجينز الناعم الخاص بي. لم يسكن أحد معه في ذلك المنزل قبلي، على الرغم من علمي أنه كان في علاقة أو علاقتين جادتين قبلي. ظل غامضًا بشأن ماضيه، في بعض الأحيان كان يبدو مكتئبًا عند ذكر الموضوع. يبدو أن علاقاته لم تدم طويلًا مطلقًا، حتى التقى بي.

- هناك شيء ما فيكِ يا «سارة فينيكس»، شيء مميز.

هكذا قال بعد أن التقينا لبضعة أسابيع. ابتسمت للذكرى. كان يريد أن يتحرك بسرعة، لنرتبط بعد تعارفنا ببضعة أشهر فقط، لكنني كنت حذرة، فظللنا نتواعد لما يقرب من الثمانية عشر شهرًا قبل أن أقبل عرضه للزواج. مثابرته آتت أكلها أخيرًا.

لكن كان عليَّ أن أعترف أنني أفتقد السترة التي خاطتها جدتي من أجل عيد ميلادي الخامس والعشرين، كما أفتقد لوحتها للفأرة «معجزة»، ترى، هل نجا أي جزء من اللوحة؟ لم أسمح لنفسي بالتكهن.

انطلقت أغنية أخرى هادئة تعزف داخل عقلي...

« سيرا سيرا

كل ما هو مقدر سيكون»

كان «جوني» قد أودع الهدايا التي جاءت في المستشفى بغرفة النوم الثانية، حيث وضعت بطاقة «ووندر وومان» على المكتب المرتجل. اتصل عدد قليل من الأصدقاء؛ مؤلفون من مجموعتي الكتابية، واثنان من زملاء «جوني» في العمل.

أشعرَ اهتمامهم قلبي بالدفء وأنا أتأمل حزمة صغيرة من البطاقات التي وصلتنا.

كأنهم يريدون توصيل رسالة؛ نحن نفكر فيكما. نحن هنا من أجلكما.

بالقرب من قاع الكومة، صادفت بطاقة غير عادية. على وجهها رسم كاريكاتوري لفص من الثوم المشوي على نار المخيم، أحمر الوجنتين، وواسع العينين، بينما فمه خط متعرج يدل على الحزن. الكلمات في الجزء العلوي كانت «نشاطركما الأحزان!».

أما في الداخل، كانت الكلمات مكتوبة بخط لامع: «عزيزي الدكتور «جوني ماكدونالد»، حاول التفكير في هذا الوقت كإعداد ضروري لك لأشياء رائعة قادمة». كان التوقيع بخط غير مقروء.

أشياء رائعة؟ ضروري؟ من يمكن أن يكتب شيئًا مثل هذا؟

ناولت البطاقة لـ «جوني»، والذي كان جالسًا في زاوية الإفطار، يتفقد البريد الإلكتروني على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به.

- من أرسلها؟

سألني وهو يمعن النظر في التوقيع الذي يزين البطاقة.

- لا تستطيعين تمييزه؟

- لا. لكن ذوقه سيئ. كيف يمكن أن يكون الحريق تحضيرًا لأي شيء رائع؟

- هذا ما فكرت فيه بالضبط.

شعرت بنغزة غريبة في أحشائي. مزق البطاقة وألقى بها في سلة القمامة.

- فلننسَ ذلك.

- نسيته بالفعل.

همست وأنا أقبل خده، ثم أكملت:

- أنا ذاهبة للاستحمام.

- سأنضم إليك بعد قليل.

أجابني دون أن يرفع عينيه من فوق جهاز الكمبيوتر.

وجدت أملاح اللافندر في خزانة الأدوية وملأت البانيو. عندما غصت بجسدي في الماء الدافئ المهدئ، طفا شعري على سطح المياه، وتذكرت ظهيرة أحد أيام الأحد الدافئة في الصيف الماضي، عندما كنت في الطابق العلوي لتنظيف نافذة غرفة نومنا. شاهدت «مونيك» في فناء منزلها، تطفو عارية على ظهرها في حمام السباحة البلاستيكي الصغير الخاص بـ «ميا»، كان «جوني» وقتها في الطابق السفلي في مكتبه، بالجانب الآخر من المنزل. هل رآها؟ هل أرادت شخصًا ما أن يراها؟ ربما هي لم تفكر حتى في كونها عارية. لكنني شعرت بعدم الارتياح، كأنني متلصصة عن غير قصد. وشعرت بأنني -بطريقة ما- جسديًا غير كافية، مقارنة بالمرأة الفرنسية الجذابة الشبقة بالمنزل المجاور.

لكن بينما أنا أخرج من مياه البانيو، سمعت «جوني» يتحدث بنبرة منخفضة في غرفة النوم الرئيسية. خرجت من البانيو، دون سحب السدادة من البالوعة، ثم جففت نفسي، ولففت نفسي بمنشفة، وتسللت خارجة على أطراف أصابع قدمي نحو باب الحمام الذي تركته مواربًا. لطالما جعلتني

الأبواب المغلقة أشعر برهاب الأماكن المغلقة، وشعرت بهذا بشدة الآن. كان بإمكاني أن أسمع أفضل قليلًا من مكاني هنا، بضع كلمات مسموعة بين الحين والآخر...

- ... مهما كلف الأمر... لا يمكن أن تعرف...

تراجعت للوراء، وسحبت السدادة، وبدأ الماء يفرغ بصوت عالٍ. هممت لنفسي كما لو أن كل شيء على ما يرام، وهو ما كان صحيحًا، أليس كذلك؟ أغرقت همهمتي هذه صوته، وأغرقت صوتي أنا نفسي.

ثم لم تلبث أن تصاعدت داخلي أفكار مقلقة. لماذا تتصتُّ عليه؟ أحيانًا ما كان «جوني» يخفض صوته إذا تلقى مكالمة مهمة في مكان عام، وغالبًا ما تطلبه عيادته معظم الوقت. لكني لم أسمعه يتحدث بتلك النبرة المنخفضة في المنزل من قبل.

بينما آخر دفعة من الماء تتسلل خارجة عبر بالوعة البانيو، دخل «جوني» وأخذني بين ذراعيه.

- اللعنة، لقد تأخرت ولم ألحق بك. اعتقدت أنني سآخذ الحمام معك.

- سمعتك تتحدث إلى شخصٍ ما.

ثم نظرت في المرآة، والتي كانت لا تزال ضبابية حول الحواف. بعد تردد، ملحوظ بالكاد، قال:

- نعم. عمل.

وقف ورائي وداعب كتفي.

- سمعتك تقول « مهما كلف الأمر، لا يمكن أن تعرف».

- هل سمعتِ كل هذا؟

ارتفع حاجبه.

- بدا الأمر كما لو...

- كما لو ماذا؟

بدأ الضباب يتلاشى من فوق سطح المرآة.

- اعتقدت أنك ربما تتحدث عني، تحاول إخفاء شيء ما عني.

- عنكِ؟

قالها ثم ضحك.

- طبعًا لا. كنت أتحدث مع مريض بخصوص علاج يتلقاه لبعض التهابات الجلد التي يعانيها، لا يريد أن تعرف زوجته.

- هل يشعر بالحرج؟

- هذا ممكن.

- يا له من مسكين.

قلتها ثم مررت بالمشط من خلال شعري المبلل.

- هل تتنصتين على مكالماتي دائمًا هكذا؟

- لا، كان ذلك فقط لأن...

- لأن ماذا؟

سقطت يداه من فوق كتفي، أكمل:

- لم أكن أتحدث عنكِ.

هل تغير التعبير المرتسم على انعكاس وجهه في المرآة؟ صار غاضبًا ربما؟

- أعلم أنك لم تفعل، فلننس ما حدث ولنبدأ من جديد. لا يزال بإمكاننا الاستحمام معًا. يمكنني إعادة ملء البانيو وإضافة بعض سائل الفقاعات.

لكنه كان قد استدار بالفعل لمغادرة الغرفة.



الفصل الثامن

نام «جوني» بسرعة، بينما رقدت أنا مكاني مستيقظة، أشعر بكل صوت وقد تضخم؛ أزيز المدفأة، وصرير خشب جدران الكوخ، وأنفاس «جوني» الرتيبة. تسللت الريح من خلال أغصان أشجار التنوب، وفي مكان ما على مبعدة، نعقت بومة ضخمة. كان من الممكن أن يُسعِد وجود البومة «مونيك»، تسببت «فيليكس كالاسيس» في إطلاق شرارة اهتمامها بالطيور. ذات مرة أخبرتها بمعنى كلمة بومة بالفرنسية؛ كانت البومة ذات الآذان المعنقة تُدعى une chouette بينما الكلمة العامة للبومة كانت un hibou. ضمت شفتيها بشكل استفزازي عندما نطقت الكلمات. كل شيء بخصوصها كان يطفح بالطاقة الجنسية، حتى صوتها عندما كانت تغني في أثناء العمل في الحديقة، عندما تغني الأغنية الفرنسية «حدثني عن الحب». كنت أستطيع رؤيتها، ورؤية كيف انحنت على الحشائش تشذبها، وكيف مسحت جبهتها بظهر يدها، لتحدق إلى الفضاء، ثم انزلقت إلى عالم الأحلام.

تُرى أي أسرار لا يعرفها غيرها أخذتها معها إلى القبر؟ وأي أحلام لم تتحقق؟

في النهاية ذهبتُ في النوم، وحلمت ثانية بالمنزل الموجود في شارع «سيتكا»، أضاء خيط من ضوء القمر الأشياء المألوفة في المنزل. كنا سعداء وآمنين. و«مونيك» و«تشاد» بخير، الحريق، والوفيات، كل ذلك كان سوء فهم رهيبًا.

استيقظت وسط الظلام وتذكرت أين أنا، في الكوخ الموجود بجادة «شادو بلاف». منزلنا القديم لم يعد موجودًا. أما «تشاد» و«مونيك» فقد ذهبا للأبد. لماذا أنسى كل هذا؟ ومع الإدراك شعرت بقلبي يتحطم.

هبت رائحة الدخان الخافتة ليلتقطها أنفي. كانت النافذة مفتوحة، بينما رفرفت الستارة على الزجاج. ليس مجددًا!

لا يمكن أن يحدث هذا ثانية. شعرت بأنفاسي تتقطع، بينما تقلصت أصابع يدي لتنغلق على بعضها.

كانت ساعة الراديو تشير إلى 2:00 صباحًا بأرقام زرقاء ضخمة. مددت يدي نحو مكان «جوني»، لكنه لم يكن هناك، فانزلقت أصابعي عبر غطاء سرير مجعد، ووسادة لا يعلوها شيء.

أين يمكن أن يكون في هذه الساعة؟ نهضت وسحبت ردائي الجديد وخفيَّ. انبعثت من الكوخ روائح غير مألوفة؛ رائحة عفن فطري تخالطها رائحة عطنة غامضة. انزلقت ظلال غريبة متدفقة عبر الغرفة، فاستطالت أشكال الأثاث، فبدت على قيد الحياة. ربما كان الدخان قادمًا من منزل أحد الجيران أو من الغابة.

تسارعت نبضات قلبي!

كنت أتصبب عرقًا، هتفت:

- «جوني»!

لا إجابة.

لم أجد أي أثر له في غرفة المعيشة. لم يكن في أي مكان في الكوخ. بدا كأنه تبخر في الهواء. نظرت خارج نافذة المطبخ، عبر الحديقة المنحدرة تدريجيًا، باتجاه الشارع. بالقرب من منزل «إيريس»، ومض مصباح شارع واحد، مما ألقى بمثلث من الضوء الضعيف. جاءت رائحة الدخان من مكان ما عبر الطريق. كانت سيارة «جوني» لا تزال قابعة في الممر، وقد ترك هاتفه المحمول على المنضدة، لكن سترة المطر الخاصة به كانت غائبة عن الشماعة المجاورة للباب، ومعها غاب حذاء الجري الخاص به من فوق السجادة.

أخذت مصباحًا يدويًا من درج المطبخ، ارتديت قميصًا من النوع الثقيل، وبنطالًا جينز، وجوربين، وحذاءً رياضيًا. وقفت عند الشرفة في الخارج، في

الهواء البارد، أتجول بعينيَّ عبر الفناء. تصاعد نقيق الصراصير من منطقة الشجيرات، وأمكنني أن أسمع صوت اندفاع النهر البعيد.

لا أثر لـ «جوني» ولا رد أتاني عندما ناديته. حلقت رياح الليل من حولي، تداعبني بأصابعها الباردة، بينما تابعت شعاع المصباح الذي أتى من أسفل الممر، على طول الطريق نحو المنزل الأبيض ذي الطراز الفيكتوري. بينما كنت أخطو عبر ممر بيت «إيريس»، خفتَ شعاع المصباح. لاح المنزل أمامي صامتًا، وقد بدت نوافذه سوداء مقبضة، لا يلتمع إلا شعاع خافت من الضوء على الشرفة. لو أن «جوني» جاء إلى هنا، لكان هناك ضوء داخل المنزل. انحسرت رائحة الدخان خلفي الآن، لذا استدرت وقفلت عائدة.

هل ذهب إلى الغابة؟ خرج ليظفر بتمشية في منتصف الليل؟ ربما استيقظ ولم يستطع العودة إلى النوم. عندما وصلت لمنتصف الطريق إلى الكوخ، انتهى عمر بطارية المصباح، ولم يتبقَ سوى شعاع فضي شحيح من ضوء القمر ينير لي الطريق.

كانت رائحة الدخان لا تزال تنجرف عبر الهواء، تحمل رائحة الأرض والغابة، مختلفة عن الرائحة الكاوية لحريق منزل آل «كيمبال». اتبعت الطريق الرمادي المنحني، وعندما اقتربت من الممر، تحرك ظلٌ ما عند الشرفة!

- «جوني»!

ناديت وأنا أحاول تشغيل المصباح اليدوي، ضغطت على المفتاح فأغلقته ثم أعدت تشغيله، لكن بلا نتيجة. هتفت مرة أخرى:

- «جوني».

تحرك الظل مبتعدًا عن الشرفة نحو الغابة. هل تخيلت رؤية أحدهم هناك؟ ركضت في الممر، حتى كادت قدماي أن تتعثرا، بينما أخذ قلبي ينتفض. اندفعت عبر الباب الأمامي، وأشعلت ضوء الشرفة بأصابع ترتجف. انسكب الضوء على العشب، ولم يكن هناك أحد.

- «جوني»!

ناديت مرة أخرى وقد تعالت نبرة صوتي. ظل منزل «إيريس» غارقًا في الظلام، ولكن على الجانب الآخر، ظهر ضوء في نافذة المنزل المجاور. خُيِّل لي أنني سمعت أصواتًا تحملها الريح. تقدم جسد ما على الطريق، قادم من اتجاه البيت «أ».

هنا فكرت أنني يجب أن أعود إلى الداخل، وأتصل برقم النجدة، ولكن بعد ذلك لوَّحَ ذلك الجسد بيده نحوي.

- «سارة»!

كان «جوني»!

هل كان في منزل الجيران؟ يزور «تيريزا»؟

- نعم، أنا هنا!

صرخت مجيبة عليه. كنت على وشك الانهيار والسقوط أرضًا شاعرة بالارتياح.

بينما كان يسير في الممر، دخل دائرة الضوء بجوار الشرفة، وكان بإمكاني أن أرى أنه كان يرتدي بنطاله الجينز وقميصًا تحت السترة الواقية من المطر، ارتدى كل هذا بينما كنت نائمة. عادة، كنت أنام نومًا خفيفًا. مجرد قيامه بالعطس أو السعال كفيل بأن يوقظني، لا بد أنه تحرك بهدوء شديد، أو أنني كنت أنام بعمق أكثر من المعتاد، أو ربما غيَّر الارتجاج كيمياء مخي.

شبكت ذراعي فوق صدري، وقد أخذت أسناني تصطك بردًا.

- أين كنت؟ ماذا يحدث هنا؟ من أين أتي ذلك الدخان؟

أجابني لاهثًا:

- لقد ذهبت لمعرفة هذا، ما الذي أيقظك؟

- كنت أتساءل أين أنت، أين النار؟

- بيت الجيران.

ركض صاعدًا السلم وقادني للداخل.

- الدخان يتصاعد من المدفأة، هذا كل الموضوع.

- هل تحدثت إلى الجيران؟

شعرت بالدماء تتدفق بصوت عالٍ في رأسي. قال:

- رأيت الدخان يتصاعد من المدخنة، هذا هو كل ما هناك.

- يطهون في هذه الساعة؟

ثم نظرت من النافذة إلى الضوء الذي لا يزال ساطعًا من خلال الأشجار.

- لا بد أنهم يحبون السهر حتى وقت متأخر.

لكن بينما كان يمر بجواري، تصاعدت منه رائحة خفيفة غريبة، رائحة خفيفة لمادة كيميائية تشبه رائحة الطلاء، ثم اختفت الرائحة. انطفأت الأضواء في المنزل المصمَّم على شكل مثلث، لتغرق الغابة في الظلام.



الفصل التاسع

عندما استيقظت في الصباح، كان «جوني» قد عاد من تمرين العدو الذي يقوم به. جلست في زاوية طاولة الإفطار مرتدية بيجامة، بينما كان هو يصنع بعض الخبز والجبن الكريمي.

بدا الحي آمنًا، لطيفًا، الأشجار وافرة الخضرة، بينما تصاعد حفيف أوراق الشجيرات المجاورة، والأهم، لا دخان يرتفع من مدخنة الجيران.

ناولني «جوني» فنجان قهوة. بدا السائل في الكوب أغمق من المعتاد ومذاقه حلو بشكل غير معتاد. قال:

- بسبب حليب الصويا، اشتريت بالخطأ النوع ذا نكهة الفانيليا بدلًا من العادي.

قلت:

- إنه رائع، لم أسمعك وأنت تستيقظ الليلة الماضية.

- كنتِ غائبة في نوم عميق. كنتِ تئنين وتهمهمين في أثناء نومك.

- لا، لم أكن أفعل.

أجبته ضاحكة، فعلق:

- بل وكنتِ تغطين كذلك، بصوت عالٍ كمحرك.

- أنا لا أصدر غطيطًا أبدًا. ربما هو الارتجاج. أشعر أنني بخير.

- هل أنت واثقة؟

سألني وقد عقد حاجبيه، وتحول التعبير المرتسم على وجهه إلى الاهتمام.

- متأكدة.

هكذا أجبته وأنا أنظر إلى فنجان القهوة، ثم نظرت إليه.

- هل تحدثت معهم؟

- مع من؟

أخذ يقوم بشيء ما على طاولة المطبخ. كان لا يزال ينتعل حذاء الجري الخاص به، ويرتدي قميص «نايك»، وبنطالًا للتمارين الرياضية من الليكرا، أبرز عضلات فخذيه.

- الجيران، الليلة الماضية.

بدا عليه التردد.

- لا. نظرت لمنزلهم فقط فرأيت الدخان.

ارتشفت المزيد من القهوة مفرطة الحلاوة.

- كم مر عليك من وقت هناك عندما استيقظت؟

- لا أعرف، بضع دقائق ربما.

- لكنني لم أسمع صوتك وأنت ترتدي ملابسك.

- لم أرغب في إيقاظك.

قلت:

- كم أنت حنون.

- لكنك تعدِّينني أمرًا مُسلَّمًا به.

- أعلم أنني أفعل. أنت تحضر لي الإفطار دائمًا.

- لأني لا أحب غيرك.

- أنا أيضًا. لا أحب غيرك.

ثم جاء إليَّ وقبَّل جبهتي بلطف.

- إذا كنتِ تريدين السيارة اليوم، عليكِ أن توصليني إلى العمل.

- أوه نعم. لقد نسيت.

كانت سيارتي الكامري التي دمرها الدخان في الورشة لتصليحها. انتهيتُ من قهوتي واندفعت إلى غرفة النوم لتغيير ملابسي. بينما كنت أوصله إلى منطقة وسط المدينة خلال يوم خريفي مشرق، شعرت بصداع خفيف يندفع عبر صدغي، حاولت تجاهل الألم؛ حذرني طبيب الأعصاب من آثار إصابتي الجانبية. لكن إلى متى ستستمر تلك الآثار الجانبية؟

عندما وصلنا لساحة انتظار العيادة منحني «جوني» قبلة روتينية على الخد، وليست قبلته المعتادة على الشفتين.

- هل أنت بخير؟

سألته وأنا أتراجع للوراء، فأجاب:

- سيكون يومًا صعبًا؛ الكثير من الحالات المعقدة.

- ذلك الرجل الذي يعاني طفحًا جلديًا الذي أخبرتني عنه؟

- هذه حالة سهلة.

ضغطت على ذراعه مشجعة. نزل وتوجه بخفة إلى العيادة. بينما هو ينظر إلى شاشة هاتفه المحمول، فكرت في مقال أرتني إياه «ناتالي»، وكانت وقتها قلقة من أن «دان» قد يكون في علاقة غرامية. خلاصة المقالة هي:

«دلائل على أن زوجك يخونك:

* يقوم بإجراء مكالمات هاتفية على انفراد.

* تلاحظين رائحة جديدة عليه.

* يسافر أكثر للعمل.

* يتغير سلوكه.

* لا يمنحك قبلة الوداع المعتادة».

كان «دان» مخلصًا لـ «ناتالي»، لكنني أدركت الآن أن «جوني» يتوافق مع النقاط المذكورة بشكل مريب. كانت رائحته مختلفة عندما وصلنا إلى الكوخ، كما أنه يسافر أكثر هذه الأيام، ويتجول في الخارج بالمساء، كما أن قبلته الأخيرة على وجنتي لم تكن كقبلته المعتادة.

قبل أن يغادر والدي المنزل ويتركنا، كان يغادر في كثير من الأحيان ولفترات طويلة من الوقت. كان يعود إلى المنزل حاملًا روائح صابون جديدة من المدن التي زارها، وهدايا لي ولوالدتي، ربما لتخفيف شعوره بالذنب. ظلت والدتي غافلة عن عمد حتى لم يعد بإمكانها تجاهل الأدلة!

أخبرني «جوني» بأنه من المستحيل أن يؤذيني، أخبرني بأن بوسعي دائمًا تصديقه، وهو ما فعلته.

قبلة غريبة على الخد لا تعني شيئًا. ولا تعني المكالمات الخافتة في أثناء وجودي في دورة المياه شيئًا كذلك، ومثلهما لا تعني التمشية في الشارع في الثانية صباحًا أي شيء، لن أدع علاقات والدي الميت تحدد موقفي تجاه الرجال لبقية حياتي.

خرجت من ساحة العيادة، وتوقفت للحصول على بعض الأغراض في متجر الأجهزة، ثم توجهت مباشرة إلى شارع «سيتكا» وأوقفت سيارته عند الرصيف. ظللت جالسة في مقعد السائق، غير قادرة على إبعاد بصري عن المكان الذي كان منزلنا في يوم من الأيام، ثم صار كمنطقة حرب تعرضت للقصف، لكن الصداع بدأ ينحسر، وشعرت اليوم بأنني أقوى، وأنني مصممة على إنقاذ أي شيء يمكنني إنقاذه من بين براثن الرماد.

خرج السيد «كالاسيس» إلى شرفة منزله عبر الشارع مصوِّبًا منظاره المقرب عاليًا نحو شجرة تنوب.

كان يعاني بدايات الخرف، وبدأت ذاكرته تختفي رويدًا، رآني فهرع عبر الشارع، وقد أخذ سرواله ينتفخ مع النسيم. كالعادة كان يعلِّق منظاره المقرب حول رقبته.

نزلت من السيارة، وشعرت بالدفء يغمرني وهو يجذبني نحوه في عناق صامت، ارتطم منظاره المقرب بصدري. ابتعد وربت على وجنتي. كان شعره الأبيض المتناثر مُمَشَّطًا للخلف، وقد احمر لون وجهه، وقد تصاعدت منه رائحة تبغ خفيفة.

- من الجيد أن أراكِ حية وبخير.

- وأنا كذلك سعيدة لرؤيتك بخير.

نظر نحو الأنقاض وهز رأسه بأسف.

- لم يكن الحريق عن طريق الصدفة.

- حُرِقَ عن عمد، أعلم. هل رأيت أي شيء؟

- بالطبع فعلت.

- ماذا رأيت؟

شعرت ببرودة النسيم تزداد على وجهي.

- «فيليكس»!

هكذا هتفت «مود كالاسيس» وهي تخرج لشرفة منزلها، ثم استطردت:

- سوف نتأخر!

- سآتي حالًا!

أجابها وهو يلوح لها عابسًا، ثم التفت إليَّ مرة أخرى.

- كوني حذرة من الآن.

- حذرة من ماذا؟

نظر إلى ركام بيت آل «كيمبال» مرة أخرى.

- كنت أعرف دائمًا أن تلك المرأة ستجلب المشكلات.

- من تقصد؟ «مونيك»؟

سألته، لكنه كان متوجهًا بالفعل إلى منزله. هتفت:

- يا سيد «كالاسيس».

لكنه لم يستدر. ركضت وراءه وأمسكت بذراعه. التفت لينظر إليَّ وابتسم.

- «سارة»، كم أنا سعيد لرؤيتك حية وبخير.

- قلتَ إنني يجب أن أكون حذرة. بشأن امرأة؟

لم يرد. أخذ ينظر لأعلى، وقد ارتسم تبلد مألوف داخل عينيه. تركت كمه، وقد شعرت بقلبي يهوي من حالق، وشاهدته يبتعد نحو بيته...

عندما عدت للسيارة ارتديت القفازين والقناع والحذاء الثقيل الذين اشتريتهم من المتجر، وسحبت حقيبتين بلاستيكيتين كبيرتين. أخذت نفسًا عميقا، وخطوت عبر الفراغ حيث كان ينتصب الباب الأمامي لمنزلي ذات يوم.

لم يكن بالإمكان التعرف على البهو، أما المدخل فاستطعت تحديد مكانه بصعوبة، وكذلك حدود غرفتَي المعيشة والسفرة. بقي نصف حوض في حمام الطابق السفلي، وقد سقط حطام ما كان بالماضي الطابق الثاني من خلال السقف.

حتى مع ارتداء القناع، كان بإمكاني شم رائحة القماش والبلاستيك المحترقين. وبينما كنت أشق طريقي عبر الأنقاض، شعرت بصوت تنفسي يرتفع في أذني. شعرت بأشباح حياتنا الماضية تمر بي. اختفت طاولة تناول الطعام، وانفجر كل الحشو خارجًا من الأريكة الزرقاء المتفحمة. لكنني اكتشفت نسخة ورقية نصف متفحمة من رواية «ريبيكا» للكاتبة الإنجليزية «دافني دو مورييه»، وقد أتلفها الدخان، لكنها لا تزال قطعة واحدة على الأقل.

أما في مكتبي، فلم أجد أي أثر لرسمة الفأرة «معجزة»، ولا حتى بقايا من قطعة القماش. لكنني اكتشفت بقايا عديمة الفائدة لشاشة الكمبيوتر والطابعة؛ كان القرص الصلب للكمبيوتر قد ذاب. كم من أيام قضيتها هنا أكتب! كان بإمكاني رؤية الغرفة كما كانت من قبل، مغمورة في ضوء شمس بعد الظهر.

في مكتب «جوني»، كانت لا تزال هناك ثلاثة جدران خشنة قائمة. ركعت لأقوم بإبعاد بعض الرماد بيدي، والتقطت بضعة أشياء مختلفة أمكنني التعرف عليها -دباسة، ومصباح يدوي، وأقلام جافة- قبل أن ألمح طرف مظروف برز من تحت رف معدني مشوه.

التقطت المظروف وأخرجت منه مجموعة من الصور الفوتوغرافية الموقَّعة، صور لأنهار وشواطئ ولجبل رينييه، وصورة يظهر فيها «جوني» جالسًا على رصيف بحري في سروال سباحة، مدليًا قدميه في بحيرة، وهناك غابة في الخلفية. انتصب كوخ صياد متداعٍ من الرصيف البحري المذكور، وقد افتقد إحدى نوافذه الزجاج. جلست امرأة بجوار «جوني»، وقد لامست

كتفها العارية -التي أكسبتها الشمس سمرة جذابة- كتفه، وتنتهي الصورة عند القطعة السفلى من البيكيني الأسود الذي ترتديه.

بدا سروال سباحة «جوني» الأزرق مألوفًا، كان يمتلكه قبل أن ألتقي به، وقد ارتداه عدة مرات منذ ذلك الحين. في تلك الصورة بدا مفتول العضلات، وقد عصفت الرياح بشعره، كما هو حاله الآن. لم يبدُ أصغر سنًّا مما هو عليه اليوم، ولكن على أي حال الصورة تم أخذها من مسافة بعيدة، فلو كانت هناك تجاعيد خفيفة على وجهه، فلم تكن لتظهر بالصورة. على ظهر الصورة كتب أحدهم -إحداهن بالأحرى- بخط يد جميل: «إلى «جوني»، حبيبي»!

للحظة، توقفت عن التنفس.

وصلت الكلمات لعقلي وصفعتني على وجهي. تم التقاط الصورة قبل أن ألتقي به. لا بد أن هذا ما حدث!

لقد وقع في الحب من قبل، فماذا في ذلك؟ أو على الأقل، كانت هناك امرأة تحبه.

كان «جوني» ذا جسد ممشوق جذاب، بالإضافة لكونه وسيمًا. وكان ذكيًّا ومحبًّا وشديد الاهتمام، أي امرأة يمكنها ألا ترغب فيه؟ كان لديه ماضٍ، فماذا في ذلك؟ ماذا كنت أتوقع؟

وجدت العديد من الأشياء التي لم أستطع تذكر رؤيتها من قبل؛ نظارة قراءة، وقلم تصميم، وسوار فضي. وفي أطلال الغرف الأخرى، التقطت المزيد من الأشياء المتفحمة؛ كوب ووعاء خزفي متصدع منقوش باليد، وقلادة من الذهب. لكن لم يكن هناك مزيد من الصور.

عدت في النهاية -منهَكة- إلى السيارة، ووضعت الأكياس بالخلف. وبينما أنا أغلق صندوق السيارة اندفعت «بيدرا راميريز» خارجةً من منزلها وانطلقت في الدرب الخاص ببيتها، مرتدية قميصًا من الكتان الأحمر، وبنطالًا قماشيًّا بلون بيج، وصندلًا أحمر زاهي اللون. رأيتها تهرع عبر الطريق.

- «سارة»! يا للهول، لن تصدقي ما حدث!



الفصل العاشر

هرعت «بيدرا» نحوي وعانقتني، وهي تنضح برائحتها المميزة التي تفوح بعطر زهور الجاردينيا.

- يا لها من مأساة!

قالتها بالإسبانية وهي تهز رأسها، بينما أخذت أقراطها تتلألأ في ضوء الشمس.

- أولًا النار، والآن...

- الآن ماذا؟ ماذا يحدث هنا؟

- إنها «ميا»!

هكذا صرخت «جيسي»، وهي تجري خارجة من منزلها حافية القدمين، وألقت بنفسها عليَّ تحتضنني في عناق قوي، بينما انبعثت منها رائحتا شامبو الليمون والعلكة. كانت عيناها محاطتَين بالكحل الأسود.

- ماذا عن «ميا»؟

سألتها في ذعر وأنا أسحب نفسي من بين ذراعيها. استطردتُ:

- هل هي بخير؟

قالت «بيدرا»:

- اتصلتُ بجدتها، لأطمئن على أحوالهما.

أكملت «جيسي»:

- أمسكت بالمقص.

- ماذا؟ وهل تأذت؟

فكرت في كل مخاطر المنزل التي يمكن أن تحيق بطفل ضعيف. قالت «جيسي»:

- قصت شعرها.

أجبتها:

- الأطفال يفعلون ذلك أحيانًا.

هزت «بيدرا» رأسها معلقة:

- لكن جدتها كبيرة في السن. لا تنتبه لها بما فيه الكفاية، وقد تغفو فجأة.

أضافت «جيسي»:

- نحن قلقتان، وكنا على وشك الذهاب إلى هناك.

قلت:

- سأذهب أنا. أين تعيشان؟

- في «فيرنديل جلين». يمكنني أن أعطيكِ العنوان.

نقلت «جيسي» العنوان من هاتفها المحمول إلى هاتفي، بينما التمعت أقراطها المصنوعة من النحاس على شكل ورق شجر في الضوء. شيء ما أزعجني بخصوصها، لكني لم أستطع تحديده.

ابتعدت عني وهي تعض شفتها قائلة:

- لا تقولي إنني أخبرتك بأي شيء عن موضوع شعرها.

قلت:

- لا تقلقي، لن أفتح فمي بكلمة.

في أثناء قيادتي عبر الطريق، مررت بالسيارة البويك السوداء الخاصة بـ «أدريان»، وهو في طريقه لمنزل «جيسي». هل سمعت صوت سيارته في تلك الليلة؟ من المستحيل أن أعرف على وجه التأكيد. وبينما كنا نمر بجوار بعضنا بعضًا، نظر إليَّ من خلال نافذة سيارته المفتوحة. كان قوي

البنية، وشعره الطويل مربوط إلى الخلف، أما عيناه فكانتا خاليتَين من أي تعبير. يكاد يكون مظهره مرعبًا. ضغطت على دواسة الوقود، ونقرت على هاتفي المحمول للاتصال بـ «جوني»، وشغلت مكبر الصوت، أجاب على الفور تقريبًا:

- يوم صعب للغاية. لحقتِ بي في فترة راحة بين المواعيد.

- أنا في طريقي لرؤية «ميا». قصّت شعرها. أخبرتني «بيدرا» بذلك.

ازدادت حدة صوت «جوني» وهو يسألني:

- مررتِ بالمنزل دوني؟

- وجدت صورة لك مع صديقة قديمة. تجلسان على رصيف بحري. هناك مبنى قديم على الرصيف. من هي تلك المرأة؟

- يجب أن أرى الصورة لأرد عليك. لقد عرفت الكثير من النساء بالماضي.

يبدو أنه كان يظنها مزحة، قلت:

- ظننت أنني أعرف كل شيء عنك.

لكن كان عليَّ أن أعترف، كنت أحتفظ ببعض صور الأصدقاء القدامى أيضًا. على الأقل كنت أحتفظ بها قبل الحريق الذي التهم كل شيء.

- هل يمكن -عمليًّا- أن يعرف أي شخص كل شيء عن شخص آخر؟

هل يحاول التلاعب بالألفاظ؟

- لا يزال لديكِ الكثير لتعرفيه عني، والعكس صحيح. سأخبرك أي شيء تريدين معرفته.

- أي شيء؟

- أكيد، اسأليني عن أي شيء وسأجيب. مستعد أن أعترف لكِ حتى أنني اعتدت ارتداء ملابس داخلية من النوع الواسع قبل أن أبدأ في ارتداء النوع الضيق. ليس لدي ما أخفيه إلا... حسنًا، ربما بعض الأشياء التافهة.

- تافهة مثل ماذا؟

تسارعت نبضات قلبي.

- مثل، كان لدي حب شباب عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. لم تكن حبوبًا بسيطة، وإنما كانت أشبه بالخراجات العملاقة. هذا هو السبب الحقيقي في رغبتي أن أصبح طبيب جلدية.

- أنت تختلق هذا.

- أنتِ على حق. الحقيقة هي أن جدي مات بسبب سرطان الجلد.

- آسفة جدًّا. لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

كنت أعرف أن جده مات في الخمسينيات من عمره، لكني لم أعرف سبب الوفاة. ماذا كان «جوني» يخفي عني غير هذا؟

- لم أكن أرغب في التحدث عن ذلك. أتمنى لو كان بإمكاني أن أنقذه.

- الآن أنت تقضي حياتك في التعويض عن ذلك، بمحاولة إنقاذ الآخرين.

- شيء مثل هذا.

- أنت تقوم بعمل رائع. أوه، لقد وصلت. عليَّ الذهاب.

أنهيت المكالمة بينما أدخل «فيرنديل غلين»، وأوقفت السيارة أمام منزل «هارييت كيمبال»، وهو كوخ وردي به مرآب مزدوج وستائر دانتيل سميكة تتدلى خلف النوافذ. كانت هناك شجيرات ورد مُعتنى بها جيدًا، تنتشر في الحديقة الأمامية، في انتظار عودة الشمس في الربيع. مشيت في الممر وطرقت على باب «هارييت» الأمامي. عندما أجابت، بدت وكأنها عملت بجد للقضاء على مظاهر التقدم بالعمر لديها.

بدا وجهها ناعمًا لكن ليس شابًا، كما لو كانت قد قامت بكي كل تجعيدة في إصرار. غطت طبقة من كريم الأساس وجنتيها، ترتدي نفس الشعر المستعار كستنائي اللون الذي أتذكره من زياراتها إلى شارع «سيتكا»، لكنني استوعبت الآن أن ما ظننته شعرًا مستعارًا كان في الواقع شعرها الحقيقي الذي خرج من فروة رأسها، أما عيناها فكانتا منتفختين حمراوين. قالت بصوت خشن:

- «سارة».

- آسفة جدًا.

ثم ارتجفت شفتا «هارييت»، ومسحت دموعها، لتلطخ مكياجها.

- أنا الآسفة يا عزيزتي، آسفة على ما أصاب منزلك. لا أستطيع أن أشكرك كفاية لإنقاذ «ميا».

- أتمنى لو كنت قد فعلت ما هو أكثر.

شعرت بجلدي رقيقًا للغاية ومكشوفًا، لدرجة جعلت كل ما يدور بداخلي من أفكار واضحًا للغاية للناظرين. دون تفكير، جذبت «هارييت» في عناق قوي، متفاجئة من مدى هشاشة تلك المرأة. كم يمكن أن تكون الحياة قاسية وبلا معنى. ليس من المفترض أن يترك الابن والدته المسنة مع ذكرياتها وحفيدتها لترعاها وحدها.

- لقد فعلت أكثر مما يكفي.

قالتها «هارييت» ثم قادتني لداخل المنزل، وأغلقت الباب وضغطت بإصبعها على شفتيها. قالت بخفوت:

- إنها نائمة.

- أوه، حسنًا.

قلتها ونظرت من حولي إلى الأثاث المريح، كل شيء مريح ومفعم بالحياة.

كان منزل «هارييت» يعكس حبها للورود؛ أريكة مكسوة بغطاء مغطى بالورود، وكرسي وردي اللون، وورود بلاستيكية في مزهرية. وكانت هناك بعض الدمى، والكتب المصورة، والمناديل المطوية التي تناثرت هنا وهناك بين الأزهار.

قالت «هارييت» وهي تمشي متصلبة الجسد إلى الأريكة:

- لم تنم جيدًا.

ثم جلست بنفس الطريقة المتصلبة.

بقيتُ واقفة عند عتبة باب غرفة المعيشة، وشعرت بهواء المكان معبأ برائحة خفيفة من ماء الورد وكريم «نيفيا»، ألقيت نظرة خاطفة على الرواق

المظلم إلى اليسار، وتخيلت منظر «ميا» وهي تبكي والديها، ثم تقوم بقص شعرها بينما «هارييت» نائمة.

- هل يمكنني رؤيتها الآن؟

- ربما عندما تستيقظ.

أشارت «هارييت» إلى كرسي مكملة:

- أترغبين في الجلوس؟ كان يجب أن أقدم لكِ بعض الشاي.

خلعت حذائي واتجهت صوب الكرسي مرتدية جواربي فقط، حتى لا أتسبب في تلطيخ السجادة ذات اللون الوردي الفاتح، على الرغم من وجود بقع باهتة شوهت لونها الأصلي.

جلست على كرسي بذراعين بالٍ.

- هل «ميا» بخير؟ وهل أنتِ بخير؟

- نحاول.

في الجانب الآخر من الغرفة، كان هناك رف كتب طويل يحمل مجموعة متنوعة من الروايات، ومن ضمنها مجموعة من ألغاز الفأرة «معجزة».

عندما نهضت «هارييت» متذبذبة وتوجهت نحو رف الكتب، بدت للحظة مثل جدتي!

شعرت بغصة في حلقي، وأخذت الدموع تنهمر من عيني.

في أيامها الأخيرة، حوَّل المرض جدتي من الفنانة القوية الواثقة التي كانتها لتستحيل لقشرة هشة. كانت لدي لوحة الفأرة «معجزة» لتذكرني بجدتي عندما كانت بصحتها، لكن حتى هذه اللوحة ذهبت مع النيران. عندما انحنت «هارييت» لتلتقط ألبوم صور قديم من الرف السفلي، اختفى التشابه الذي كان بينهما. كان شعرها داكنًا جدًّا، وكتفاها هزيلتين جدًّا.

جلَسَت على الأريكة مرة أخرى، وربَتَت على الوسادة القريبة منها. ذهبتُ للجلوس بجوارها. قالت وهي ترتعش:

- كنت قد وضعت الكثير من الصور في إطارات وعلقتها بجميع أنحاء المنزل، لكنني وضعتهم جانبًا. «تشاد» يظهر فيهم كلهم تقريبًا. أشعر كأنني أخون ولدي الصغير بفعلتي هذه، لكن لا يمكنني تحمل النظر إليهم!

أخرجَت منديلًا مكرمشًا من جيب سترتها ومسحت المزيد من الدموع عن خديها. في مكان ما، دقت ساعة معلنة حلول ساعة جديدة.

- أنا متأكدة من أنه سيتفهم. ليس علينا أن ننظر إلى الصور.

- أشعر ببعض الشجاعة، الآن بعد أن أصبحتِ هنا معي.

اهتزت أصابع «هارييت» وهي تفتح الألبوم وتشير إلى صورة بحجم الصفحة لطفل نائم ملفوف في شراشف ناعمة. همست «هارييت»:

- هذا هو ابني.

أجبتها:

- كم هو طفل جميل!

أو كان جميلًا لأكون أدق بالوصف. كيف يمكن أن تتحمل أن تنظر إلى ابنها الميت في صغره؟

- كان دائمًا جميلًا.

وبينما كانت تقلب الصفحات، تحول «تشاد» من رضيع أشقر بدين، ليصبح صبيًّا قويًّا ذا شعر بلون الرمال. لكن «ميا» لم تكن تشبهه كثيرًا. بحلول بداية سن المراهقة، كان قد اكتسب جسد لاعب كرة قدم ناشئ. أعتقد أن «ميا» أخذت معظم ملامحها من والدتها. أغلقت «هارييت» الألبوم وتنهدت.

هل كانت يداها ترتعشان من الحزن وحده، أم أن هناك شيئًا آخر أيضًا؟ قلت لها:

- كانت صورًا جميلة. لا بد أن «ميا» تفتقد والديها.

تصلب شيء في وجه «هارييت».

- أمها! لقد سقط «تشاد» بالكامل في حب تلك المرأة. لم يفلح في إيقافه كل ما فعلته. على الأقل لديَّ «ميا». وجودها معي نعمة.

- هل يمكنني رؤيتها الآن؟

سألتها، فتنهدت مجيبة:

- حسنًا، لكنها فعلت شيئًا شقيًا.

- أوه لا، ماذا فعلت؟

هكذا قلت، تظاهرت بالدهشة.

- سترين. تعالي.

قادتني «هارييت» لنهاية الرواق، وأشارت إلى غرفة نوم غير مرتبة، مطلية كلها باللون الأزرق. لا بد أنها كانت غرفة «تشاد» بالماضي. وقفت عرائس «ميا»، وكتبها، ودمى حيواناتها المحشوة، في تناقض صارخ مع ملصقات من أفلام «عائلة ديوك في بلدة هازارد» / «ديوكس أوف هازارد»، وأفلام «حرب النجوم»، التي كانت لا تزال تغطي جميع الجدران. انتصب مكتب بالٍ وخزانة ذات أدراج، وقد حمل كلاهما الكثير من ندوب الزمن.

غفت «ميا» على سرير صغير بجوار النافذة، وقد رقدت على ظهرها، أخذ صدرها يعلو ويهبط بإيقاع غير منتظم، وقد توردت وجنتاها، كانت ترتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا زهري اللون، أما شعرها الذهبي فكان مقصوصًا بطريقة عشوائية، فتهدلت خصلات شعرها بأطوال غير متساوية، كأنما مُصفف شعر مخبول هو من قصه لها، همست «هارييت»:

- لقد أخرجت المقص من الدرج بمفردها، يمكن للأطفال أن يكونوا سريعين عندما لا ينتبه لهم أحد.

دخلتُ الغرفة على أطراف أصابع قدمي. بينما أنا أقترب من «ميا»، تنهدت الفتاة الصغيرة وتقلبت. بدت في نومها تحمل شبهًا أكثر بـ «مونيك»؛ أنف دقيق ذو ارتفاع طفيف عند الطرف، والقليل من النمش الشفاف، وفك دقيق. جلست بجانب «ميا» وقبلت وجنتها. كانت رائحتها مثل رائحة بودرة الأطفال.

أخذت نفسًا عميقًا لكنها لم تستيقظ. كانت جبهتها باردة ورطبة قليلًا عندما لمستها. وبما أنها قصت جزءًا كبيرًا من شعرها، فقد ظهر جزء كبير من فروة رأسها. لم تظهر عليها أي إصابات حديثة؛ لا كدمات أو جروح على جلدها. فقط ندبة بيضاء بالقرب من منبت الشعر، ربما جرح ملتئم أو وحمة شبيهة بتلك الموجودة عند «جوني». ارتجف جفناها ثم انفتحا فجأة.

جلست وهي لا تزال تشعر بالدوار، وألقت بذراعيها حول رقبتي. قالت شيئًا بصوت خافت مكتوم، فسألتها:

- ماذا هناك يا حلوتي؟

كررت «ميا» الكلمة بصوت أعلى هذه المرة:

- ماما!



الفصل الحادي عشر

قالت «ناتالي» على الهاتف بينما أنا عائدة إلى المنزل:

- يمكنك تبني «ميا»، افعليها قبل أن تتوفى الجدة وتترك الفتاة بمفردها بالكامل.

- «ناتالي»! «هارييت» تحب «ميا»، كما أنها قريبتها الوحيدة الباقية على قيد الحياة، إنهما بحاجة إلى بعضهما بعضًا.

- كم عمر تلك السيدة؟ خمسة وتسعون؟

- أقرب إلى الثمانين، على ما أعتقد.

- متوسط العمر المتوقع للمرأة في أمريكا وصل إلى السادسة والثمانين العام الماضي.

- أنتِ بئر لا نهاية لها من الحقائق المهمة!

هكذا علقت وأنا ألتفت إلى أيكة من أشجار الأرز، قادتني إلى شارع «شادو بلاف».

- لا يمكننا تبني «ميا» يا «ناتالي»، نحن بلا مأوى، وأنا ما زلت أعاني الصداع، ولا أشعر أنني كذاتي المعتادة، وإنما مشاعري تتقلب طيلة الوقت.

- ردود أفعالك مفهومة. فقط لأنك عانيتِ سوء الحظ، فهذا لا يعني أنك ستكونين أمًّا سيئة.

- عندما أدركت «ميا» أنني لست والدتها، بدأت بالصراخ.

كنت أهودها وأنا أغني أغنية أطفال قديمة كانت والدتي تغنيها لي منذ فترة طويلة.

كانت كلمات الأغنية تقول «أين أمهاتنا الأعزاء؟ لقد ذهبت كلتاهما إلى السماء...» هدأت «ميا» قليلًا، لكنني لم أستطع مواساتها بسهولة.

- ماذا تنوين أن تفعلي؟
- يجب أن تذهب «هارييت» إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات يوم الجمعة. تريدني أن أعتني بـ «ميا» لبضع ساعات.
- فحوصات لأي سبب؟
- لم تذكر بالضبط، قالت إنها كانت تعاني حالة ما، وتشك أن الأعراض عاودتها.
- سرطان؟ ألم أخبرك بأنها لن تظل حية طويلًا؟
- «ناتالي»!
- لا أستطيع أن أملي عليك ما تفعلينه، فالموقف صعب، اتبعي ما يمليه عليكِ قلبك.

أغلقت المكالمة وأنا أشعر بأنني صرت مشتتة بشكل غريب. لطالما كانت «ناتالي» عفوية، تتبع عواطفها، بينما كنت أنا أوازن إيجابيات وسلبيات كل قرار. وقعت هي و«دان» في الحب في موعدهما الغرامي الأول، بينما كنت أنا حذرة مع «جوني». اعتدت أنا أن أجمع كوبونات التخفيضات، بينما هي ترميهم في سلة القمامة. كانت هي تطهو وجبات معقدة بعناية، صانعة الكثير من الفوضى من حولها، بينما اعتدت أنا تحضير أطباق بسيطة، وأقوم بالتنظيف في أثناء الطهو، هذا لو لم يكن عليَّ أن أكتب في وقت متأخر من الليل.

كنت أفعل هذا على الأقل قبل الحريق!

عندما وصلت إلى الكوخ، كانت هناك شاحنة زرقاء في الممر، موديل «تويوتا»، وكان الشعار المطبوع على الجانب بأحرف صفراء سميكة: «سيفرسون لإصلاح المنازل وإعادة البناء»، وقف رجل طويل نحيف عند

الشرفة، يرتدي حزام الأدوات، وحذاء العمل، وقميصًا أبيض خفيفًا، وقبعة بيسبول. سألته وأنا أتجه نحوه:

- أيمكنني مساعدتك؟

- مرحبًا، أنا «تود سيفرسون». أنا هنا لإصلاح المرحاض ومزلاج النافذة بغرفة المعيشة.

بدت عيناه محتقنتين قليلًا بالدماء، وقد ارتسمت هالات سوداء تحتهما، وكأنه لم ينم منذ أيام.

- المزلاج مكسور؟

- نعم. أرسلتني السيدة «كوجلان».

هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل من الممكن أن ترسل «إيريس» رجلًا يبدو مدمنًا بتلك الطريقة؟ لكنه كان يرتدي الملابس المناسبة، وكان يحمل الأدوات الصحيحة.

- لم تخبرني بأنك قادم.

تراجع للوراء قائلًا:

- معذرة على تطفلي يا سيدتي.

لف إبهامه الأيسر على الجزء العلوي من حزامه، مثل رعاة البقر.

- سوف آتي في وقت آخر.

قالها ثم استدار ليغادر.

- لا، انتظر، سأتصل بها فقط للتأكد.

أومأ برأسه وهو يميل بقبعة البيسبول. تعرفت عليه الآن، وميزت شاحنته. رأيته في المدينة عدة مرات، هنا وهناك، ثم رأيته مرة أخرى في ممر بيت «إيريس»، عندما انتقلنا أنا و«جوني» إلى الكوخ. أجابت «إيريس» بعد أول رنة، وبمجرد أن سألتها عما لو كانت قد أرسلت عامل تصليح حتى تدفقت في سيل من الاعتذارات.

- كان يجب أن أتصل بكِ أولًا. سآتي على الفور.

قلت:

- ليس عليكِ أن تأتي، كنت فقط بحاجة إلى التأكد.

- فهمت قصدك. نعم، أنا من طلبته.

- حسنًا، جيد.

أغلقت الخط وقدته إلى الداخل.

- آسفة، لكن كان يجب أن أتأكد.

- لا توجد مشكلة يا سيدتي.

خطا السيد «سيفرسون» بجواري داخلًا إلى البيت. كانت رائحته خافتة مثل بعض الأعشاب غير العادية، ربما أعشاب المريمية؟

منحني نظرة ثاقبة شبه قلقة، وقد ظهرت علامات التجهم على جبهته، ثم ابتسم كاشفًا عن صف من الأسنان الصفراء، إحداها مكسورة، وغمازة في خده الأيمن. مد يده لمصافحتي، قبل أن يسحبها بسرعة، لأنه لاحظ لأول مرة على ما يبدو أنها كانت متسخة.

- معذرة، لقد جئت للتو من مهمة أخرى.

مسح كلتا يديه على فخذي بنطاله الجينز. قاومت الرغبة في مسح يدي وأنا أقول:

- لا بأس.

- إذن أنتِ المستأجرة الجديدة.

- أنا وزوجي.

قلت، وقد بدأت بالقلق لإدراكي أنني وحدي في المنزل مع رجل غريب. أومأ السيد «سيفرسون» برأسه مرة أخرى، ونظرته تنتقل عبر جسدي. منذ الحريق، لم تكن أيٌّ من ملابسي الجديدة تلائم جسدي بالكامل. قال:

- أريد أن أرى النافذة التي بها المشكلة.

كانت عيناه متقاربتين، ولونهما غريب لم أتمكن من تحديده، ربما لون رمادي غامق أو بني. قلت:

- لم أكن أعرف أن هناك نافذة بها مشكلة.

- هي أخبرتني بأنها بالخلف.

مشى عبر غرفة المعيشة، وهز النافذة الخلفية، ثم فتحها وأغلقها.

- المزلاج به مشكلة. أترين؟

تابعته بعينيَّ.

- لم أكن أدرك هذا، فلم تخبرني هي بشيء.

- الموضوع خطير في مثل هذا الزمن الذي نعيش فيه.

قالها وفتح صندوق أدواته وبدأ في العمل على المزلاج بأدواته. علقت بقولي:

- لكن المكان آمن هنا، أليس كذلك؟

ولكنني بعد ذلك فكرت من جديد، ألم أكن أعتقد أن شارع «سيتكا» كان آمنًا كذلك؟

- نتعرض لعمليات اقتحام بين الحين والآخر.

- في هذا الشارع؟

- لا أعرف بشأن هذا الشارع. لقد اشتريت أجهزة استشعار ضوئية للحركة من أجل بيتي. فعلت ذلك من أجل زوجتي، عندما كانت تعيش هناك.

- ولم تعد تعيش هناك الآن؟

- لقد رحلت منذ عام، كانت بالمنزل عندما خرجتُ ذاهبًا لعملي، وعندما عدت إلى المنزل فوجئت باختفائها، بتلك البساطة، حزمت حقيبتها وتركتني.

- أنا، أنا آسفة للغاية.

- تزوجنا لتسع سنوات. ذكرى زواجنا اقتربت، لكنها هربت مع أحد النجارين في «بيلينجهام» فحطمت قلبي، وكان ليظل محطمًا لو لم أكن قد تخطيتها، فعلى المرء منا تخطي ما يمر به من خيبات ومآسٍ، أليس كذلك؟

- نعم، بالضبط.

هكذا أجبته غير عارفة ماذا أقول غير ذلك.

على الرغم من أنني رأيت هذا الرجل في جميع أنحاء المدينة، فالحقيقة أنني لم أكن أعرفه على الإطلاق. كانت «شادو كوف» كبيرة بما يكفي لكيلا أعرف الجميع، ولكن صغيرة بما يكفي لموظفي مكتب البريد ومتاجر البقالة للتعرف على الوجوه المألوفة، وبما يكفي للسماح لنفس الأشخاص بالالتقاء بالصدفة أكثر من مرة.

- الحياة تنتصر عليك بطريقة أو بأخرى.

جرب النافذة مرة أخرى، وفي هذه المرة عمل المزلاج.

- صارت جيدة كأنها جديدة، ما لم يفكر أحد برمي صخرة عليها.

قلتُ:

- شكرًا لك.

- كان الأمر سهلًا.

نظر إلى الغابة، لكنه لم يكن ينظر إلى الأشجار. كان ينظر إلى ما وراءهم، إلى شيء غير مرئي. ثم صفت عيناه ونظر إليَّ.

- أين المرحاض؟

- بنهاية الردهة. انتظر، دعني أتأكد من كون المكان لائقًا هناك لتدخله.

- أنا لا أهتم بتلك النقطة.

- لكن أنا أفعل.

شعرت بالسخافة وأنا أهرع أمامه، لكنني تمكنت من إخفاء حمالة صدر تحت منشفة قبل إدخاله. وقفت في المدخل بينما كان يرفع الغطاء عن وحدة

المياه بالمرحاض، ثم غرس يديه في الماء، وأخذ يعبث بأصابعه قليلًا قبل أن يقول:

- إنه بحاجة إلى صمام سحب جديد.
- ليس لدي أي فكرة عن ماهية ذلك.
- لحسن حظك، أنا أعرف. قد يكون لدي واحد إضافي في الشاحنة.

قالها ثم غادر، وعاد مع عبوة ما، وذهب للعمل على المرحاض.

- يجب أن تقومي بشراء أجهزة استشعار ضوئية للحركة أيضًا، للوقاية من عمليات الاقتحام.

قلت:

- حسنًا، ليس لدينا أي شيء لسرقته، لقد احترق منزلنا القديم بالكامل، هذا هو كل ما لدينا.
- آسف لسماع ذلك.

اعتدل ونظر نحوي مرة أخرى، وقد ارتسمت شرارة ما في عينيه، يبدو أنه يُشبِه عليَّ.

- أنتِ...؟
- أنا «سارة»، «سارة فينيكس».

قال بصوت خافت:

- مستحيل!

سقط فمه مفتوحًا، وترنَّح قليلًا، كما لو كان نُطق اسمي قد جعله يتذكر شيئًا ما، تمالك نفسه بسرعة.

- «سارة فينيكس»؟ هممم، الكاتبة؟
- هل سمعت عني؟
- زوجك طبيب الجلدية؟
- نعم، كيف عرفت؟

- كنت هناك.

وبينما كان يتحدث، مرت سحابة من أمام الشمس، غامرة الغرفة في الظلام. أظلم وجه «تود سيفرسون»، ومثله أظلم المكان كله من حولنا.

- ماذا تقصد بـ كنت هناك؟

شعرت بقشعريرة من الخوف تسري في عمودي الفقري.

- أنا رجل إطفاء متطوع للمحطة السابعة.

- أوه. هذا رائع.

كذا أجبت وأنا أتنهد في راحة.

- بلى.

قالها ثم أغلق خزان المرحاض وخرجنا إلى الردهة. نظر إليَّ الآن بطريقة مختلفة والحزن في عينيه.

- لم تخبرني السيدة «كوجلان» بأنك أنتِ مستأجرة هذا المكان، أقصد، لقد ذكرت فقط أن هناك مستأجرين، تبًا.

- أنت كنت في شارع «سيتكا» في تلك الليلة، مما يعني أنك رأيت ماذا حدث، بعد أن ذهبت أنا إلى... المستشفى.

نظر إلى الأرض، ثم رفع عينيه إليَّ مرة أخرى.

- تم استدعاء وحدتي بالنهاية، فنحن مجرد وحدة تطوعية. نحن قريبون من شارع «سيتكا» ولكننا لا نعمل طيلة الأربع والعشرين ساعة، أو طيلة أيام الأسبوع، بسبب تخفيضات الميزانية وما شابه، كانت المحطة الرئيسية تعمل. خرجوا أولًا، لكنهم كانوا بعيدين.

قلت:

- لكنك وصلت إلى هناك في النهاية.

بأسف عميق قال:

- نعم، في النهاية. لكن بيت جيرانكم... اللعنة، لم نتمكن من إنقاذ شيء منه.

- لم يكن خطأك.

حاولت تخيل وجود «تود سيفرسون» في حريق، بزي رجال المطافئ. قال وهو يهز رأسه:

- لا أحد يجب أن يموت.

توغلت سيارة دفع رباعي سوداء على الطريق وتوقفت عند الرصيف. نظر كلانا من النافذة، ثم مد السيد «سيفرسون» يده فوضعها على كتفي.

- إذا كنتِ بحاجة إلى أي شيء... إذا كان لديك أي شيء تحتاجين المساعدة به...

- نحن بخير. شكرًا لك.

التقت عينانا، وأخذ ينظر لي بتركيز.

- أنا آسف لما حدث.

- شكرًا لك.

أجبته في حرج، فاستطرد:

- عليكِ أن تكوني أكثر حذرًا، ففي تلك الليلة...

وهنا رن هاتفه المحمول في جيبه الخلفي، فالتوى فمه كما لو كان قد ذاق شيئًا لاذعًا.

- هناك مهمة أخرى ورائي. سررت بلقائك يا «سارة فينيكس».

سار إلى الباب الأمامي قبل أن أتمكن من منعه والسؤال عما كان على وشك قوله، وعندما خرج ظهرت «إيريس» من سيارتها الرياضية ذات الدفع الرباعي وهي ترتدي بذلة أنيقة من الحرير باللون البيج وتنتعل حذاءً من نفس اللون، أسرعت تخطو عبر الممر.

- «تود»! «سارة»!

- سيدتي.

حياها «تود» بإيماءة من رأسه وهو يتجه نحو شاحنته، خرجت من المنزل بينما كانت «إيريس» تخطو فوق الممشى بحذائها ذي الكعب العالي.

- هل أصلحتَ المرحاض يا «تود»؟

أجابها وهو يفتح باب السائق الأمامي:

- نعم، صار كالجديد.

- أحسنت، وماذا عن النافذة؟

- ثبتُّها كذلك.

قالت:

- لقد أنقذتنا.

- سأرسل الفاتورة فيما بعد.

مال بقبعته نحوي يحييني.

- طابَ مساؤك سيدتي.

- شكرًا لك.

وهنا أومأ برأسه وصعد إلى الشاحنة. أخذنا أنا و«إيريس» نشاهده وهو يتراجع خارجًا من الممر ويبتعد. تقدمت «إيريس» نحوي، وقد تصاعدت قرعات كعبيها على الخرسانة.

- كيف حالك اليوم؟ هل عدتِ إلى شارع «سيتكا»؟

- فعلت، كان الأمر... صعبًا، اعتقدت أنني سأتمكن من إنقاذ ما هو أكثر من هذا من ممتلكاتنا، ولكن...

امتلأت عينا «إيريس» بالتعاطف:

- أنا في أشد الأسف.

- كان من الغريب رؤية أن منزلنا صار مفتوحًا على العالم. ليس هناك باب أمامي من الأصل، إذا كان قد بقي أي شيء في هذه الأنقاض، فقد كان بوسع أي لص أن يلتقطه.

- هذا يذكرني بشيء، سأطلب من «تود» تغيير الأقفال أيضًا، لا ينبغي أن يكون لديه مفاتيح الكوخ، على الرغم من أنه موثوق به، وكان المكان فارغًا لفترة طويلة.

- أنا أفهم. لا أريد أن أزعجك.

- هذا خطئي بالكامل. ما زلنا على موعدنا على العشاء؟ لا تحتاجين إلى إحضار أي شيء.

- كلانا نذهب إلى السرير مبكرًا للأسف.

- لست متفاجئة، رأيت زوجك يركض في الفجر عندما كنت بالخارج أتمشَّى، لم أكن أعرف أنه و«تيريزا» يعرفان بعضهما بعضًا، كانا منخرطين في الحديث.

- ربما يعرفها.

أجبتها ثم نظرت من خلال الأشجار نحو منزل رقم «أ». بدأت أتساءل في سري كيف عرف «جوني» «تيريزا» من الأصل. لكن لماذا عليَّ أن أتساءل؟ كان يعرف الكثير من الناس في «شادو كوف».

تبِعت «إيريس» نظراتي.

- ستستمتعين بمقابلة زوجها. «كادين» رجل وسيم ظريف.

- أنا متأكدة من أنه كذلك. لكن أخشى أن لدي بالفعل رجلًا وسيمًا خاصًا بي.

- بالطبع لديكِ. لا أحد يستطيع أن يحِل محل زوجك، أليس كذلك؟

قالتها ثم غمزت لي، قلت:

- لا أحد في العالم.

- لكن «كادين» هذا... حسنًا، لقد تم أخذه، وأنا في علاقة...

تنهدت «إيريس»، ونظرت إلى ساعتها الذهبية، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة في وجهي.

- علي الذهاب؛ الاجتماع الشهري لجمعية سماسرة العقارات في المقاطعة. العشاء في بيتي في السابعة؟

- شكرًا لكِ.

قلتها وأنا أنظر نحو منزل «أ» مرة أخرى، بينما كانت «إيريس» تعود مسرعة إلى سيارتها الرياضية لتنطلق مبتعدة.

☆☆☆

الفصل الثاني عشر

في السابعة من مساء ذلك اليوم، وقف «جوني» بجواري في شرفة بيت «إيريس كوجلان» الأمامية، وهو لا يزال يرتدي سترته الزرقاء، وقد حمل تحت ذراعه زجاجة خمر «شاردونيه» باهظة الثمن. بعد أن أقلَلْته بالسيارة من العمل، استغرق وقتًا طويلًا لاختيار الزجاجة ذات التعتيق المناسب في متجر النبيذ، لدرجة أنه بالكاد كان لديه الوقت لتصفيف شعره في الكوخ.

ألقى نظرة خاطفة على الصورة التي عثرت عليها، لكنه لم يستطع تذكر هوية المرأة أو أين كانا وقتها.

دعوته مداعبةً بأنه كان زير نساء، لذلك غير قادر على تتبع العشرات من صديقات الماضي. قال للمرة المليون:

- أنا لست مثل والدك.

قالها ثم أخذني بين ذراعيه، ولم نتحدث عن الموضوع أكثر من ذلك. الآن، بينما كنا ننتظر أن تُجيب «إيريس» على الباب، استطعت الشعور بأن حياتنا كانت طبيعية تقريبًا، وأننا كنا في إحدى خروجاتنا للتواصل الاجتماعي. كنت أرتدي بنطالًا جينز داكنًا وسترة بنية من الصوف، وأنتعلُ حذاءً بنيًا.

كان كل شيء جديدًا، ما عدا القلادة الذهبية التي وجدتها تحت الأنقاض، والتي كنت أرتديها تحت السترة، حيث لا يمكن لأحد رؤيتها، تذكارًا من حياتي السابقة. قال «جوني»:

- أتمنى لو كان لدي وقت لتغيير ملابسي.

قالها وهو يتأمل سترته، فعلقت:

- لقد انشغلت في مهمة ملحمية للعثور على أفضل زجاجة «شاردونيه» في العالم.

قلتها ووضعت يدي في يده.

- مهمة مشتركة مع أجمل امرأة في العالم.

حدق إلى وجهي بتلك الابتسامة الساحرة.

- أنت تعرف الكلمات الصحيحة لتقولها.

قلتها وأنا أبتسم لكلماته، لكنني على الرغم من ذلك كنت متأكدة أنني، بتلك الغرز في جبهتي، أشبه النسخة الأنثوية من وحش فرانكشتاين. على الأقل تنتهي الندبة بالقرب من منبت الشعر. انفتح الباب، ليكشف عن «إيريس» في ثوب أسود قصير وحذاء بكعب عالٍ. كان النسيج يتألق مثل الحرير المغزول حديثًا. كانت ذات قامة ممشوقة دلت على أنها تتدرب باستمرار، وقد برزت العضلات الموجودة في ذراعيها. فجأة، شعرت بأن ملابسي أقل من المستوى، وأنني أفتقد للياقة. لكن لم يكن لدي أي شيء فاخر لأرتديه.

منحتنا «إيريس» ابتسامة دافئة وقادتنا للداخل. تلبيسات الجدران الخشبية المليئة بالنقوش، والأسقف العالية، وتيجان الأعمدة المنحوتة بشكل معقد، كل هذا كاد أن يجعلني أشهق من الإعجاب. شعرت بالحنين إلى بيتي على الفور. قالت «إيريس» وهي تغلق الباب من ورائنا:

- أنا سعيدة لأنكما تمكنتما من المجيء.

فاحت رائحة الثوم والبصل الشهية في الهواء، لتذكرني بأنني كنت جائعة، تسللت موسيقى كونشرتو «براندنبورغ» الناعمة من غرفة أخرى. نظرت «إيريس» إلى حذائي.

- أنا من محبي ماركة «روكبورت» الرياضية، وسترتك القماشية أنيقة للغاية. أحسنتِ اختيار الملابس.

ابتسمت وشعرت براحة أكبر.

- أنا أعيد تجميع خزانة ملابسي ببطء.

- أنتِ تقومين بمجهود ممتاز حسبما أرى أمامي.

ثم حوَّلت ابتسامتها إلى «جوني» تقول له:

- لمَ أتعبت نفسك وجلبت زجاجة خمر؟

ناولها الزجاجة وهو يقول:

- إنها ماركة «وودوارد كانيون»، من عام 2009، أفضل «شاردونيه» في ولاية واشنطن على الإطلاق.

- لم تكن بحاجة إلى إحضار أي شيء، لكن شكرًا جزيلًا على كل حال.

رسمَ «جوني» ابتسامته الشهيرة التي تنتزع مقاومة من أمامه قائلًا:

- هذا أقل ما يمكننا فعله.

- أخشى أن العشاء سيتأخر قليلًا.

استطردت هي، بينما خلعنا أنا و«جوني» أحذيتنا.

- تحتاج اللازانيا إلى بضع دقائق أخرى. تأخرت بسبب عرض منزل مذهل في «بورت بلاكلي»، صممه «ثيو لاروش».

ارتفع حاجبا «جوني».

- «لاروش»؟ رائع، إنه رجل موهوب.

- سمعت عنه؟ أنا مبهورة.

لم أكن أعرف من هو «ثيو لاروش» هذا من الأصل، فعدت أشعر بالضيق وعدم الارتياح، بالإضافة لشعوري السابق بالعار من ملابسي، عظيم.

عقصت «إيريس» شعرها خلف أذنها، كاشفةً عن قرط أذن من اللؤلؤ على شكل دمعة.

- المنزل يقع قبالة شبه جزيرة «روكاواي» مباشرة، وأمامه مناظر خلابة لمرفأ «بلاكلي». مبني على الطراز الحديث، وله نوافذ ضخمة. كله مبني من الحجر.

- أنا أحب البيوت الحجرية.

هكذا علق «جوني»، فقلت باستغراب:

- حقًّا؟ منذ متى؟

كانت هذه معلومة جديدة بالنسبة إلي.

- لطالما كنت أحبها.

هكذا أجاب، ونظرته لا تزال مركَّزة على «إيريس». حسنًا، لا مشكلة. يمكن للزوجة دائمًا أن تتعلم شيئًا جديدًا عن زوجها، أليس كذلك؟

قالت «إيريس»:

- هذا البيت سيُباع بسرعة، لكن لدي العديد من البيوت الأخرى التي قد تثير اهتمامك.

تدخلت:

- نحن نخطط لإعادة بناء منزلنا.

ابتسمت «إيريس» في وجهي.

- أعطِني فرصة لأريكِ ما لدي. هذا هو كل ما أطلبه.

بينما علق «جوني»:

- لا ضرر في تفقد ما لديها، أليس كذلك؟

قالها وهو يمسك ذراعي، قلت:

- حسنًا، ربما نظرة بسيطة لن تضر.

نظرة لا يمكن أن تؤذي، أليس كذلك؟ تجرأت على تخيل «ميا» تنتقل معنا. ربما ستتحسن أحوال تلك البائسة الصغيرة بعيدًا عما يذكِّرها بوالديها. لا، هذا جنون. مكان «ميا» الصحيح مع جدتها.

- حسنًا إذن. سنحدد موعدًا.

قادتنا «إيريس» إلى غرفة المعيشة الواسعة التي جلس فيها آل «مينكويسكي» بالفعل، «تيريزا» بجمالها الأخَّاذ الذي ملأ الغرفة، وزوجها الذي يشبه «هاريسون فورد» في شبابه. وقفا كلاهما، وقد أمسكا كأسين من

النبيذ في أيديهما. ارتدت «تيريزا» فستانًا فيروزي اللون عانق ردفيها، بينما ارتدى زوجها قميصًا ذا لون أخضر شاحب وبنطالًا أسود.

كنت الشخص الوحيد في الغرفة الذي يرتدي ملابس غير رسمية. قال الرجل:

- أنا «كادين مينكويسكي».

ومد يده يصافح «جوني».

- أعتقد أنك قابلت «تيريزا» بالفعل.

ابتسم «جوني».

- لقد مرت قرب كوخنا. أنا «جوني ماكدونالد»، وهذه زوجتي «سارة».

- تشرفنا.

بعد ذلك، صافح «كادين» يدي بقبضة قوية تكاد تكون مؤلمة. ثم ترك يدي وتراجع للخلف، محيطًا خصر زوجته بذراعه.

- كان من المفترض أن أكون خارج المدينة، لكن تم إلغاء الاجتماع في «لوس أنجلوس» في اللحظة الأخيرة. يسعدني أن أُتيحَت لي الفرصة لمقابلتكما بدلًا من ذلك.

أومأتُ له مبتسمة وأجبته:

- ونحن كذلك مثلك.

عقَّبت «تيريزا»:

- من الجميل أن أحدهم سكن هنا، أخيرًا صار لدينا جيران.

صفقت «إيريس» بيديها وقالت:

- حسنًا، صرتم تعرفون بعضكم بشكل أفضل الآن، «سارة» و«جوني»، هل أجلب لكما نبيذ توت العليق؟

أومأ كلانا برأسه إيجابًا، وسرعان ما اختفت مضيفتنا من القاعة. جلست «تيريزا» و«كادين» بجانب بعضهما بعضًا على الأريكة الوحيدة، والتي لم تكن

كبيرة الحجم، وقد جلست «تيريزا» على الحافة، بينما اتخذنا -«جوني» وأنا- مجلسنا على كرسيين منفصلين أمامهما. كان بالغرفة العديد من الطاولات العتيقة الثقيلة، ورفوف مكتبة مليئة بكتب قديمة ذات أغلفة سميكة، وثُريا من الكريستال، وأخيرًا، مصابيح أرضية من طراز «تيفاني».

عادت «إيريس» مع كأسين من النبيذ لنا، ثم جلست على كرسي بذراعين مرتفع الظهر ذي طراز فيكتوري.

- «جوني» يعمل كطبيب أمراض جلدية، و«سارة» تكتب قصصًا للأطفال، أما «كادين» فمدير استثماري، و«تيريزا» تعمل في الترميم. هل نسيت ذكر أي شخص؟

- الترميم؟

سأل «جوني» وهو ينظر إلى «تيريزا».

- ما هو تخصصك؟

وضعت «تيريزا» إحدى ساقيها الجميلتين فوق الأخرى وهي تجيب:

- الفنون الجميلة، أعمل الآن على ترميم دورق تركي كُسِرت فوهته. الآن يكاد يكون جديدًا، لا يمكنك رؤية اللحامات.

ابتسم «جوني» بإعجاب معلقًا:

- بمعنى آخر، تقومين بأعمال سحر.

أجابت ضاحكة:

- لا يمكنني إصلاح كل شيء.

- ومن يستطيع؟ إنه أمر صعب، خصوصًا عندما يُتوقع منا أداء المعجزات.

تبادل «جوني» و«تيريزا» نظرة، مررا خلالها بعض الرسائل غير المعلَنة بينهما. علقت على كلامهما بقولي:

- القرّاء يتوقعون الكمال أيضًا.

- إذن فأنت تكتبين كتابًا؟

قال «كادين» باهتمام.

- من المفترض أن أكتب، نعم، لكن الأمر صعب بعض الشيء الآن...

قاطعتنا «تيريزا»:

- هل كنتِ تعلمين دائمًا هذا؟ أقصد، الرغبة في أن تكوني كاتبة؟ يبدأ بعض الأشخاص في الكتابة عندما يكونون أكبر عمرًا، بعد التقاعد أو بعد بلوغ أطفالهم.

أجبتها:

- أحببت الكتابة منذ كنت طفلة، نعم، لكنني لم أعد إليها إلا بعد وقت طويل، حصلت على درجة علمية في علم النفس، وفكرت بالعمل في مجال الأبحاث، لكنني أصبحت مراسلة لصحيفة الحرم الجامعي. أجريت مقابلة مع رسام كاريكاتير، وذكَّرني كم أحببت الكتابة عندما كنت صغيرة.

ابتسمت «تيريزا» بحرارة وهي تكمل كلامي:

- لذا عدتِ إليها، كم هذا رائع!

قال «كادين»:

- ابننا يحب الكتابة كذلك.

فعلقت «تيريزا»:

- «كادين» الصغير، لقد أكمل الثامنة من عمره للتو. يحب اللعب والركض طبعًا مثل باقي الأطفال، لكن الكتابة شغفه. لا يمكننا إيقافه عنها. هو يستخدم جهاز الكمبيوتر الصغير الخاص به، ولا يتوقف عن الكتابة عليه.

- سيصبح مؤلفًا مشهورًا يومًا ما.

قالها «كادين» الأب، كما لو أن هذا شيء سهل.

- أصابعه تتصلب أحيانًا من كثرة الكتابة على لوحة المفاتيح.

قالتها «تيريزا» وهي تنظر إلى «جوني»، ثم استطردت:

- وبقع بيضاء على ذراعيه كذلك.

ها هي ذي تأتي، لقد رمت طرف الخيط؛ كلمة تستدرج بها الحوار في طريق مختلف، لطلب مشورة طبية مجانية.

- ألديك أي فكرة ماذا يمكن أن يكون هذا؟

أنا فقط من استطعت ملاحظة انقباضة أصابع «جوني» على كأس النبيذ، قال:

- يصعب القول دون رؤيته شخصيًا. يمكن أن يكون يعاني أكزيما أو عدوى جلدية فطرية.

- عدوى فطرية؟! ظننت أن النساء فقط هن مَن تُصَبن بالالتهابات الفطرية.

هكذا علق «كادين»، فنظرت «تيريزا» نحوه شذرًا.

- «كادين»!

- آسف. لم أتمكن من منع نفسي من التعليق.

- يمكن أن يكون كذلك الصدفية، أو البهاق.

تابع «جوني»، فسأله «كادين»:

- هل تقصد ما كان لدى «مايكل جاكسون»؟

أجاب «جوني» بهدوء:

- إنه أمر غير شائع، أود أن أرى ابنكما قبل أن أحكم. يمكننا أن نفعلها هذا الأسبوع.

تدخلت «إيريس»:

- إنه طبيب ممتاز؛ يفعل المعجزات.

بدا الخجل على «جوني» وهو يرد عليها:

- ليس لتلك الدرجة.

- لقد عالجني.

قالتها «إيريس» وهي تشير إلى وجنتها. انحنت «تيريزا» وأخذت تحدق إلى خد «إيريس».

- عالجك من ماذا؟

- بالضبط، تتساءلين مِن ماذا لأنه لم يعد هناك أثر له.

قالتها «إيريس» بانتصار. عادت «تيريزا» لجلستها السابقة.

- ماذا كانت الحالة؟ بثرة صغيرة؟

- بل ميلانوما.

بقيت صامتة، مصدومة قليلًا. لم يخبرني «جوني» أنه كان يعرف «إيريس» أيضًا. اعتقدت أنه عرفها عن طريق «مود». شهقت «تيريزا».

- هل أصبتِ بسرطان الجلد؟

لمست «إيريس» أنفها برفق.

- وهنا أيضًا. طبيبي الباطني، الذي لن أذكر اسمه، قال إنني ميتة لا محالة. قال إن لدي ستة أشهر لأعيشها على أقصى تقدير.

- ستة أشهر؟

ارتفع صوت «تيريزا».

- لم تكن لدي أي فكرة.

ربتت «إيريس» على ذراعها.

- الآن أنتِ تعرفين. عالجني الدكتور «ماكدونالد». وحتى هذه اللحظة لم يعاودني المرض. قمنا بعدة تحاليل واستشارات بعدما شُفيت.

ظل «جوني» صامتًا ينظر إلى كأسه من النبيذ، لن يفشي أي معلومات خاصة بمريضة، حتى لو كشفت هي عن المعلومات بنفسها. لكن كان بوسعه إخباري، فأنا زوجته بالنهاية، أليس من المفترض أن يشارك الأزواج أسرارهم مع زوجاتهم؟ أخذت «تيريزا» تنظر نحوه في إعجاب واضح.

- أنا سعيدة لمعرفة أن هناك ساحرًا طبيًا يعيش في الجوار.

قالتها ثم انحنت إلى الأمام لتضع كأسها على المنضدة، كاشفة عن صدرها المتناسق. ابتسم «جوني» مقلّدًا لهجتها بالسابق عندما كانت تتحدث عن وظيفتها:

- لا يمكنني إصلاح كل شخص.



قالت «تيريزا»:

- نقطة جيدة.

ارتسمت الدموع في عيني «إيريس».

- لقد منحتني فرصة جديدة للحياة. أقل ما يمكنني فعله لرد الجميل هو منحك مكانًا للعيش فيه طوال فترة حاجتك إليه.

بدأت أدرك لأول مرة أن «إيريس» لم تكن تأخذ إيجارًا للكوخ!

كانت نيتها أن تكون كريمة وأنا أدرك هذا، لكن لم يسعني إلا الشعور بأنني دخيلة، ولم أكن أريد إثارة شفقة أحد، أو أطمع في صَدَقة من أحد.

عندما دعتنا «إيريس» جميعًا إلى غرفة الطعام الكبرى لتناول العشاء، بالكاد تذوقت لازانيا السبانخ على الرغم من جوعي. كنت أرغب في الجري عائدة إلى الكوخ والاختباء.

أزعجتني الضحكات، والمحادثة التافهة. في منتصف الوجبة، رن جرس الباب بلحن منغم تردد في أرجاء المنزل. مسحت «إيريس» فمها بمنديل من القماش، وتراجعت بكرسيها إلى الخلف لتقف.

- معذرة، لا أعرف من قد يأتي بتلك الساعة المتأخرة.

ارتفعت قرعات حذائها مع ارتطامه بالأرضية بينما هي تغادر الغرفة. غمر صمت غير مريح الغرفة، بينما تسلل صوتها إلى الداخل، يصاحبه صوت ذكر ذي نبرة منخفضة، ثم ارتفعت ضحكات «إيريس» المتفاجئة.

- أنت محظوظ! إنها هنا. تفضل بالدخول.

عادت «إيريس» إلى غرفة الطعام برفقة رجل ملتحٍ ممتلئ الجسم قليلًا، ويبدو في الثلاثينيات من عمره، يرتدي قميصًا وبنطالًا جينز أزرق.

كانت هناك شارة مخاطة في جيب القميص، مكتوب عليها «بائع زهور بـ 'هاربورسايد'». كان يحمل فاتورة مجعدة في يده، وقد بدا مرتبكًا بعض الشيء عندما رأى المجموعة جالسة تتناول عشاءها، ولمح ملابس جميع الضيوف الأنيقة (جميعًا باستثنائي طبعًا)، وشاهد الوجبة الفاخرة. قال:

- آسف على المقاطعة.

قالها وهو يتنحنح.

- هناك طلبية باسم «تيريزا مينكويسكي»؟

قالها ثم نظر إلي، فابتسمت له قائلة:

- لست أنا.

وضعت «تيريزا» شوكتها على طبقها ونظرت إليه.

- أنا «تيريزا».

قالتها ثم ألقت نظرة خاطفة على «كادين»، الذي لم يبدُ عليه أي انفعال. حوّل عامل التوصيل نظراته إلى «تيريزا».

- لقد أخطأت العنوان، ظننت رقم المنزل هو مائتان وسبعة وعشرون، بينما هو رقم مائتين وواحد وعشرين. ظللت أبحث في كل مكان عن سبعة وعشرين هذا.

ردت «تيريزا»:

- نحن نقطن في مائتين وواحد وعشرين.

تنهد الرجل بارتياح واضح.

- سأعود على الفور بالطلبية الخاصة بك، أنا متأخر اليوم. يبدو أنه تم طلب هذه الطلبية على...

قاطعته «إيريس» وهي تلوح بذراعيها مشيرة للحجرة من حولها:

- أدخله على الفور من فضلك، فالمساحة هنا واسعة. لقد أثرت فضولنا.

عاد الرجل بعد دقيقة حاملًا وعاءً خزفيًّا أحمر بداخله مجموعة من زهور «الكوبية» رائعة الشكل، فيروزية اللون. وكان هناك مظروف صغير مثبت بعصا مغروسة في التربة. نظر الرجل حوله.

- أين أضعه؟

- لمَ لا تضعه هنا على المنضدة؟

قالتها «إيريس»، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة لـ «تيريزا».

- ما هي المناسبة؟

- لست متأكدة.

كذا أجابتها «تيريزا»، لكنها كانت بادية الابتهاج. عندما وضع الرجل الوعاء على المنضدة أمام «تيريزا»، أخذت تحدق إلى النبات بسرور. قلت لها:

- إنها جميلة.

ثم وجدت نفسي أتذكر سياج أزهار «الكوبية» الذي كان لدينا في الفناء الخلفي في «سيتكا لين»، والتي أهداني «جوني» إياها، وقد جلس هذا الأخير دون حراك، يشاهد المشهد يدور أمامه دون تعليق.

- شكرًا جزيلًا لك.

قالتها «تيريزا» لمندوب التوصيل، الذي وقف محرَجًا عند المدخل المقوس لغرفة الطعام. قال وهو يحني رأسه:

- على الرحب والسعة، طبتم مساءً، وأعتذر عن المقاطعة.

غادر على عجل. جلست «إيريس»، ليغمرنا الصمت جميعًا للحظة، حدقنا خلالها إلى الأزهار بإعجاب. قطعت «إيريس» الصمت بقولها:

- ألن تقرئي البطاقة؟

وهنا مدت «تيريزا» يدها تلتقط البطاقة، بينما كلنا نراقبها باهتمام، نظرت إلى «كادين» وابتسمت.

- لم يكن هناك داعٍ لتتعب نفسك.

ابتسم، لكن الابتسامة بدت مفتعَلة.

- لا بد أن تكون من معجبك السري.

- ليس لدي أي معجبين سرًّا غيرك.

قالتها وأخذت تدير المظروف بين يديها.

- بالطبع لديكِ!

قالتها «إيريس» ثم استطردت:

- افتحي البطاقة. لست مضطرة لإخبارنا عما بها.

- لا مانع لدي.

قالتها «تيريزا» ثم فتحت البطاقة وقرأتها بصمت، ثم ابتسمت.

- تقول: «إلى امرأة موهوبة بشكل لا يصدق، كعربون تقديري لكِ، ولكِ فقط».

تجمدت في مكاني، شعرت بالكلمات حادة معلَّقة في ذهني، مثل الهوابط في الكهوف الجليدية. هل يمكن أن يشترك أكثر من زوجين في العالم في نفس التعبير الحميم عن المشاعر؟

لم يكن بالضبط نفس اللفظ، لكن الموضوع مريب بما يكفي: تلقت «تيريزا» أزهار «الكوبية»، أول هدية أهداها «جوني» لي. صدمتني حقيقة واضحة لحظتها، وهي أنه لم يكن من المفترض أن يحدث أي من هذا هنا في منزل «إيريس». كان من المفترض أن تذهب الهدية إلى منزل «تيريزا»، بينما زوجها بعيد عن البيت. نظرت فيما حولي نحو كل شخص، باحثة عن إشارة لكون أي شخص آخر كان يفكر فيما كنت أفكر فيه، لكنهم كانوا جميعًا يبتسمون. ربما كنت الشخص الوحيد المصاب بالبارانويا في الغرفة. لقد فعل الارتجاج فعلته في عقلي. ألقت «تيريزا» ذراعيها حول رقبة «كادين» وقبلته على شفتيه.

- شكرًا لك حبيبي!

ظل وجهه متصلبًا دون رد فعل. عندما أفلتته عائدة لمكانها، ظهر ظل من الارتباك فوق وجهه، ثم أخذ البطاقة من «تيريزا» وقرأها في سره، ثم أعاد البطاقة لها.

- على الرحب والسعة.

- لكن ما هي المناسبة؟ هل ستخبروننا بالسر؟ عيد ميلاد؟ عيد زواجكما؟

سألت «إيريس». نظرت «تيريزا» إلى يديها اللتين على حجرها، واعترى وجهها ظل عميق من اللون الوردي. نظرت إلى «كادين»، والذي أومأ برأسه صامتًا، كأنه يعطيها الإذن بالتحدث. ابتسمت بخجل للجميع وعضت شفتيها.

- لقد كان سرًّا في الشهرين الماضيين، حتى نتأكد من أن الأمور تسير على ما يرام، وهي تسير كذلك بالفعل، هكذا بوسعنا إخباركم. أنا و«كادين» نتوقع طفلنا الثاني في الربيع.
- حقًّا؟ تهانينا!

هكذا هتفت «إيريس» قبل أن تنهض فجأة من مكانها وتهرع لعناق «تيريزا» و«كادين»، الذي اعتلت وجهه ابتسامة شاردة. تعالت التهاني من كل صوب، وحتى أنا نهضت لعناق «تيريزا» و«كادين»، على الرغم من أنني التقيت بهما للتو.

كنت سعيدة من أجل «تيريزا»؛ سعيدة بأخبارها السارة، لكن خبر حملها زاد أيضًا من حجم الفراغ داخلي. شعرت بالعطش يغزو حلقي، لكنني ظللت أبتسم، فماذا يمكن أن أفعل غير هذا؟

ابتسم «جوني» ابتسامته المغناطيسية ورفع كأس النبيذ الخاصة به، هتف:

- فلنشرب نخب الرومانسية، والجيران الجدد، والمفاجآت الأسرية السعيدة.

ردد الجميع نخبه، ورفعوا كؤوسهم في انسجام تام.



الفصل الثالث عشر

عندما وصلت إلى منزل «هارييت» في فترة ما بعد الظهر، كانت حالة البيت المنظمة قد ذهبت بلا رجعة ضحية لأهواء فتاة صغيرة سكبت العصير على سجادة، وتركت فتات بسكويت على النضد، وسحبت بعض الكتب المصورة من على الرفوف. انطبعت بصمات أصابعها الدهنية على كل الأسطح الممكنة، بما في ذلك جهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفزيون، ومقابض الأبواب، وطاولة المطبخ.

دلني الدقيق المتناثر على المنضدة على عملية الخَبز الأخيرة. تبعثرت قطع البازل فوق طاولة القهوة، وقد بدأت لوحة لحيوانات الغابة تتشكل وسط الفوضى. كانت «هارييت» قد غادرت على عجل، متأخرة على موعدها، تاركة لي تعليمات غامضة للسماح لـ «ميا» بأخذ قيلولة إذا احتاجت إلى واحدة، وتعليمات بتقديم المقرمشات والعصير لها إذا شعرت بالجوع. جلست الفتاة على سجادة غرفة المعيشة، وقد تناثرت مجموعة من الطباشير الملون على طاولة القهوة، تحاول تلوين صفحات من كتاب «أميرات ديزني» وقد أخرجت لسانها، بدا شعرها مقطوعًا بشكل أكثر خشونة اليوم، كما لو أن جزازة عشب مصفرة مرت على رأسها.

جلستُ على الأريكة مشتتة الذهن. عندما عدت أنا و«جوني» إلى الكوخ في الليلة السابقة، ذكرت له موضوع البطاقة التي أتت مع الزهور، وكيف كانت صيغتها مشابهة للكلمات التي تشاركناها لما يقرب من ثلاث سنين. أنكر «جوني» معرفة أي شيء عن توصيل الزهور.

لماذا قد يرسل إليها زهورًا؟ اعتذر عن عدم إرسال أي زهور إليَّ، وفي الصباح، أحضر لي قهوة مع حليب الصويا العادي. كان يعرف بالضبط ما أحبه. خبز محمص، لكن دون أن يحترق، ومعه زبدة فول سوداني كريمية دون ملح.

- انظري، عيون الملكة... أرجوانية!

كانت «ميا» تلون خارج الأماكن المحددة، مما خلق أشكالًا جديدة تتجاوز حدود الرسم الأصلي. قلت:

- شكلها جميل.

أسقطت «ميا» قلم التلوين الأرجواني، والتقطت اللون الكحلي، وبدأت في تلوين ثوب الأميرة.

- والكحلي.

- أنتِ تختارين الألوان المناسبة.

- هذه الصورة لأمي.

قالتها ثم انتزعت الصفحة من كتاب التلوين ورفعتها لتريني إياها. ابتسمت بحزن معلقة:

- جميلة للغاية.

قلبت «ميا» الصفحة فرأيت الخطوط العريضة لأرانب وغزلان صغيرة تلعب بسعادة.

- أما هذه فلأبي.

- من الجيد أن يحصل كل واحد على صورة خاصة به.

قالت «ميا» بجدية:

- وصنعت واحدة لجدتي كذلك.

شعرت أن «مونيك» لا تزال حية في يد «ميا» وهي تمد يدها لتلتقط قلم تلوين أخضر لتلوين الأشجار، رسمت قلبًا صغيرًا وبضعة خطوط متعرجة فوق الغابة.

- وواحدة لكِ.

قلت بنعومة:

- شكرًا لكِ.

أشارت إلى الخطوط المتعرجة.

- مكتوب «أنا أحبك».

- وأنا أيضًا أحبك يا حبيبتي.

ابتسمت لي، ثم قلبت الصفحة مرة أخرى.

- وواحد لمدرِّسي.

- لا يمكنك أن تنسي معلمك!

علقت، وقد شعرت بالدموع تطفر من عيني، نهضت ورتبت الكتب على الرفوف. كانت غرفة «هارييت»، على الجانب الآخر من غرفة «ميا»، لا تزال مرتبة، بسرير وردي، وستائر وردية، ومنضدة للزينة، حيث نُحِتت وردة على الخشب فوق المرآة.

في غرفة الضيوف الموجودة بالجهة الأخرى من القاعة، كان هناك سرير مستند إلى الحائط، وطاولة وآلة حياكة في الزاوية المقابلة، بينما تكدست قطع القماش وتصميمات الملابس على كرسي بجوار مكتب ودولاب.

عدت مرة أخرى لأتفقد «ميا»، وكانت لا تزال تلوِّن، لذا عدت إلى غرفة الضيوف، حيث تكدست كومة من الأوراق، وبطاقات المعزيين، والملفات على المكتب.

ولأنني أدركت فضولي غير المحمود وشعوري بالذنب لتلصصي هذا، لم أحاول قراءة البطاقات التي أتت من الأطباء، والمعلمين، وأصدقاء «هارييت» القدامى، وعائلتها على الساحل الشرقي. لفت انتباهي ملف ذو لون بيج مكتوب عليه اسم «ميا». في الداخل كانت هناك نسخ من السجلات الطبية لـ «ميا»، وتحت السجلات الطبية، كانت هناك نسخة من شهادة ميلادها، كانت «ميا» تزن وقتها نحو ثلاثة كيلوجرامات وربع، وقد وُلدت في الساعة 2:5 صباحًا بمستشفى «كوف» في 13 من فبراير. والدتها كانت «مونيك بومونت»، ولكن لم يتم ذكر الأب! ولا حتى سطر فارغ باسم الأب...

لا شيء على الإطلاق!



الفصل الرابع عشر

في طريق العودة إلى جادة «شادو بلاف»، وجدت نفسي أدور بسيارتي لأدخل إلى الممر الموجود أمام منزل «إيريس». حاولت فهم ما علِمته عن «ميا». لقد افترضت أن «تشاد» هو والدها البيولوجي، لكن ماذا لو كان افتراضي خاطئًا؟ ذكرت «مونيك» حفل زفاف سريع قبل أربع سنوات، مما يعني أن «ميا» قد تكون قد وُلِدت بالفعل عندما عقدت «مونيك» قرانها على «تشاد». على أي حال، ليس أصل «ميا» من شأن أحد.

عندما عادت «هارييت» إلى المنزل، طلبت مني استضافة «ميا» في ليلة عطلة نهاية الأسبوع التالية. كان عليها أن تعود إلى المستشفى من أجل إجراء اختبارات أكثر شمولًا، بدت متعبة ومرهقة، كأنها خصلة شعر تمشي على قدمين.

وافقت، لكننا لم نكن نمتلك أي ألعاب أو كتب، ولم يكن هناك مكان لتنام فيه «ميا» في الكوخ، لذلك اتصلت بـ «إيريس» لأسأل ما إذا كان بإمكاننا استعارة سرير إضافي، والآن، بينما أنا أقترب من الشرفة المطلية حديثًا، وجدت «تود سيفرسون» يعمل على السور، وقد أمسك بشاكوش في يده. بدا أن شعره الداكن، وزوايا وجهه، يمتصون أشعة الشمس.

- تفضلي بالدخول، إنها تمارس الرياضة في الطابق العلوي.

قالها وهو ينظر نحوي نظرة طويلة ثاقبة. قلت:

- شكرًا، ربما لا ينبغي أن أزعجها؟

اعتدل واقفًا.

- هل ستحملين السرير بنفسك؟

احمرت وجنتاي.

- لم أفكر في ذلك.

- إنه ثقيل. قالت إنني يجب أن أساعدك.

- سأقدِّر لك ذلك، بالمناسبة، رغبت في أن أسألك عما كنت تعنيه قبلًا.

- بخصوص ماذا؟

- كنت على وشك إخباري بشيء من قبل.

- لا، لا أتذكر ذلك...

قالها ثم عاد إلى الطرق مرة أخرى.

حسنًا إذن، ربما لم يكن لديه ما يقوله لي، فتحت الباب الأمامي الثقيل ودخلت. شعرت بمنزل «إيريس» باردًا، وقد انتشرت في الهواء رائحة البرتقال، لتذكرني بصباحات أيام الآحاد في شارع «سيتكا»، عندما كنت أعد عصير البرتقال الطازج، وهي الذكرى التي تبعتني في أثناء صعودي درجات السلم الواسعة إلى الطابق الثاني.

تصاعد قرع طبول قوي متكرر من غرفة في نهاية القاعة.

اصطفت على الجدران عدة صور داخل إطارات، تمثل بعض المناظر الطبيعية -غابات ومحيطات- وصورة لـ «إيريس» في سن المراهقة وهي تقف بين رجل وامرأة لهما وجهان لطيفان، ربما والداها.

انبعثت موسيقى كلاسيكية ناعمة من غرفة على يساري، فطرقت بابها، ولكن لم يجب أحد، وكان الباب مغلقًا، انتظرت للحظة، أتنصت. تصاعدت أصوات موسيقى من الطرف الآخر من القاعة. توقف قرع الطبول، وظهرت «إيريس».

- «سارة»! لم أسمعك تدخلين.

- آسفة، أنا، قال «تود»...

- بالطبع، السرير.

ابتسمت «إيريس» وهي تتقدم نحوي، وهي تخطو بخفة على أطراف قدميها، أومأت برأسها نحو الغرفة ذات الباب المغلق.

- هذه غرفتي السرية التي أذهب لها بحثًا عن الهدوء، لكنني كنت في غرفة تمرينات «الزومبا».

لمحت سروال التمرين الليكرا اللاصق بالجسد الذي ترتديه والذي أخذ يلمع، وقد ارتدت عُصَابَةً لِامْتِصاصِ العَرَق حول جبهتها.

- تعالي، ادخلي.

قادتني «إيريس» عبر القاعة إلى غرفة نوم إضافية أصبحت غرفة تخزين. سحبت سريرًا نقالًا من خلف صورة ضخمة داخل إطار لبرج المراقبة المسمى «إبرة الفضاء» الموجود في سياتل.

- إنه سرير مخيم، انظري، يمكن طيه وفرده.

- ممتاز، شكرًا لكِ.

- كنت أحتفظ به لصديقي الحميميّ. اعتقدت أنه سيحب التخييم.

قالتها ثم غمزت لي بينما كنا نتحرك بالسرير النقال لنتخطى بعض العقبات التي واجهتنا قبل أن نصل للباب.

- أوه؟ صديق حميميّ؟

منحتني «إيريس» نظرة تآمرية خبيثة.

- لا تخبري أحدًا، فما زلت في منتصف عملية طلاقي. أعرف أنني أتصرف بسرعة.

ابتسمت.

- هذا خبر عظيم، تهانيَّ.

- لا يزال عالقًا في ورطات صعبة، لكن ستتحسن الأمور بالنهاية وسنكون معًا.

وصلت إلى الباب، وفتحته بكتفها.

- آمل أن يسير كل شيء بسلاسة.

- وأنا كذلك.

حملنا السرير النقال إلى الطابق السفلي وخرجنا منه إلى الحديقة. فاجأني كون السرير ثقيلًا. رفع «تود» السرير فوق كتفه وتقدم به نحو شاحنته الزرقاء.

- يمكنني مقابلتك هناك لاحقًا، إذا كان لديكِ وقت للتنزه بالغابة قليلًا؟ يمكنني أن أريك الطريق إلى النهر.

قالت «إيريس»، فأجبتها:

- عظيم. سأراكِ هناك.

لوَّحتُ مودعة «إيريس»، وقدت السيارة عائدة إلى الكوخ وقد تبعني «تود» في شاحنته. أخذ السرير للداخل وأقامه لي بغرفة النوم الإضافية. التقطتُ صورة من فوق الطاولة. كانت صورة لـ «مونيك» و«تشاد» و«جوني» وأنا ونحن نتزلج في حلبة التزلج على الجليد الوحيدة في المدينة، قبل شتاءين. كنت قد نسيت تلك الصورة، التي ظل «جوني» يحتفظ بها في محفظته. حدق «تود» إلى الصورة وعبس حزينًا.

- كانت النيران شديدة للغاية.

كدت أن أرى انعكاس النيران في عينيه، ثم تقلصت ملامح وجهه وانزلقت دمعة نازلة على وجنتيه.

لم يكن لدي أي فكرة ماذا يجدر بي أن أقول. لم ينهَر أي شخص غريب أمامي من قبل.

- أنا آسفة.

كان هذا كل ما أمكنني قوله.

- لقد فعلتِ أقصى ما بوسعك.

- بلى.

مسح عينيه وتوجه نحو الباب، وقد احمر وجهه خجلًا.

- آسف. لم أتمكن من تمالك نفسي.

- لا بأس. هذا طبيعي، فكلنا بشر.

فتح الباب ثم نظر إليَّ.

- هل وجدتِ منزلًا لتقيمي فيه؟

نظر نحو منزل آل «مينكويسكي»، ثم عاد بنظره إليَّ.

- لا. لماذا؟

- عندما تجدين بيتًا، ابتعدي قدر الإمكان عن هذه المدينة!

- ولماذا أفعل ذلك؟

شعرت بالخدر ينتشر من أطراف أصابعي للداخل.

- هل تعرف شيئًا عن الحريق؟ لماذا قد نرغب في مغادرة المدينة؟

بدا وكأنه يخرج مما كان فيه من غشية. نظر إليَّ، وقد احتقنت عيناه بالدم.

- لو كنتُ مكانك، وعرفتُ أن هناك قذرًا مختلًّا حاول إحراقي، لرغبت في الهروب من المكان في أسرع وقت.

ثم سار عائدًا إلى شاحنته، فركضت وراءه.

- هل هذا ما أردتَ أن تخبرني به من قبل؟

استقل الشاحنة وبدأ في تشغيل المحرك والباب لا يزال مفتوحًا.

- لا تخبري أي شخص أنني قلت ذلك، حسنًا؟

- لكن لماذا؟

تنهد وأغلق الباب، ثم أنزل زجاج النافذة لأسفل.

- كل ما أعلمه هو أنني لو كنت مكانكِ لرحلت.

قالها ثم رحل مبتعدًا.

☆☆☆

الفصل الخامس عشر

«ولكن لا يمكنك أنتِ و«جوني» مغادرة المدينة»!

قالت «إيريس»، كانت قد جاءت لتصطحبني في نزهة، كانت ترتدي سترة ثقيلة من الصوف، وبنطالًا طويلًا، وتنتعل حذاءً ذا رقبة. حتى في ملابس الخروج العادية بدت أنيقة للغاية، كأنها موديل على وشك أن يتم التقاط صورتها ليتم وضعها بكتالوج أزياء لماركة شهيرة.

شعرت بأنني عادية المظهر للغاية في سترتي الحمراء الثقيلة، وبنطال الجينز، وحذاء الجري.

- في اعتقادك، لماذا أخبرني «تود» بهذا؟
- إنه يعرف أن منفِّذي الحرائق يكررون المحاولة. حدثت مرة في مناوبته، حينما حاول صديق غيور حرق منزل صديقته، ونجح في المرة الثانية، قبل أن يمسكوا به. تم استدعاء «تود» في تلك الحادثة.
- هذا يفسر ما حدث. لكن من يدري ما هو الدافع وراء حريق شارع «سيتكا»؟
- يحاول استباق الأحداث ربما، حتى لا تحدث نفس المأساة، فهو حساس للغاية، لدرجة أنه لم يأتِ للعمل في اليوم التالي للحريق. قال إنه لم يكن يشعر أنه بخير.
- المسكين، لا ينبغي أن يشعر بأنه مسؤول عن الموضوع.
- لا ينبغي له، هذا صحيح، ولكن... الموضوع آلمه بشدة.
- لقد تركت رسالة لقائد الإطفاء. اعتقدت أنه يجب أن يعرف حول حديثي مع «تود».

أومأت «إيريس» برأسها وهي تفكر بينما تقودني عبر الشارع وسط يوم بارد.

توهجت حواف الغيوم، لكن لم يكن هناك أي علامة على قرب هطول المطر بعد. مررنا بمنزل آل «مينكويسكي»، والذي امتلأت حديقته بلعب الأطفال ودراجة صغيرة، لكن لم تكن هناك أي سيارات. ثم انحرفت «إيريس» إلى اليمين، في أكثر أجزاء الغابة تشابكًا.

قالت:

- الطريق يتسع لأسفل، ولكن في الوقت الحالي، علينا أن نسير وراء بعضنا.

تبعتها وأنا أراقب خطواتها الرياضية السريعة، الحازمة، كما لو أنها تأخرت عن موعد ما. وبينما الطريق يختفي من خلفنا، بدا أننا دخلنا فجأة برية عميقة، بعيدة عن الحضارة، وقد تعالى تغريد الطيور، وزقزقاتهم تحت شجيرات التوت.

سحبتني روائح الغابة للماضي فأعادتني لطفولتي، عندما كنت أقضي الكثير من وقتي في الغابة، أبحث عن علامات الحياة البرية، والفئران الصغيرة واليرقات، وأقوم بتدوين الملاحظات عن كل هذا في مذكراتي.

في مذكراتي الجديدة، وهي مذكرات ما بعد اندلاع الحريق، كنت قد بدأت في تدوين ملاحظات ومشاعر وانطباعات.

اقترب صوت مياه النهر المندفعة، وصارت أعلى صوتًا، وراء غابة كثيفة من أشجار التنوب والأرز.

هتفت «إيريس»:

- هذه المنطقة كلها عبارة عن حزام أخضر، محمية «شادو كوف» تقع وصولًا إلى النهر.

- جميلة!

هتفتُ مجيبة عليها. صار الممر واسعًا بالنسبة إليّ بما يكفي للحاق بها خطوة بخطوة، وقد فاح الهواء برائحة أوراق الشجر والطحالب، رائحة جذابة مريحة.

- ماذا حدث مع زوجة «تود»؟

سألتها...

- تركته فجأة، قال إنه أحبها منذ أول مرة التقيا فيها، لكنها تغيرت بعد ذلك. هل نتغير بعد أن نتزوج؟

- «جوني» وأنا بقينا على حالنا إلى حد كبير، على ما أعتقد.

لكن هل نحن كذلك فعلًا؟

- كيف تعارفتما؟

توقفت «إيريس» عند ضفة النهر، تدفقت المياه المظلمة بالأسفل في تيارات متداخلة.

- كان ذلك في حَدَث «غطسة الدب القطبي» السنوي، الذي يقوم على فكرة البقاء في المياه المثلجة لأطول فترة ممكنة، لديه قميص لتخليد ذكرى المناسبة.

وهنا ابتسمت «إيريس»، وأشرق وجهها.

- أحب تلك الغطسة، اشتركت فيها مرتين، وحصلت على قميص مثله.

- أنتِ شجاعة. لم يكن لدي الشجاعة للقيام بهذه القفزة، فالمياه باردة جدًّا. لكنني شاهدت بضعة أشخاص شجعان يقومون بالغوص.

ارتجفت عندما استعدت المشهد داخل عقلي، واستطردت:

- ... أعطيت «جوني» منشفة الشاطئ الخاصة بي، كان قد نسي منشفته. هل تصدقين هذا؟ هكذا بدأنا الحديث.

- فوق المياه المثلجة، كم هذا رومانسي، أما أنا فقابلت زوجي السابق في ملاهي المقاطعة، في لعبة ركوب أفراس النهر المعدنية، دخلنا نفس

المقصورة. المقصورات الأخرى كانت محجوزة كلها. هكذا تمسكت به بينما كانت اللعبة تتأرجح بنا هنا وهناك.

- يا لها من قصة رائعة؛ تتفوق على قصتي.
- أنا متخصصة في التفوق.

تبعنا الدرب المتعرج على طول ضفة النهر، تفرع المسار العرضي لأسفل باتجاه النهر. واصلت رفيقتي بعد قليل:

- لكن في النهاية، لم تنجدنا روعة قصة تعرُّفنا ببعضنا بعضًا، ما زلنا غارقين في تفاصيل طلاقنا البغيض.
- آسفة لسماع هذا.
- الأمور أفضل هكذا. لم يكن مقدرًا لنا أن نكون معًا.

وهنا تصاعد تساؤل بداخلي: هل من المقدر لي أنا و«جوني» أن نكون معًا؟ لقد قبلت عرضه للزواج بعد الكثير من التفكير، بعد أن سقطنا بعمق لا رجعة فيه في الحب. لكنني الآن أتساءل، هل فكرت بما فيه الكفاية؟ وهل هناك فائدة من إثارة مثل تلك الأسئلة من الأصل، بينما قد فقدنا كل شيء ونحتاج إلى أن نكون أقوى معًا؟ قادتني «إيريس» إلى شلال خلاب، حيث تناثر رذاذ من الماء الأبيض صانعًا غلالة من الضباب الخفيف في الهواء، وقد حام قوس قزح خافت الألوان في السماء. انحدر النهر بشدة هنا، صانعًا بعض الدوامات قرب قاع الشلالات الصخرية، ثم هدأت سرعة التيار على مبعدة في اتجاه مجرى النهر.

أشارت رفيقتي إلى مسار ضيق متفرع من اليمين.

- ذلك الطريق يتجه إلى منزل آل «مينكويسكي». عليك أن تتذكري كل المنعطفات. ذهبت بطريق الخطأ بهذا الطريق ذات مرة، وانتهى بي الأمر في حديقتهم. لقد تدربت على تتبع المسار. من السهل أن يضيع الشخص منا في الطريق.

تميز مدخل المسار برائحة شجر الورد البري القوية. قلت:

- كان «جوني» ليحب هذا المسار.
- أوه، إنه يعرفه بالفعل. هذا هو المكان الذي رأيته فيه في اليوم الذي كان يركض فيه.
- أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟
- كنت وراءه فلم أتمكن من اللحاق به. لكن عندما وصلت عند نهاية الدرب، كان هناك، في حديقة آل «مينكويسكي»، يتجاذب أطراف الحديث مع «تيريزا».
- ربما كان تائهًا. كما تعلمين، يكره الرجال أن يطلبوا المساعدة، حتى فوات الأوان.

انطلقنا نحن الاثنتان بالضحك، لكنني شعرت بضحكتي مصطنعة، تزايدت برودة الهواء من حولنا، ليتحول النسيم إلى ريح قوية. نعم، لا بد أن «جوني» قد فعل بالضبط ما فعلته «إيريس»؛ ضل طريقه وسار في الدرب الخاطئ، الذي انتهى به إلى ساحة بيت آل «مينكويسكي» بالصدفة، أليس كذلك؟

☆☆☆

الفصل السادس عشر

في صباح اليوم التالي، عندما غادر «جوني» لممارسة رياضة العدو، شاهدته وهو يركض عبر الشارع نحو الدرب. ماذا جعلني أترك كوب قهوتي على النضد، وأنتعل حذائي الرياضي، وأتبعه.

مرت الرياح الخريفية الباردة من بين الأشجار فكتمت صوت قدمي. كان منزل آل «مينكويسكي» مظلمًا، ولا توجد سيارات في الممر الموجود أمامه. عندما ركضت في الممر، مسحت الغابة بعينيَّ بحثًا عن «جوني»، لكنني لم أستطع رؤيته. ماذا لو ذهب إلى مسار آخر؟ زدت من سرعتي، فشعرت برئتيَّ تحتجان. كيف فقدت لياقتي بهذا الشكل؟

غردت عصافير الحسُّون فوق الشجيرات، ولمحت «جوني» على مسافة بعيدة، في المكان الذي ينحدر فيه الدرب نحو النهر، وحينما تباطأ ليتفقد هاتفه المحمول، انزلقتُ مختبئة خلف شجرة.

«الحقي به وتحدثي معه بحق السماء»!

هكذا فكرت، لكن شعورًا خفيًا بداخلي منعني. نقر بإبهاميه على الهاتف، يكتب رسالة نصية إلى شخص ما، ثم انحرف بحدة إلى اليمين، واختفى في الغابة. ركضت لألحق به. تركت مسافة بيننا، عندما رأيت «جوني» يأخذ عدة منعطفات جانبية. حاولت أن أتذكر الطريق. في النهاية، صعد تلة واختفى على الجانب الآخر، توقفت عند القمة، شاعرة بالنسيم الرطب الذي تخلل شعري منذرًا بقرب هبوب عاصفة. اختبأت خلف شجرة تنوب يقع نصفها في الظل، وشاهدته ينزل إلى الفناء الخلفي لمنزل آل «مينكويسكي». شعرت كأنني أشاهد شخصًا غريبًا، فقد بدا غريب المظهر للغاية، بالطريقة التي انحنت بها كتفاه، وهو ينظر خفية يمينًا ويسارًا، ثم يطرق على باب منزل آل «مينكويسكي» الخلفي.

حبست أنفاسي، وقد شعرت بالمشهد الذي يدور أمامي سرياليًا للغاية. أجابت «تيريزا» الطرقات، وكانت ترتدي روبًا ورديًا لامعًا وخفين، وقد تناثر شعرها الغزير في فوضى مشعثة.

غريزيًا، مددت أناملي لألمس شعري. بوسعي الركض أسفل منحدر التل الآن، وأفضح كل شيء!

نصف بداخلي أراد أن يصدق أن «إيريس» لم ترَ «جوني» يأخذ هذا الطريق بالذات، لكن ما يدور أمامي أوضحَ مدى ضلال هذا الاعتقاد.

قادت «تيريزا» «جوني» إلى الداخل. خلع قبعته الرياضية، وحنى رأسه، ودخل عبر الباب الخلفي، قبل أن يغلق الباب من ورائه.

بقيت على التل، والرياح الباردة لا تزال تداعب بشرتي. ماذا سيحدث لو نزلت إلى منزل آل «مينكويسكي» الآن؟ ربما يكون «جوني» و«تيريزا» في السرير معًا، وقد تناثرت ملابسهما على الأرض. ربما تجيب «تيريزا» على طرقات الباب وهي عارية، أو ترتدي الروب فقط، أو ربما لا تجيب الطرقات على الإطلاق!

هل «جوني» حقًا قادر على هذا النوع من الخداع؟

أيمكنه أن يعيش حياتين بتلك الطريقة؟

لو لم أطأ وسط أنقاض منزلنا في شارع «سيتكا» بالخطأ، لو لم تحترق الجدران، هل كنت لأجد صورة المرأة المجهولة الهوية، التي كتبت «حبيبي» على ظهر الصورة؟

هل كان سينتهي بي الأمر هنا، في كوخ أراقب «جوني» يدخل عبر الباب الخلفي لبيت امرأة غريبة متزوجة؟

وقفت على جانب التل المليء بالأشجار والغارق في الظلال، وقررت ألا أقوم بفضيحة. سأنتظر حتى يعود للمنزل وأسأله بكل بساطة، وأمنحه الفرصة للدفاع عن نفسه.

لم أكن أرغب في السير في ساحة بيت آل «مينكويسكي»؛ قد تراني «تيريزا» و«جوني» عبر النافذة، وسيعلم أنني كنت أتبعه، لهذا استدرت وتوجهت إلى أسفل الدرب، وقد تبلل وجهي بالدموع وأول قطرات مطر الخريف.



الفصل السابع عشر

عدت إلى طريقي عبر الغابة...

أظلمت السماء، بينما شكلت الأمطار المتدفقة غلالة شفافة انسدلت عبر الطريق، وقد تساقطت قطرات صغيرة من الماء على أوراق الشجر في ضربات متقطعة، كأنها خطوات أقدام صغيرة لمخلوقات غير مرئية.

اندفع النهر على مبعدة، حيث يصب في بحيرة «واميكاكوم» عند سفح التلال.

الآن، وقد اختلط صوته بصوت المطر، بدا ضجيج الشلال وكأنه قادم من اتجاهات عديدة، وكأن طريقه قد تغير مع الريح.

ربما كان علي أن أسلك طريقًا مختلفًا من البداية، فهكذا كنت قد كسرت بالفعل وعدًا قطعته بالماضي عندما اتّبعتُ زوجي سرًّا.

«يمكنك أن تثقي بي دائمًا، لا تتشككي في حبي لكِ»، قالها لي في شهر العسل.

«أعدك!»، كانت تلك هي إجابتي، فاعتصر يدي بحنان بين يديه، وقد أخذ ينظر نحوي بنظرات صافية ثابتة.

«أريد لهذا الزواج أن ينجح، لذا عليكِ التحدث معي وإخباري بكل ما يدور في ذهنك في الحال. لا تخفي عني أي شيء. لا تغفلي أي تفاصيل»، هذا ما قاله وقتها.

«جوني» سيكون لديه تفسير جيد للموقف.

بدا أن المسارات المتفرعة قد تكاثرت تحت تلك الأمطار المتسارعة. أيُّ هذه المسارات هو الذي سار فيه وهو قادم لهنا؟ عرفت «إيريس» الطريق

أيضًا، ولكنها عاشت في منزلها لفترة طويلة على أي حال، بينما نحن قد انتقلنا للتو إلى الكوخ. لو أن «جوني» أراد التحدث إلى «تيريزا»، فلماذا لم يسر ببساطة عبر الطريق الرئيسي؟

دون البوصلة الموجودة على هاتفي المحمول، فقدت كل إحساس بالاتجاهات، عادة ما يتمكن عقلي من تحديد الشمال والجنوب والشرق والغرب تقريبيًا، ولكن دون الشمس أو أي معالم للاعتماد عليها، ودون صفاء ذهني المعتاد، فلا بد أنني قد تجاوزت أول منعطف كان يجب أن أدخله. شعرت ببداية صداع يخترق مؤخرة جمجمتي. آثار الارتجاج لا تزال مؤثرة على حكمي على الأمور، وجعلتني أفقد طريقي.

مررت بجوار شجرة قيقب، فبدت كبقعة حمراء زاهية وسط كآبة الخريف. لم أمر بتلك الشجرة في طريقي، أو ربما مررت لكنني لم ألاحظها لشدة رغبتي في إبقاء «جوني» في مجال بصري. تكاثرت أشجار القيقب في حديقة أمي في بورتلاند، فبدت واحة برية خارج حدود المدينة.

أحببت ألوان الخريف في الغابة هنا!

قالت لي «ناتالي» عبر الهاتف، بعد أن انتقلت إلى «شادو كوف» لتعمل كاختصاصية تغذية بالمستشفى، وكنت أنا لا أزال أعيش وقتها في سياتل، وقد وقّعتُ عقد نشر أول كتبي، وكنت أتوق للهروب من المدينة، والعودة للغابة، حيث يمكن أن يجد عقلي مجالًا لتأليف القصص، قالت «ناتالي» وقتها: «سوف تحبين المكان هنا! هناك الكثير من الزهور والأشجار، ويطل مباشرة على المحيط».

هكذا انتقلت إلى «شادو كوف»، حيث ازدهرت مسيرتي المهنية، وحيث قابلت الدكتور «جوني ماكدونالد». كنت بالكاد في الخامسة والعشرين من عمري، بينما كان هو يبلغ أربعة وثلاثين عامًا، وقد أنشأ عيادة جلدية خاصة مع اثنين من الزملاء الذكور.

كان الدكتور «جوني ماكدونالد» وقتها شابًا أعذب جذابًا، وصديقًا لزوج «ناتالي» المدعو «دانيال كيمب»، وهو طبيب الأسرة.

ذهبوا جميعًا إلى حَدَث «غطسة الدب القطبي» السنوي، حيث تسبب تقديمي المنشفة لـ «جوني» في انطلاق شرارة حبنا. تزوجنا بعد عامين تقريبًا.

بوسعي الآن سماع حركة النهر بالأسفل. قد اتخذتُ ممرًّا ضيقًا غير مألوف ينحدر فوق أرض صخرية باتجاه الشاطئ. كنت أسير في الاتجاه الخطأ، لكن إذا تمكنت من الوصول إلى ضفة النهر، فبوسعي الانعطاف يسارًا وأتبع خط الماء إلى المسار الرئيسي.

خمد المطر بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى نهاية الدرب. كنت قد خرجت عن المسار الذي سرت فيه، وسرت مع اتجاه مجرى النهر المنبثق من الشلال الضخم.

لكن هنا، اتسع النهر إلى بركة زجاجية هادئة بشكل مخادع.

بوسعي أن أشعر بالتيار بالأسفل وقد بدا واضحًا في تموجات خافتة تصل إلى السطح. زأر الشلال على مبعدة بجهة اليسار في طريق العودة إلى الكوخ. من المؤكد أن «جوني» سيكون قد استعد للذهاب للعمل بحلول وقت عودتي. سيكون هو الشخص الذي لديه أسئلة لغيابي لكل هذا الوقت. تخيلته يداعب مفاتيح سيارته بيده، بالطريقة التي يكون عليها عندما ينفد صبره، أو يستعد للخروج. «أين كنتِ؟ هل كنتِ تتبعينني؟»، تخيلته يسألني.

على ضفة النهر، كان المسار مسطحًا، وقد غطته آثار أقدام كثيرة. تدلى حبل سميك من شجرة متكئة على الماء. نزل الجسر برفق إلى شاطئ رملي ضيق.

على الضفة المقابلة كان هناك زورق خشبي مهجور مقلوب على العشب، وقد أخذ لونه الأزرق يتقشر. وعلى بعد عدة ياردات على يمين القارب كان هناك رصيف مؤقت، حيث انتصب مبنى متهدم على القمة. كان هناك شيء مألوف بخصوص ذلك المشهد؛ الرصيف والمبنى وأشجار الأرز والتنوب في الخلفية. كانت السقيفة مصنوعة من خشب رمادي مصقول، بينما بدا السقف منبعجًا في بعض الأماكن، وأطلت النوافذ الصغيرة المربعة مثل أعين مجوَّفة.

كوخ صياد عجوز على ما أعتقد.

كانت أعداد السلمون بالآلاف، عائدين من البحر ليضعوا بيضهم على طول النهر كل شتاء، تجتذبهم قوة الطبيعة الخفية، فتدفعهم للتزاوج، ووضع بيضهم، قبل أن يموتوا. سيعود سمك السلمون مرة أخرى في غضون شهر أو شهرين، لكن ستكون أعدادهم قد تقلصت، مثلما تقلص إحساسي بالواقع، وأنا أترنح على حافة حلم.

أدركت الآن لماذا بدا المشهد مألوفًا. لو استبدلت بمنظر الضباب سماء الصيف الزرقاء اللامعة، لصار بإمكاني تخيل منظر «جوني» جالسًا على هذا الرصيف، وقد تدلت قدماه في المياه، بينما تلك المرأة الجذابة ذات البيكيني الأسود تجلس بجانبه، وذراعها تلامس ذراعه. أستطيع أن أرى كوخ الصياد في الخلفية.

لكن لا، لا يمكن أن يكون هذا هو المكان الذي تم التقاط الصورة فيه. هناك العديد من الأنهار في البلد، ومئات البحيرات، والعديد من الأكواخ المتهدمة. كان «جوني» ليتذكر لو أن تلك الصورة كانت قد التُقطت هنا، قريبة جدًّا من الكوخ على نهر «شادو».



الفصل الثامن عشر

كنت أتوقع أن أصل لأجد «جوني» يستعد للخروج للعمل، لكن عندما وصلت للكوخ، وأنا أرتجف تحت ملابسي الخفيفة، كان هو يغني في أثناء استحمامه. كيف يمكنه أن يتصرف بتلك التلقائية وكأن شيئًا لم يحدث؟ ربما لم يكن لديه ما يخفيه، وكنت أنا التي أبالغ، وكان عقلي لا يثق فيه فقط بسبب الحادث وما أصابني من ارتجاج بالرأس.

أشارت الساعة على حائط المطبخ إلى أن 45 دقيقة فقط قد مرت منذ أن غادرت المكان، على الرغم من أنني بطريقة ما شعرت أنني قد غبت أطول من هذا كثيرًا.

تباطأ الوقت في الغابة، لكن داخل الكوخ، تسارعت وتيرة اليوم. شعرت بالهواء يزداد ثقلًا ودفئًا ورطوبة بشكل خانق.

كان «جوني» يأخذ حمامه بمياه ساخنة للغاية، لهذا انبعث البخار من الحمام، حتى غطى نوافذ غرفة المعيشة بطبقة خفيفة من الضباب، بينما ملأت رائحة صابون اللافندر الهواء. كنت قد تركت الصورة على المنضدة في غرفة النوم الثانية، الغرفة التي يستخدمها الآن كمكتب، لكنني لم أجد الصورة على الإطلاق بأي مكان، كنت بحاجة إلى مقارنة الصورة بالمشهد الذي رأيته عند النهر. لكن لم أتمكن من فعلها للأسف.

ذهبت إلى الحمام. تظاهرت بالسعادة وأنا أقول:

- لقد عدت، كيف كان تمرين الركض؟

- كيف كانت تمشيتك أنتِ؟ غبتِ لفترة طويلة اليوم.

- ضللت الطريق، وانتهى بي الأمر في طريق غريب.

- يا لك من فتاة مشاغبة، لماذا لم تأخذي هاتفك معك؟

- لم أعتقد أنني سأحتاج إليه.

- خذي هاتفك دائمًا.

- سأفعل في المرة القادمة.

أطل من وراء ستارة الحمام. كان شعره ممتلئًا بالصابون، والماء يسيل على جسده، ليساوي الشعر الداكن على صدره بالجلد.

- هل تمطر بالخارج؟

- نعم.

نظرت إلى نفسي، وأدركت أنني غارقة في الماء.

- تعالي معي أسفل الدش، بسرعة.

قالها وهو يبتسم لي بطريقته الخبيثة المشاغبة.

- تعالي، فلنقم بها بسرعة.

خلعت ملابسي وانضممت إليه تحت المياه الساخنة المهدِّئة. كان البرد والمطر قد غابا في أعماق عظامي. انحنيت بجسدي نحوه وأغمضت عينيَّ، وشعرت بيديه تداعبان جسدي، فتوقظان أطرافي العصبية. تدريجيًّا، توقفت عن الارتعاش.

- لقد رأيتُكَ.

قلتها وهو يُقبِّل مؤخرة رقبتي.

- همممم.

قالها وهو يقبل كتفي. أكملت:

- أعني أنني تتبعتك.

قَبَّل رقبتي مرة أخرى، وضمني بين يديه.

- لماذا لم تنادِني؟ كنت سأنتظرك.

- لقد تبعتك طوال الطريق إلى ساحة بيت آل «مينكويسكي»، ورأيتك تتجه نحو الباب الخلفي، ثم رأيتها تسمح لك بالدخول.

وهنا سقطت يداه بعيدًا عني.

- حقًّا؟ وماذا كنتِ تفعلين هناك؟

التفتُّ لأواجهه. كان البانيو صغيرًا جدًّا لكلينا. صغيرًا جدًّا وزلقًا. يمكن أن أسقط بسهولة ويرتطم رأسي مرة أخرى!

رمش بعينيه، وشعرت بلونهما يصير داكنًا أكثر من المعتاد، بعد تردد لحظة قال:

- كانت قد طلبت مني المرور، ألقيت نظرة على «كادين» الصغير. كانت هستيرية للغاية بشأن الطفح الجلدي الذي أصابه. كان يعاني بعض الحساسية، سوف يصبح على ما يرام.

- إنها محظوظة لأنك على استعداد للقيام بزيارات منزلية.

هل كان يخبرني الحقيقة؟ أدركت وأنا أنظر في عينيه أنني لا أستطيع قراءة الحقيقة فيهما.

- «سارة»، أنتِ لا تظنين أن... لا يمكن...

قالها وهو يرفع ذقني لأعلى ليجبرني على النظر في عينيه.

- تظنين أنني ذهبت إلى هناك لـــ... لا، أليس كذلك؟

- وكيف أعرف؟ استيقظت في الليل وأنت هناك، والآن تأخذ هذا الطريق الغريب عبر الغابة، كما لو كنت تعيش هنا طيلة حياتك وتعرف الطريق.

أحاطني بذراعيه مجيبًا:

- أنا أذهب للجري في الغابة كل يوم!

ثم سحبني نحوه مكملًا:

- أنا أمارس رياضة الجري هنا من قبل أن ألتقي بكِ. انتهى بي الأمر هناك ذات مرة، أتذكر الطرق. ليس الموضوع مهمًّا. لقد اتصلت بالعيادة وتم تحويل المكالمة إليَّ، وكنت بالخارج بالفعل، فذهبت هناك.

- هذا هو كل شيء؟

- أقسم لكِ إن هذا كل شيء. لماذا لم تأتِي لهناك بدلًا من تخيل كل هذا؟

- وظيفتي هي تخيل الأشياء، فأنا كاتبة.

- وهذا واحد من الأسباب العديدة التي تجعلني أحبك.

- صورتك على الرصيف مع تلك المرأة. هل فعلت شيئًا بها؟

- أي صورة؟ آه، تذكرت. لا لم أفعل بها شيئًا، لماذا؟

- لا يمكنني العثور عليها. أنت لا تتذكرها؟

قال بسرعة:

- لا، لا أتذكرها على الإطلاق.

كان يغسل جسده الآن، ويستعد للخروج من الحمام.

- انتهى بي الأمر عند النهر. هل تم التقاط الصورة هناك، على الرصيف؟

- أريني الصورة مجددًا، سوف أرى.

عندما نظر إلي، كان هناك تعبير حذر يعتلي جبينه المكفهر، بينما اعتلى تعبير جاد وجهه، قلت:

- لقد اختفت الصورة.

- لم أفعل أي شيء بها.

هكذا قال بصوت متوتر، قبل أن يسأل:

- ما سبب كل هذه الأسئلة؟

- كان هناك مبنى في الصورة، كوخ للصيادين. رأيت مبنى مشابهًا اليوم. بدا وكأنه نفس المبنى بالضبط.

- من المحتمل أن يكون كذلك. لست متأكدًا.

- أنت حقًّا لا تتذكر؟

- ما الذي يهم بالأمر لهذا الحد؟ انظري، أنتِ تتعاملين بحساسية زائدة، وأنا أتفهم هذا، لكنني لا أكذب عليكِ.

قلت:

- لا تلقي باللوم في هذا على طفولتي.

- ولكن هذه هي الحقيقة!

خرج من الحمام تاركًا إياي وحدي تحت المياه التي بدأت تبرد.

كانت كلماته مؤلمة، لكنه كان محقًّا. عندما تخلى والدي عن أمي وعني، تخلى عن ماضيه وحياته كلها، وزوجته وابنته؛ استبدل بعائلته عارضة أزياء شابة أصغر من أمي.

قلت لنفسي إنني لا أهتم، لم أمانع أنه يرسل البطاقات والهدايا في المناسبات الخاصة فقط، عندما يتذكر.

انتقل إلى لندن، بعيدًا عنا قدر استطاعته. ما زلت أشعر بالجرح، قريبًا من سطح روحي، وسهل أن ينفتح مرة أخرى.

☆☆☆

الفصل التاسع عشر

«جوني» في علاقة غرامية. هل هذا ما تريدين مني قوله؟

بدا صوت «ناتالي» مشروخًا بعيدًا، كما لو كانت في مكان أبعد من الهند، كأنها على سطح القمر.

- أنتِ تجعلينني أشعر بالبارانويا.

بعد أن قلت هذا شعرت بالدموع تضغط على مؤخرة عيني. علقت «ناتالي»:

- أنتِ مصابة بالبارانويا بالفعل يا عزيزتي، هل تظنين حقًا أنه سيضاجع جارتك الحامل؟
- قال إنه لم يفعل.
- إذن فهو لم يفعل.
- أنتِ على حق، لا بد أن تكوني على حق.

هكذا أجبتها وأنا أتمشى في أرجاء الكوخ، أقوم بترتيب الأشياء القليلة المتناثرة التي جعلت المكان يبدو في حالة من الفوضى؛ الأوراق والأقلام، والأكواب والأطباق، ونسخ لامعة جديدة من آخر عدد من مغامرات الفأرة «معجزة»، والذي وصل صباح ذلك اليوم في صندوق.

في العادة، أكون مسرورة لرؤية كتابي الجديد مطبوعًا، لكنني تلك المرة شعرت بإثارة عابرة لم تلبث أن اختفت.

- «جوني» لن يخدعك، فهو يحبك أكثر من الحياة كلها. أتتذكرين تلك الفتاة التي كانت تذهب معه إلى المدرسة، تلك التي ثملت واقتحمت حفل زفافك؟

قلت:

- أود أن أنساها في الواقع.

- هو لا يكترث لغيرك يا حمقاء، ولطالما كان هكذا، هو يحبك للغاية، لدرجة تثير غيرتي في الواقع.

- ولكن الزوجة دائمًا تكون آخر من يعلم.

- والدتك كانت كذلك، لكن هذا لا يعني أنكِ ستكونين نفس الشيء، ليس كل رجل على الكوكب مثل والدك الذي يتخلى عن كل شيء ليلهث وراء فتاة رخيصة، لا يوجد شيء يخفيه «جوني». لقد اخترتِه لسبب ما.

- لكنني أشعر أن حياتنا هشة يا «ناتالي». لقد فقدنا كل شيء، ولا أستطيع أن أتحمل فقدانه هو الآخر!

- لن تفقديه.

- هل هذه إحدى نبوءاتك؟

- واحدة من أقوى نبوءاتي.

شعرت كما لو أن شخصًا ما كان يمد يده داخل رأسي ويدير عقلي للاتجاه المعاكس.

- أنا أثق به. ولكن ماذا لو لم يكن عليَّ أن أفعل هذا؟

- أنتِ بحاجة إلى التركيز على الشفاء، والوقوف على قدميك مرة أخرى، والعثور على منزل ملائم.

عندما أنهيت المكالمة، أخذت أتمشى هنا وهناك، لن أزور «تيريزا»، سينتهي بي الأمر وأنا أستجوب جارتي البريئة الودود الحامل. «ناتالي» كانت محقة؛ أنا و«جوني» بحاجة إلى البحث عن مكان آخر للعيش فيه.

اتصلت بـ «إيريس» لأخبرها بأنني موافقة على عرضها لرؤية بعض المنازل المعروضة للبيع.



بحلول بعد ظهر يوم الجمعة، كانت قد أرتنا العديد من المنازل الجميلة، لكن ولا واحد منها بدا ملائمًا. كان هناك كوخ أزرق جميل، يعانق شاطئ «مون كوف»، به العديد من النوافذ. تسربت روائح الخارج من خلال الشقوق؛ رائحة المحيط المالح، ورائحة نار قريبة، انبعثت منها الرائحة الكريهة الناتجة عن حرق الأخشاب. في وقت ما كنت لأجد مثل هذه الرائحة مطمْئنة، لأنها تذكرني بنيران المخيمات والمارشميلو المشوي، لكنها الآن لم تبدُ لي رائحة مريحة على الإطلاق.

في دورة المياه، حدقت عبر النافذة العلوية وشاهدت قطيعًا من الغيوم وهي تتزلج فوق رؤوسنا، بينما تجاذب كلٌّ من «إيريس» و«جوني» أطراف الحديث في غرفة النوم، قالت «إيريس»:

- أراد مصمم هذا البيت، والمدعو «ديكسونديل»، أن تواجه جميع نوافذه المياه، وصنع معظم المنزل من الزجاج للسماح بدخول أكبر قدر من الضوء.

- «ديكسونديل» هو من صمم هذا المنزل؟

هتفت «جوني» بإعجاب، ثم أخذا يتناقشان حول المهندسين المعماريين واحدًا تلو الآخر، ثم أرتنا «إيريس» منزلًا من طابقين في منطقة «جرين سبوت»، وقد بُني الطابق السفلي في جانب التل، وكانت غرفُه مظلمة، بينما الدور السفلي رطب قليلًا، تتصاعد منه رائحة العفن. لم يبدُ أن المنزل به أي مميزات باستثناء منظر المركب الذي يتجول عبر بحر «بوجيه».

أي أننا عدنا من حيث بدأنا، سوف يستغرق الأمر وقتًا للعثور على المنزل المناسب.

بدأ «جوني» في الركض على الطرقات متجنبًا الغابة. بدا الأمر كما لو أنه يتبع دروبًا ممهدة معروفة عمدًا لطمأنتي.



بدأت وتيرة نوبات الصداع تقل، لكن الكوابيس لم تتوقف عن زيارتي، وكل ما أمكنني فعله أن أتظاهر بالابتسام في أثناء رعاية «ميا» بعد ظهر يوم الجمعة. بدأ شعرها ينمو مرة أخرى، لكن الندبة البيضاء على جبينها ما زالت تختلس النظر من خلال خصلات شعرها، في طريق عودتي من منزل «هارييت» إلى الكوخ، غنت «ميا» مع أغنية لـ «تايلور سويفت» تصاعدت من الراديو. علقت:

- رائع، هل تفهمين معنى تلك الكلمات حقًّا؟

- إنها على وشك الانفصال عن فتى.

- إنكِ مليئة بالحكمة.

أجبتها وأنا أدير مقود السيارة نحو جادة «شادو بلاف».

- لا، أنا مليئة بـ... وجبة الإفطار!

عندما عاد «جوني» إلى الكوخ في ذلك المساء، كانت «ميا» تجلس على أرضية غرفة المعيشة، تغطيها فتات البسكويت، وشعرها مرفوع لأعلى، بينما يغطي أناملها طلاء الأظافر، وقد أخذت تلعب بهدوء بدمى باربي.

علق «جوني» معطفه في الخزانة الأمامية الصغيرة وسار في اتجاه غرفة المعيشة. كنت أجلس على الأريكة، أتظاهر بالقراءة، لكنني كنت أراقب «ميا»، التي غابت بالكامل في عالم باربي. ظلت شفتاها تتحركان بكلمات صامتة، وقد اشتبكت مع الدمى في محادثة سرية. قلت:

- «ميا»، لقد وصل العم «جوني».

لم ترُد «ميا»، وإنما واصلت اللعب والهمس لنفسها.

- مرحبًا يا «ميا».

هكذا حياها «جوني» وهو يجثو على ركبتيه بجانبها، ويلتقط دمية باربي شقراء ترتدي تنورة وردية.

- مَن هذه؟

- هذه باربي راقصة الباليه.

هكذا أجابت دون أن تنظر نحوه.

- وماذا تريدين أنتِ أن تكوني؟

- أنا أميرة.

- أنتِ بالتأكيد تليقين بالمنصب، تسريحة شعر جميلة بالمناسبة.

نظرت إليه وابتسمت، وظهرت غمازتان على وجنتيها الملائكيتين.

- عندي كذلك دمية باربي «الجنية ذات الأجنحة» في المنزل. ليست في منزل جدتي.

- هممم، فهمت.

قالها «جوني» ثم نظر إليَّ، فهززت رأسي بصمت، لم تنجُ أيٌّ من دُمى «ميا» من الحريق. وضع الدمية جانبًا.

- قد نضطر للحصول على واحدة بدلًا منها.

- لا، لدي واحدة بالفعل. ماما اشترتها لي. ستجلب لي المزيد من دمى الجنيات.

ثم شغلت نفسها بخلع ملابس دمية باربي أخرى كانت قد جلبتها من منزل «هارييت».

- أريد باربي الأميرة وباربي نجمة البوب.

- حقًّا؟

نظر «جوني» إلى كومة الكتب المصورة الموجودة على طاولة القهوة.

- هل أحضرتِ قصص قبل النوم أيضًا؟

- بابا يقرأ لي.

ثم مطت «ميا» شفتيها، وللحظة بدت وكأنها على وشك أن تنفجر بالبكاء. هل تذكرت الحريق؟

- بابا يشتري لي الهدايا. لديَّ باربي مغنية الروك، ولديَّ كتاب تلوين. أحتاج إلى المزيد من أقلام التلوين. لوني المفضل هو لون التفاح الأخضر.

- حسنًا، سنحضر لكِ إذن لون التفاح الأخضر.

قام ودخل المطبخ، فتبعته. كان يتفقد البريد، وقد اهتزت كتفاه بتوتر، سألني:

- كم من الوقت ستبقى هذه المرة؟

- ستقضي الليلة فقط.

هكذا همست، فقال:

- ما زالت تعتقد أنها ستعود إلى المنزل.

- إنها لا تزال في الرابعة.

صمتت «ميا» فجأة في غرفة المعيشة، كما لو كانت تسمعنا. قال:

- ذكرت «إيريس» منزلًا معروضًا للبيع في «كينغستون».

وأتبع جملته بأن فتح الخطابات وألقى البريد غير المهم في سلة المهملات. قلت:

- سآخذ «ميا» للتسوق غدًا، و«جيسي» قادمة معنا.

علق «جوني» بشرود:

- يبدو هذا رائعًا.

- أعرف أن عليك أن تعمل.

- نعم... العمل.

قالها بشرود وكأنه يتحدث من كوكب آخر، عدت إلى غرفة المعيشة، وأنا أحاول قمع ما بداخلي من ضيق، وابتسمت لـ «ميا».

- هل تريدين التأرجح قليلًا على إطار الأرجوحة قبل حلول الظلام؟

قفزت «ميا» على قدميها بطريقة الأطفال المميزة الخالية من الهموم، وقد انطلقت أطرافها في كل الاتجاهات، بينما مال رأسها إلى الجانب وهي تمسك بدمية باربي لاعبة الباليه مقلوبة.

- هل يمكنها المجيء معنا؟

- يمكنها أن تأتي. ولكن ربما تحتاجين إلى كلتا يديك على الأرجوحة.

- حسنًا.

قالتها «ميا» ثم أسقطت دمية باربي على الأرض.

- تقول إنها تريد منزل أحلام باربي، يأتي المنزل ومعه مطبخ به فرن كهربائي والكثير من الأشياء.

- ربما يجب أن تطلبيه من جدتك.

أخذتُ يد «ميا»، وكانت عملية صعبة أن أساعدها في انتعال حذائها. هرب «جوني» إلى غرفة النوم الأخرى وأغلق الباب. تحدثت «ميا» عن الدمى التي كانت لديها في المنزل، فتلَت على مسامعي كل أسمائهم.

في الفناء الخلفي، ساعدتُ «ميا» على الصعود إلى إطار الأرجوحة.

- إنها أرجوحة على شكل حلوى الدونات!

هكذا صاحت وهي تأرجح ساقيها. كنت أدفعها لبضع دقائق فقط عندما أشارت «ميا» نحو الطريق.

- انظري! كلبة!

- ليس لدينا أي كلاب هنا.

لكن ظهرت كلبة أحدهم وهي تقفز حول الفناء، وقد التمع فراؤها الأصفر، وتدلى لسانها اللاهث، واهتز جسدها كله.

- يا لها من كلبة لطيفة!

هتفت «ميا» دون خوف.

- لا بد أنها ملك أحد الجيران. ابقي هنا.

جريت للأمام، فرأيت «إيريس» تسير الهوينى على الطريق بجوار رجل طويل يرتدي ملابس غير رسمية، وكان يحمل مقودًا في يده.

- مرحبًا يا «سارة»!

نادتني «إيريس» وهي تلوح بيدها. هل كان هذا هو صديقها الجديد؟ التقيت بهما عند الرصيف، وقد أخذت الكلبة تدور حولهما. عن قرب، بدا الرجل جذابًا ولطيفًا، نادى كلبته، «بريانا»، بلهجة صارمة، قبل أن يدخِل المقود في طوقها، ربتت «إيريس» على رأس «بريانا»، ثم ابتسمت لي، واحمرت وجنتاها.

- «سارة»، أقدم لكِ «ستيف ويسلر».

ابتسمت وصافحته.

- تشرفت بلقائك.

أومأ «ستيف» برأسه بطريقة روتينية، وشفتاه مشدودتان، كأنهما صدع أفقي في قطعة من الخرسانة. قال لـ «إيريس»:

- يجب أن نعود، لدينا أشياء لنناقشها.

- نعم، لدينا أشياء للمناقشة.

هكذا أجابته «إيريس» قبل أن تغمز لي، ثم توجه كلاهما للمنزل، وقد تبعتهما الكلبة على مسافة قصيرة، عندما عدت إلى الفناء الخلفي، وجدت الإطار يتأرجح برفق دون أن تكون «ميا» داخله. ليس بإمكانها النزول من عليه بهذه السرعة وحدها!

- «ميا»، أين أنتِ؟

دفعتني موجة من الأدرينالين للتحرك. أخذت أناديها بصوت مرتفع، بينما أنا أتفقد وراء كومة الخشب، وخلف السقيفة الصغيرة عند حافة الفناء، لكن كان الباب مغلقًا بقفل. أخذت أنظر على طول حافة الغابة. حسنًا، لا داعي للذعر.

بالنهاية، سمعت صوت أنين منخفض يأتي من أسفل الشرفة الأمامية، حيث اختبأت «ميا»، وقد لفَّت ذراعيها حول ساقيها.

- ها أنتِ ذي!

هتفتُ شاعرة بالارتياح يغسلني من الداخل. قالت:

- أنا خائفة.

- لا شيء سيحدث لكِ. أعدكِ.

لكن هل يمكنني حقًا أن أكون بذلك التأكد؟

- ماذا أفعل لأجعلك تشعرين بالاطمئنان؟

نظرت نحوي.

- كانت ماما تمنحني قبلة حماية.

تجسدت عينا «مونيك» الحزينة في ذهني، لكنني لم أعد أستطيع تصور تفاصيل وجهها. قلت للفتاة:

- هاك قبلة حماية مزدوجة.

وأتبعت جملتي بإرسال قبلة لـ «ميا»، ثم سألتها:

- هل ستخرجين الآن؟

- ربما.

- هممم، ماذا لو أضفت آيس كريم لموضوع القبلة هذا، هل هذا كافٍ لإقناعك؟

أومأت برأسها إيجابًا، وزحفت ببطء خارجة من تحت الشرفة. أمسكت بها جيدًا، وأخذت أمسد على شعرها الناعم بيدي. لم يخرج «جوني» طوال هذا الوقت، كان داخل المكتب، وفي وقت لاحق من ذلك المساء، بينما كنت أقف عند مدخل المكتب، أستمع له وهو يقرأ قصة «أين تقع الأشياء المخيفة» لـ «ميا»، لم أعد متأكدة من استطاعتي تخيله كأب بالمستقبل.

في أي لحظة بالضبط بدأت مشاعري تتغير؟ لطالما تخيلته هكذا، يقوم بالقراءة لطفل. هل تغير، أم أنني أصبحت ببساطة أقل ثقة فيه؟ عندما انتهى من القراءة قالت «ميا»:

- اقرأها لي مرة أخرى.

قال بضجر:

- لقد قرأناها بالفعل مرتين.

- فلنقرأها ثانية.

ما العلاقة بين الأطفال والتكرار؟ تذكرت قراءة نفس كتب سلسلة «جورج الفضولي» في المكتبة مرة بعد أخرى عندما كنت طفلة، باحثة عن الراحة في لون الأغلفة الأصفر المألوف. أتمنى لو استطعت أن أجد تلك الراحة مرة أخرى.

- حسنًا، ولكن هذه هي المرة الأخيرة، ثم سنذهب للنوم.

قال «جوني»، قبل أن يشرع في قراءة القصة، وقد بدا صوته العميق كتهويدة مهدئة للأعصاب. تركزت عينا «ميا» على الرسوم الخيالية التي ملأت الصفحات، وقد مال رأسها ساندًا على كتفه. أغمضت عينيها تدريجيًا.

عندما انتهى من القراءة، لم تتحرك «ميا»، وإنما كانت تغط بهدوء. انتزع «جوني» نفسه ببطء من قبضتها ونهض من السرير. لم أرَ قط شخصًا بالغًا بمثل حجمه يتحرك بكل هذا الهدوء، لدرجة أن «ميا» لم تستيقظ. وضع «جوني» الكتاب على المنضدة، قبل أن يمشي على أطراف أصابعه نحو الباب، ويطفئ النور.

عدنا إلى غرفتنا، وقد تركنا كلا البابين مواربين قليلًا، عانقني «جوني» وربت على شعري.

- حسنًا، ما رأيك؟ هل سأكون أبًا مثاليًا أم لا؟

- كنت رائعًا.

همست مجيبة، فقال:

- لكن ليس مثاليًا؟

- لا أحد مثالي.

☆☆☆

الفصل العشرون

بعد أن غادر «جوني» متوجهًا للعمل يوم السبت، وفي أثناء لعب «ميا» ببعض دمى باربي، وصلت «جيسي» إلى الكوخ وهي تقود الهوندا الخاصة بوالديها. خرجت من باب السائق في ملابس مناسبة تمامًا للطقس؛ معطف أسود واقٍ من المطر، بقلنسوة رمادية، وقبعة صغيرة مقلمة، وأحذية مطر سوداء. بدا وجهها منتفخًا من البكاء، وقد أحاطت عينيها خطوطٌ كثيفة من الكحل. كانت تفوح منها رائحة كولونيا الباتشولي وملمع الشفاه. عانقتها داخل الكوخ وأنا أسألها:

- كيف حالك؟ هل كل شيء بخير؟

انفجرت «جيسي» بالبكاء، فناولتها منديلًا ورقيًا.

- «جيسي»، ماذا هناك؟

- أتمنى لو لم أكن أهتم لأمره. أتمنى لو أستطيع أن أكرهه.

- أنت و«أدريان»؟

مسحت «جيسي» عينيها.

- إنه فاشل.

ربما تنفصل عنه أخيرًا.

- أحيانًا ما يكون الرجال كذلك. آسفة لكِ يا عزيزتي.

اندفعت «ميا» بين ذراعيها.

- «جيسي»!

- «ميا»! نحن ذاهبتان للتسوق!

- رائع، سنشتري أحذية «سندريلا»؟

- نعم، ولكن عليك أن تنتعلي حذاءك المعتاد أولًا، لا يمكنك الذهاب وأنتِ ترتدين الجوارب.

قالتها «جيسي» ثم وضعت «ميا» أرضًا. قالت «ميا»:

- إنه في غرفة النوم.

أومأت «جيسي» برأسها.

- اذهبي وأحضريه إذن.

وأضفت أنا:

- ولا تنسي سترتك.

ركضت «ميا» إلى غرفة النوم، بينما نظرت «جيسي» حولها، تتأمل ما يحيط بها.

- هذا المكان ممل للغاية.

- إنه صغير إلى حد ما.

- لا، أقصد أنه ممل. بوسعي أن أعيش هنا إلى الأبد، ولا أحد سيعرف أين كنت.

- أوه، فهمت. تقصدين ممل بشكل جيد.

نظرت «جيسي» نحوي بطريقة غريبة، وقد جعدت أنفها.

- نعم، ماذا كنت سأقصد غير هذا؟

بعد خمس عشرة دقيقة، كان ثلاثتنا متجهين إلى المدينة في سيارتي الكامري، التي استلمتها من الميكانيكي. تحدثت «ميا» طيلة الطريق، أوقفت سيارتي على طريق «ووترفرونت»، وتجولنا على طول الأرصفة، نتفقد نوافذ المتاجر، بينما «جيسي» تمسك بيد «ميا»، وقد انخرطت الاثنتان في محادثة جادة. بدت «ميا» سعيدة للغاية، وهي تلتهم آيس كريم الفانيليا، بينما سال بعض الآيس كريم اللزج على وجهها، على الرغم من أن الجو كان باردًا للغاية لتناول الآيس كريم، أخذت أفكر أن الاهتمام بالنظافة يأتي مع التقدم في السن غالبًا.

متى كانت آخر مرة استمتعت فيها بنزهة في المدينة كهذه، ألتهم فيها آيس كريم الفستق؟ اختارت «جيسي» نكهة عرق السوس، وهي النكهة التي تَخصَّص فيها محل المثلجات في وسط المدينة. حوَّلَ لون الآيس كريم فمها إلى اللون الأخضر. في كل مرة تخرِج لسانها كانت «ميا» تصرخ:

- يععععع!

ثم تصرخ بسعادة بينما «جيسي» تطاردها على الرصيف. قالت «جيسي»:

- هذا الآيس كريم سيحول فضلاتك إلى اللون الأخضر أيضًا.

- هذا مقدار زائد على الحد من المعلومات.

هكذا علقتُ، وأنا أزيد من سرعتي لألحق بهما عند متجر «ميبل جروف» للبضائع المستعملة. ضغطت «ميا» بيديها وأنفها على النافذة، ثم صاحت مشيرة نحو المتجر:

- أحذية!

- نحن لا نلعق الزجاج.

قالتها «جيسي» ثم أمسكت بيد «ميا» وسحبتها إلى المتجر، بينما أنا قادمة وراءهما.

ذهبت «ميا» مباشرة إلى رفوف الأحذية، مفتونة بلمعانها. أدخلت قدميها في زوجين من أحذية موديل «فيراغامو» سوداء، أكبر من مقاسها بعدة درجات، وأخذت تتبختر بها ذهابًا وإيابًا أمام المرآة الضخمة.

ثم نظرت لنفسها من الجانب لترى كيف تبدو، كانت بائعة المتجر امرأة أنيقة ذات ملامح حساسة، ابتسمت لي.

- ألستِ كاتبة؟

شعرت بالحرارة تغزو وجنتي. أجبتها مبتسمة:

- واحدة من الكثيرات.

- لكنك لديكِ حفل توقيع في متجر الكتب. رأيت الملصق على النافذة. كتب عن فأرة تعمل كمحققة وتتلعثم في الحديث؟

نظر إليّ اثنان من العملاء، فنظرت إلى حذائي، ثم ابتسمت للبائعة مرة أخرى.

- نعم، هي أنا.

- هذا رائع، ابنتي تريد أن تكون كاتبة كذلك.

- لامعة!

هكذا صاحت «ميا»، قادمة لإنقاذي، سحبت «ميا» زوجين من الأحذية الفضية المتلألئة بمقاسها. قلت:

- تبدين كأميرة رائعة.

كانت الفتاة تركض بالفعل للخارج.

- «ميا»!

هتفتُ وأنا أركض وراءها، و«جيسي» تجري بالقرب مني. أصبحت قدما «ميا» قطعتين لامعتين من الفضة في أثناء اندفاعها نحو السيارة.

- «ميا»، تعالي إلى هنا!

صرخت «جيسي»، بينما فتحت «ميا» باب السيارة، وقفزت للمقعد الخلفي.

- «ميا»، لا!

صرختُ فيها، لم يكن للسيارة أقفال أوتوماتيكية. لا بد أن «جيسي» تركت الباب الخلفي مفتوحًا. أغلقت «ميا» الباب على نفسها!

اندفعت أنا و«جيسي» إلى السيارة، وأخذت «جيسي» تضرب على النافذة بيديها.

- افتحي حالًا.

رفعت «ميا» قدمها اليمنى وهزتها.

- أنا سندريلا!

بحثت في حقيبتي عن المفاتيح. أين هي بحق الجحيم؟ قالت «جيسي»:

- افتحي الباب يا حبيبتي.

- لا يمكننا سرقة الأحذية. من الخطر أن تركبي السيارة بمفردك.

هزت «ميا» رأسها وكررت:

- أنا سندريلا.

كورت يدي على النافذة ونظرت لداخل السيارة، لألمح المفاتيح على المقعد الأمامي، كأنها تسخر مني.

- سأضطر للاتصال بمصلِح الأقفال.

تبعت «جيسي» نظراتي.

- أوه لا! انتظري، لدي فكرة.

قالتها ثم فتحت حقيبة يدها، وأخرجت أنبوبًا ذهبيًّا من أحمر الشفاه.

- «ميا»، انظري لما لدي هنا.

وأتبعت جملتها بأن رفعت أحمر الشفاه إلى النافذة، وكانت الأحرف الأولى «م ك» محفورة على الجانب، أي أنه ينتمي لماركة «ماري كاي» الشهيرة.

- أتتذكرين عندما جربنا بعض المكياج معًا؟

نظرت «ميا» نحونا، وقد ركزت عينيها على أحمر الشفاه.

وهنا تردد صدى صوت «مونيك» في ذهني.

- أحتفظ بقلم ذهبي بجوار الهاتف.

☆☆☆

الفصل الحادي والعشرون

أخرجت «جيسي» عبوة بودرة تجميل تنتمي لنفس طاقم أحمر الشفاه، وعليها أيضًا حُفِرت الأحرف الأولى «م ك»، فتحت المرآة التي عكست وميضًا من ضوء الشمس.

- معي أدوات مكياج الأميرات السحرية، وهي لي فقط.

ثم تظاهرَت بوضع بعض أحمر الشفاه بلون الكرز اللامع على شفتيها، وأخذت تنظر بإعجاب لانعكاسها في المرآة. وهنا فتحت «ميا» الباب وخرجت دون أن تفكر في كم أصابتنا بالرعب.

- أريد أن أجرب!

قالتها وهي تمد يدها نحو أحمر الشفاه. ثم مالت بوجهها عابسة، وبدأت شفتاها ترتجفان، بينما ظهرت الدموع في عينيها. قالت في حزن:

- أريد ماما. أين ماما؟ ماما!

على الفور شعرت بغضبي يتبخر. التقطتُ «ميا» وأمسكت بها بإحكام.

- كل شيء على ما يرام عزيزتي. نحن هنا.

استغرق الأمر مني بعض الوقت لتهدئتها، وبعد ذلك، بعد أن أعدنا «ميا» إلى «هارييت»، واجهت «جيسي» وأنا أعود بها إلى الكوخ.

- لقد سرقتِ آل «كيمبال»!

كانت تجلس بمقعد الراكب، وهي تتنفس بخارًا على النافذة في توتر، رسمت دائرة بسبابتها على الزجاج. سألتُ مرة أخرى:

- كيف حصلتِ على أدوات مكياج «مونيك»؟

هزت «جيسي» كتفيها مجيبة:

- كانت تقرضني أشياءها.

ثم أخرجت أحمر الشفاه وعبوة البودرة من جيبها، ووضعتهما على المقعد مستطردة:

- كنت أنوي إعادتهما.

- «جيسي»، أنت تدركين أن...

تغضن وجهها وهي تقول:

- أرجوكِ لا تخبري أحدًا. اعتقدت أنها لن تمانع. كنت ذاهبة إلى نادي تحت سن 21 عامًا. كنت سأعيدهما مباشرة بعد هذا، دائمًا أفعل هذا. لم تكن لتعرف أبدًا أنني أخذتهما. لكنها عادت هي و«تشاد» مبكرًا.

- لا يمكنك الاحتفاظ بأغراضها!

- لمَ لا؟ إنها ميتة الآن.

- «جيسي»!

- حسنًا! هي ميتة. كلاهما مات.

نظرت «جيسي» من النافذة. وقالت بعد دقيقة:

- هل تعتقدين أنها كانت جميلة؟

- مَن؟ «مونيك»؟

- كانت عارضة أزياء ذات يوم، في فرنسا.

- كانت أنيقة.

عاد صوت «مونيك» يتردد داخل رأسي، ومعه استعدت منظر فستانها اللامع، والطريقة التي تمشي بها وهي تنتعل حذاءً بكعب عالٍ، كما لو كانت تنزلق على الغيوم.

- هل تعتقدين أن لهجتها كانت مثيرة؟ مثل Le fromage est sur la table؟

- كنتِ تتعلمين الفرنسية؟

- كل ما قلته هو: الجبن على المنضدة.

- حسنًا. هل أخذتِ أي أشياء أخرى من «مونيك»؟ ماذا لديكِ غير هذين؟

نظرت «جيسي» إلى أصابعها المزينة بخواتم فضية، ثم نظرت إليَّ وقد اتسعت عيناها بقلق.

- هل ستخبرين والديَّ؟
- الأمر متروك لكِ. أنت بحاجة إلى التحدث معهم.
- سيقتلانني!
- قد يشعران بالغضب بالبداية، لكنهما سيتغلبان على هذا.
- لدي بعض الأشياء الأخرى...
- لا يمكنك الاحتفاظ بها!
- أعرف.

أراحت «جيسي» يديها في حجرها.

- هناك شيء واحد؛ شيء شخصي. لم تكن تريد أن يراه أحد.
- ما هو؟
- مذكرات. لم أستطع منع نفسي. لكن لم أفهم أي شيء منها.
- ماذا تقصدين؟ ماذا كان من المفترض أن تفهمي منها؟
- قالت شيئًا ما، لكن ليس عن... ليس عما كنت أريد أن أعرفه.

شعرت بقشعريرة تمر عبر ظهري.

- وماذا كنتِ تريدين أن تعرفي؟

نظرت نحو جادة «شادو بلاف»، متأملة الأشجار التي ألقت بظلال الخريف الطويلة عبر الطريق.

مسحت «جيسي» دموعها.

- ذات مرة كنت أجالس «ميا»، وجربت بعض أدوات مكياج «مونيك» على سبيل المرح فقط، بعد أن ذهبت «ميا» إلى السرير، وارتديت

واحدة من حمالات الصدر السوداء الخاصة بـ «مونيك». كنت أعبث فقط و... عاد فجأة للمنزل.

- من الذي عاد إلى المنزل؟

- «تشاد»!

حدقت «جيسي» عبر الزجاج الأمامي نحو الغابة الكثيفة.

- لم أسمعه يدخل. قال إنه قد نسي شيئًا. وقد بدا كأنه كان يبكي. ربما أراد الابتعاد عن «مونيك». ربما كانا قد تشاجرا وقتها أو ما شابه.

التفتُّ إلى ممر الكوخ وأوقفت السيارة.

- ماذا كان رد فعله على وجودك؟ هل كان غاضبًا؟

- في البداية كان مصدومًا نوعًا ما. بدا كأنه يريد أن يسألني، «ماذا تفعلين في غرفتنا؟» ولكنه بعد ذلك نظر إليَّ بطريقة مختلفة تمامًا.

شعرت برجفة باردة تغزو جسدي.

- أي طريقة؟

تسابقت الدموع نازلة على خدي «جيسي». لم تهتم بمسحها، أكملت حديثها:

- قال إنني أبدو جميلة.

- و...؟

هل كان «تشاد» يستغل تلك الشابة تحت أنوف الجميع؟ لقد بدا ودودًا جدًّا، وطبيعيًّا للغاية... لكن، مع التفكير، فحتى القاتل المتسلل «تيد بندي» قد بدا طبيعيًّا لجيرانه أيضًا، أليس كذلك؟

بدت عينا «جيسي» غائمتين، تمتلئان بالحزن والشوق.

- قال إن رائحتي بدت كرائحة زوجته. كنت أضع عطر «ديور» الخاص بها. كانت الزجاجة جميلة جدًّا...

أخذت نفسًا عميقًا.

- هل...؟ هل فعلتِها معه؟ هل قمتما أنتما الاثنان بـ...؟

- بالبداية، فعل هذا...

وأتبعت «جيسي» عبارتها بأن قربت يدها من خدي.

- لم أتحرك. أغلقت عيني. أردته أن يلمسني...

حاولت الحفاظ على صوتي ثابتًا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- قبّلني.

- حقًّا؟

انحنت «جيسي» للخلف على مسند الرأس.

- كان يجيد التقبيل، ليس كما يفعل «أدريان». «تشاد» كان لطيفًا.

- قبّلك فقط، وهذا كل شيء؟ إذا حدث ما هو أكثر يمكنك أن تخبريني، سأبقيه سرًّا بيني وبينك فقط.

نظرت «جيسي» إليّ بتعبير مليء بالحزن والشوق.

- ثم طلب مني أن أذهب إلى المنزل.

- هذا هو كل شيء؟

- اتصلتُ به عدة مرات بعد ذلك. ثم غيَّر رقم هاتفه الخلوي. وبدأت «مونيك» تنظر إليَّ بطريقة غريبة، لم يفرق أي شيء فعلته، أو أي ملابس ارتديت، أو أي شيء قلته. أردته أن ينظر إليَّ بنفس الطريقة التي ينظر بها إليها. قال لي إنني جميلة، لكنني أعتقد أنني لم أكن جميلة بما فيه الكفاية. لم أكن جميلة مثلها.

كنت أعيش على الجانب الآخر من الشارع من منزل «جيسي»، وأعيش بجوار منزل «تشاد» مباشرة، رأيتهما يأتيان ويذهبان، لكنني لم أفهم حقيقة ما يدور.

- تعرفين أن ما فعله ليس صحيحًا. أنتِ قاصرة و«تشاد» متزوج، لقد استغل سذاجتك وعدم نضجك.

- لكنني أردت ذلك. كان قراري أيضًا.

- أنت فقط تعتقدين ذلك لأنك كنتِ معجبة بـ «تشاد»!

انحنت «جيسي» إلى الأمام، وقد عقدت ذراعيها على بطنها.

- كان أكثر من مجرد إعجاب، لا يزال قلبي يؤلمني، ومعدتي أيضًا، كما لو أنني أكلت شيئًا فاسدًا، مثل تلك المرة التي أُصبت فيها بالأنفلونزا.

- أنا آسفة يا عزيزتي.

ألجمت لساني لأمنع نفسي من النصائح الوعظية المعتادة التي بلا فائدة.

- ماذا عن «أدريان»؟

- لم أخبره، لكنه كان يعلم أن شيئًا ما قد حدث.

- بقيتِ معه طيلة هذا الوقت؟

عندما كنت في مدرستي الثانوية، كنت أقوم أحيانًا، بلا خجل، بالتعرف على أكثر من صديق حميميّ في نفس الوقت. لا يعني ذلك أن «تشاد» كان صديقًا لـ «جيسي»، على حد علمي.

- نعم، ولكن...

- أعرف أن الموضوع صعب. أنت فتاة طيبة، وتستحقين السعادة.

انتزعتُ منديلًا من الصندوق الموجود على لوحة القيادة وناولته لـ «جيسي»، التي أخذت تتمخط قبل أن تجيبني:

- وأنتِ كذلك تستحقينها.

- شكرًا لكِ.

لقد نسيت معنى السعادة منذ فترة فيما يبدو، سألتها بلهجة حاولت إبقاءها هادئة قدر المستطاع:

- هل بدأتِ، احمم، استعارة أغراض «مونيك» بعد تلك المواجهة مع «تشاد»؟

أومأت «جيسي» برأسها.

- كل الرجال كانوا ينظرون إليها، حتى «أدريان»، قال إنها جذابة للغاية.

- أردتِ أن تكوني مثلها. وربما وقتها سيرغب فيكِ «تشاد».

تجاهلت «جيسي» المنديل المجعد المتكوِّم في حجرها ومسحت أنفها بظهر يدها، بينما استمرت الدموع في التدفق.

- كيف تمكنَت من أن تفتن الجميع بتلك الطريقة؟ حتى «أدريان»؟ ما الذي تملكه ولا أملكه أنا؟ أشعر بالسوء لأنني أفكر في هذه الأشياء.

- لستِ بحاجة إلى أن تكوني مثلها أو مثل أي شخص آخر. أنتِ جميلة كما أنتِ.

- باستثناء السرقة، أليس كذلك؟

- أنتِ بحاجة إلى التحدث إلى والديك عن كل شيء بصراحة.

- بلى.

نظرت إلى هاتفي المحمول، فوجدت أن الساعة قد بلغت الرابعة.

- هل ستتمكنين من قيادة سيارتك إلى المنزل؟ بإمكاني توصيلك، ويمكنك استعادة الهوندا الخاصة بك لاحقًا.

انتصبت «جيسي» في مكانها، وأخذت نفسًا عميقًا، كأنما تستجمع شتات أعصابها.

- سيعود والداي إلى المنزل في نحو الساعة السادسة. لذلك لدينا بعض الوقت.

- وقت لفعل ماذا؟

- يجب أن تأتي معي. يجب أن أريكِ شيئًا!



الفصل الثاني والعشرون

أدخلتني «جيسي» إلى عالم غرفتها الغريب، كانت مضاءة بشكل خافت بواسطة شمس الخريف الهادئة، سريرها عبارة عن بحر هائج، أمواجه من الملاءات المجعدة، بينما استلقى جهاز «آي بود» على منضدة بجانب حمالة صدر سوداء من الدانتيل. أين ذهبت «جيسي» الشابة التي عرفتها، التي كانت ترتدي نظارات سميكة ومتحمسة بخصوص مشروعات مادة العلوم؟ الفتاة التي كانت تشرح لي بحماس الطريقة التي تنقلب بها الصور رأسًا على عقب على شبكية عين الإنسان، قبل أن يقوم المخ بقلب الصور ليستوعبها؟ لطالما سحرتها مثل هذه الميكانيكيات الغامضة لعلم وظائف الأعضاء، لدرجة أنها تحدثت عن رغبتها في أن تصبح طبيبة عيون.

لكن عندما بدأ جسدها ينضج، تحولت لترتدي العدسات اللاصقة، حتى إنها في بعض الأحيان تتحمل بعض الرؤية المشوشة في سبيل أن تبدو فاتنة. الغريب أن عينيها بدتا مختفيتين الآن وراء طبقات الماسكارا أكثر مما كان حالها وراء عدسات نظارتها. رفعت «جيسي» حمالة الصدر ووضعتها تحت وسادتها في حركة سريعة، لكنها لم تكن سريعة كفاية لإخفاء دليل على ليلة البارحة الجامحة. التمع رداء فضي ضيق على الكرسي، بينما ارتفع تل من الملابس على منضدة الزينة، بجانب غابة من زجاجات العطر، وأنابيب أحمر الشفاه، وعبوات ظلال العيون، في حين انسكبت كتلة من الحلي الذهبية والخرز على حافة صندوق المجوهرات.

ولكن أمام السرير، على طول الجدار المقابل، تكدست مجموعة من كتب طفولتها المصورة فوق مجموعة طويلة من الأرفف. تعرفت على كتب كاتب

الأطفال الشهير «ثيودور سيوس»، وكتب «سجلات نارنيا»، وثلاثية «سيد الخواتم». قالت الفتاة:

- آسفة على كل هذه الفوضى.

قالتها ثم أسرعت نحو الكرسي لتلتقط الرداء الفضي اللامع لترمي به في الدولاب، نظرتُ حولي بحثًا عن مكان للجلوس فيه. فَرَدَت سطح السرير على عجل، لتفسح لي مكانًا على الغطاء. جلست على المرتبة.

- هل يعرف والداكِ؟

سألتها. جلست «جيسي» أمام مكتبها الذي كان موضوعًا بجوار أرفف كتبها. أدارت ظهرها نحوي.

- هل يعرفون ماذا؟

- أنك نشطة جنسيًا، هذا واضح.

في الواقع، كنت أخمن فقط. بحثت الفتاة في سلسلة مفاتيحها، ترددتْ لحظة قبل أن تنطق:

- أنت تجعلين الأمر يبدو جسديًا للغاية.

- إنه جسدي بطريقة ما.

- الأمر لا يتعلق بالجنس فقط.

- ربما لا يتعلق به بالنسبة إليكِ.

- إنهما لا يعرفان. سوف ينفجران غضبًا لو عرفا بالأمر، وربما يحبسانني بالمنزل.

- لن يفعلا ذلك.

قالت «جيسي» بمرارة:

- أنتِ لا تعرفين والديَّ، ذات مرة عدت للمنزل، وكانت أمي في غرفتي؛ في مكاني الخاص! قالت إنها كانت تجمع الملابس لتغسلها، لكن تلك كانت كذبة كبيرة. كانت تتطفل وتفتش.

- الآباء يفعلون ذلك لأنهم يهتمون. أعرف كيف يبدو ذلك.
- غبي. يبدو غبيًا.
- أنت تستخدمين مانعًا للحمل، أليس كذلك؟
- الأدق بالوصف هو السيطرة. هذه هي أمي؛ مهووسة بالسيطرة على كل شيء!
- مهما كان ما تفعلينه يا «جيسي»، لا تفعليه إلا عن اقتناع. انظري إلى أحلامك، وتصرفي بناءً على إرادتك الحرة.
- إرادتي غير متوافقة مع الحياة هذه الأيام.

قالتها ثم استخدمت مفتاحًا نحاسيًا صغيرًا لفتح الدرج السفلي لمكتبها.

- لا تقولي ذلك. لديك عقل جيد قادر على التفكير.
- لكن يجب أن أتعلم كيف أبدأ في استخدامه، أليس كذلك؟
- أنتِ قاسية للغاية على نفسك، وعلى والديكِ أيضًا، فهما يبذلان قصارى جهدهما.
- عندما أبلغ الثامنة عشرة، أقسم...
- تقسمين على ماذا؟

لم أستطع إخفاء التوتر البادي في صوتي، ففي تلك اللحظة، بدت «جيسي» أصغر من عمرها للغاية.

- لا أعرف، ليس مهمًا... اللعنة!
- «جيسي»!
- أمي تكاد تفقد وعيها إذا نطقت كلمة «اللعنة» أمامها، لكن الناس يقولون ما هو أسوأ بكثير هذه الأيام، مثل...
- كنتِ ستقولين شيئًا بخصوص عيد ميلادك.
- لا أريد حتى كعكة عيد ميلاد أو هدايا أو أي شيء.

قالتها ثم ألقت نظرة خاطفة من النافذة، على منظر ما كان في يوم من الأيام منزل آل «كيمبال».

كانت غرفة «جيسي» في الطابق الأول، تواجه منزل آل «كالاسيس». بينما الغرفة المماثلة لها في منزلنا بالجهة المقابلة من الشارع هي غرفة الضيوف، قلت:

- لا تفعلي شيئًا متسرعًا.
- لم لا؟ الحياة قصيرة. أنتِ لا تعرفين أبدًا متى ستموتين، أليس كذلك؟ يمكن أن يحترق المرء حتى الموت في أثناء نومه.
- منزلك لن يحترق!
- كيف علمتِ بذلك؟ أنتِ لا تعرفين ذلك. لا تعرفين متى يمكن أن ينتهي الأمر بشخص تحبينه من كل قلبك طعامًا للنيران!

تذبذب صوتها بطريقة أثارت توتري، أدركت لحظتها أنه، حتى في خضم اعترافها الباكي بحب «تشاد»، ربما كانت «جيسي» تكذب، وتخبرني بما أريد أن أسمعه. هل توقف «تشاد» عند مرحلة تقبيلها فقط؟ أم أنه ذهب لأبعد من ذلك؟ قد لا تخبرني «جيسي» الحقيقة أبدًا. أدركت أن الناس يحتفظون بطبقات كثيفة من الأسرار، بعضها تلك التي يتم الاحتفاظ بها بالقرب من السطح، راغبين في الكشف عنها، والبعض الآخر مخبأ بعيدًا جدًّا بحيث يتعذر استرجاعها، أو في بعض الأحيان، الاعتراف بها!

فتحت «جيسي» درج مكتبها وأخرجت غنيمتها؛ ثقالة ورق زجاجية، بها ورقة معلَّقة من الداخل، مثل حشرة داخل قطعة من العنبر، وقلم الحبر الذهبي، وزجاجة عينة من عطر «ديور»، وقطعة قماش زرقاء اللون، ودفتر مذكرات ارتسمت على غلافه صور الإوز المهاجر.

جلست بجانبي على السرير، ودفتر المذكرات في حجرها. قالت:

- كنت سأعيده إلى مكانه، لكن آل «كيمبال» عادوا إلى المنزل مبكرًا.
- أين وجدتِ هذا؟

أبعدت «جيسي» شعرها عن عينيها.

- لم تخفِه جيدًا. كان في خزانة ملابسها تحت حمالات الصدر.

- لكنها أخفته هكذا، لم يكن يجدر بك تفتيش أدراجها!

- أعلم، لكنني وجدته. بدا الغلاف جميلًا جدًّا، وفكرت أنني ربما أجدها قد كتبت شيئًا مثل، لا أعرف، ربما شيئًا عن رغبة «تشاد» في الطلاق منها مثلًا.

- اعتقدتِ أنه قد يطلقها ليكون معكِ.

احتفظت بصوتي هادئًا، لقد كنت بتلك السذاجة بالماضي، ربما كنت لا أزال ساذجة لكن بطريقة مختلفة فقط.

- غبية، أليس كذلك؟

نظرت «جيسي» للخارج نحو الأنقاض المتفحمة، وقد احتقنت عيناها وبدت على وشك البكاء.

- أوه، أنتِ لست غبية يا عزيزتي، أنت فقط مراهقة كُسِر قلبها.

لقد مررت بما هي فيه ذات مرة قبلًا، عندما تحطم قلبي لأول مرة.

ارتجفت شفاه «جيسي»، وهمست:

- حسنًا.

- لكن لا يمكنك تفتيش أغراض الآخرين. يجب أن تعطي تلك الأشياء للسلطات.

ما هي السلطات التي قصدتها بالضبط؟ ماذا سيفعل «رايان جرين» بمذكرات خاصة؟

- أو ربما يجب أن تعطيها لأقرب أقربائها.

- لمن؟ «ميا»؟

مسحت «جيسي» أنفها بظهر كمها.

- أكيد ليس «هارييت»، فهي لم تكن تطيق «مونيك».

- يجب أن تعطيه للشرطة.
- لكن ماذا لو أدخلوني الإصلاحية؟ كنت أعرف فتى ذات مرة...
- مهما حدث، فإن الحقيقة هي أفضل سياسة دائمًا.
- ماذا لو رميته مرة أخرى على بقايا منزلهم؟ يمكن للشرطة العثور عليه هناك.
- سيعرفون الحقيقة؛ أنك أخذتِه، لقد مشّطوا بالفعل بقايا المنزل. المذكرات ليست لنا لنحتفظ بها، أو حتى لنقرأها.
- سيقرؤها رجال الشرطة أيضًا. وقد قرأتها بالفعل. إنها ميتة بالفعل، ففيمَ يهم الأمر؟
- «جيسي». الأمر مهم.
- أيًّا كان.

قالتها ثم فتحت المذكرات وأشارت إلى الصفحة الأولى.

- تتحدث عن رجل كانت معه، ولم يكن «تشاد».
- كيف تعرفين ذلك؟ أحيانًا يكتب الناس تخيلات. لا يجب أن تكون دائمًا حقيقة.

بدأت الستائر تصطدم بالنافذة المفتوحة، بينما تثاءبت الرياح مستيقظة في الخارج.

- الكلام يبدو حقيقيًّا جدًّا بالنسبة إليّ. كانت على علاقة حميمية مع شخص اسمه «جولز»!

شهقتُ مصدومة، شعرت بصفحات الكتاب تصبح إسفنجية تبتلع كل شيء، لتمتص حتى الأوكسجين من هواء الغرفة، حتى صرت أتنفس بصعوبة.

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، هل «جولز» هذا في الديار؟
- بلى، كان لديها عشيق، شاب فرنسي. «جولز» هذا اسم فرنسي، أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- شيء من هذا القبيل.

أجبتها بصوت خافت، وضعت «جيسي» المذكرات على ساقي.

- انظري هنا!

على ورقة تشبه الرَّق، كتبت «مونيك» الاسم الذي اعتادت أن تلقب «جوني» به: «جولز»، من فيلم «جولز وجيم» الذي شاهدناه جميعًا معًا. في نهاية الفيلم قامت البطلة الحسناء اللعوب «كاثرين»، المرأة التي أحبها كلا الرجلين، بقيادة سيارتها لتسقط من فوق جسر، بينما «جيم» بالداخل، تاركة «جولز» يتعامل مع ما تخلَّف عن صديقيه من رماد.

☆☆☆

أخبرَت «مونيك» «جوني» أنه يشبه «جولز» هادئ الطباع، بينما «تشاد» أشبه بـ «جيم»، الصاخب.

- ومن ستكون «كاثرين»؟

سألتها، فأجابتني بالفرنسية:

- طبعًا أنا.

☆☆☆

ملأ خط يد «مونيك» المزخرف الأنيق الصفحة، فذكرتني بوقت كان فيه فن الخط فنًّا ذا قيمة.

عزيزي «جولز»...

نحن على وشك الرحيل أخيرًا. قرارنا يملؤني بالأمل ولكن أيضًا بالحزن. رحيلنا يعني توديعك بشكل نهائي. تتخيل «ميا» نفسها أميرة تنتقل إلى قلعة أسطورية. أنا و«جيم» سنحقق أحلامها هذه. أتمنى لو كان بإمكاني أن أؤمن بالقصص الخيالية كما تفعل هي. في بعض الأحيان، عندما أراك، تعود

الذكريات إليَّ؛ تفاصيل، ولحظات. اتفقنا على أننا نتقاسم المتعة الجسدية ولا شيء أكثر. أعرف ما قلته أنا، ولكن بالنسبة إلي، فإن القلوب والأجساد لا يمكن أن تنفصل عن بعضها. لكني بدأت أحب «جيم» بسبب لطفه، وحبه، والكثير من الأشياء الأخرى، قلبي وجسدي صارا له، بعد طول انتظار.

لم يشُك قط في حقيقة ما حدث بيني وبينك، لكن «هارييت» عرفت دائمًا، فأنا أرى الطريقة التي تنظر بها إليَّ. هي تعتقد أنني أم سيئة. إنها لا تفهم عمق حبي لـ «ميا»، والآن لـ «جيم» أيضًا. لكن إن بقينا هنا، بالقرب منك، سيكون الماضي معنا دائمًا.

«جولز»، أتمنى...

إلى اللقاء يا حبيبي.

«مونيك»



الفصل الثالث والعشرون

ركعت على ركبتي لأقلب الحجر الثقيل ذا شكل السلحفاة في الفناء الأمامي لبيت أمي.

تسربت أمطار باردة ثابتة من تحت ياقة معطفي الواقي من المطر، فجعلت شعري يلتصق بقمة رأسي. اصطكت أسناني، وشعرت بالخدر يغزو أصابعي، أتمنى لو يصاب عقلي بالخدر أيضًا!

لم أكن أريد أن أتخيل «جوني» و«مونيك» معًا. لم أكن أريد أن أحزن على المزيد من الخسائر و... أين كان المفتاح اللعين؟!

فتشت وسط التراب الرطب، وقد خالطت دموعي الأمطار. ماذا لو سرقه شخص ما، أو نسيت والدتي أن تترك نسخة بالخارج؟ سأضطر أن أمضي ليلتي في فندق، أو أقود السيارة عائدة كل هذا الطريق إلى الكوخ بعد حلول الظلام.

ماذا لو أن أحد القوارض المختبئة قد التهم المفتاح؟ بطريقة ما بدا لي أن الطبيعة قد استولت على المكان بالفعل، آخر مرة أتيت فيها هنا كانت قبل رحيل والدتي إلى كينيا، ولكن في غضون بضعة أشهر فقط نمت الأعشاب فصارت كثيفة، حتى مع وجود بستاني يهتم بأمر المكان. خنقت الحشائش الضارة الشجيرات، بينما تناثرت إبر وأوراق الصنوبر على الممر الذي يقود إلى الشرفة.

في النهاية وجدت المفتاح مدفونًا في التربة، ملفوفًا داخل كيس بلاستيكي محكم الغلق. لطالما كانت والدتي بارعة في إخفاء الأشياء؛ ألمها، وحزنها، وعدم قدرتها على التغلب على رحيل والدي، لم تتزوج مرة أخرى، لكنها سافرت هنا وهناك.

أصبحتُ الآن غارقة في الماء، لدرجة أنني شعرت أن الرطوبة قد وصلت حتى عظامي. لكن المنزل كان دافئًا من الداخل ورائحته منعشة ونظيفًا بشكل أدهشني، فاحت لمسة من اللافندر في الهواء، فقد كانت والدتي تحب وضع أكياس الأعشاب المجففة في الأدراج. كان الأثاث عمليًّا ولكنه مريح، والديكور عبارة عن متحف من التذكارات التي جمعتها من البلدان التي زارتها.

تركتُ رسالة على هاتف «جوني» المحمول، وبعد ذلك رميت هاتفي عبر الغرفة. لماذا كنت أفضِّل إرسال رسائل نصية له، عوضًا عن الحديث معه مباشرة دومًا؟ لقد تركت له أيضًا ملاحظة عن كوني أعرف بموضوع «مونيك».

سأكون في منزل أمي في بورتلاند في حالة الطوارئ. لكن من فضلك لا تأتِ إلى هنا. أحتاج إلى بعض الوقت بمفردي.

تصاعدت الكثير من الأسئلة في ذهني.

اتضح أن كل ما كنت أؤمن به بخصوص حياتي كان مجرد خدعة اختفت كما يختفي الحمَام في الخدع السحرية، مجرد طبقة من غبار الجنيات اللامع ملقاة أمام عينيَّ لإخفاء الحقيقة.

وقفت داخل غرفة نوم طفولتي، بسقفها المائل ونافذتها البارزة التي تطل على الوادي، شعرت بالمكان مألوفًا ولكن غريبًا في نفس الوقت. كان كلٌّ من خزانة الملابس الخاصة بي والمكتب لا يزالان مكانهما. استبدلت والدتي بسريري الصغير القديم سريرًا آخر أكبر، بينما تمت تعبئة أكثر الأشياء التي أحببتها في طفولتي -حيواناتي المحشوة من القطيفة، وأقلامي المفضلة، وكتب التلوين القديمة، والدمى- ووُضِعت بعيدًا على سبيل التخزين. بقيت مجموعة صغيرة من الكتب على الرفوف؛ مغامرات «نانسي درو»، وحكايات «بياتريكس بوتر»، وعدد قليل من الكتب الجامعية.

لقد شققت طريقي ببطء في مجال الكتابة، بدءًا بكتابة المقالات الأولى لجرائد الحرم الجامعي، ثم كتيبات دعائية للشركات المختلفة، ثم اتجهت لكتابة القصص القصيرة، قبل أن أتجه للروايات. هأنذا الآن قد وطدتُ أقدامي

بالمجال، لكن لم يعد لدي لا حياة ولا زوج ولا منزل. استلقيت على السرير وحدقت إلى السقف المتشقق.

في المدرسة الثانوية، كنت قد ألصقت لوحة جدارية لأشجار الخشب الأحمر هناك، لكن عندما غادرت إلى الكلية، أزالت والدتي اللوحة الجدارية وأعادت طلاء السقف. أغمضت عيني وحاولت أن أسترجع منظر الأشجار، ولكن لم أستطع.

رن هاتفي المحمول مرة أخرى. كان «جوني» قد ترك ست رسائل بالفعل.

كنت أتوق للحديث معه، لسؤاله عن المدة التي قضاها مع «مونيك». منذ متى؟ هل كان يحبها؟ لماذا انفصل عنها؟ هل كانت «ميا» ابنته؟

الكثير من اللحظات الأخرى أصبحت الآن ذات معنى جديد:

لحظة ذهاب «جوني» لمنزل «تيريزا»، وعندما ترك البريد الصوتي يرد على المكالمات، والمحادثات الهامسة، وعدم رده على هاتفه المحمول ليلة الحريق، لكنني لا يمكن أن أقوم باستعادة كل ما هو مثال ممكن على الخيانة الزوجية، وإلا سأدفع نفسي للجنون!

في الوقت الحالي، لبضع ساعات، كنت بحاجة إلى تضميد جراحي.

أخذت حمامًا ساخنًا طويلًا، ثم ارتديت منامة منزلية واسعة، وصنعت كوبًا من شاي البابونج، ثم بكيت!

كنت أبكي وأتوقف عن البكاء في أثناء القيادة خارجة من شبه الجزيرة، وفي دورة المياه، وبينما كنت أتجول في المنزل، أتلمس الأشياء المألوفة، من الصور العائلية المعلقة فوق الرف.

ربما يكون منزلي قد احترق، لكن على الأقل احتفظت أمي ببعض متعلقات طفولتي. لا يزال لدي دليل من الماضي، حتى لو انقلب واقعي بالكامل رأسًا على عقب.

كما أنها تركت دليلًا على استعجالها يوم الرحيل إلى المطار، لأنها لم تعِد الغطاء على أنبوبة معجون الأسنان، بالإضافة لكوب على منضدة المطبخ،

ترسبت فيه بقايا القهوة التي شربتها يومها، كما رقدت صحيفة مطوية غير مقروءة على طاولة الطعام، يعود تاريخها لليوم الذي غادرت فيه كذلك.

في مكتب والدتي، وجدت كومة من ألبومات الصور. ما زالت أمي تُفضل طباعة نسخ ورقية من الصور؛ لم تكن مهتمة بالتكنولوجيا قط. لكنها تخلصت من كل صور أبي، باستثناء واحدة، وجدت صورة له وهو يمسك بي عندما كنت رضيعة سمينة. كان يرتدي سروال سباحة على الشاطئ، وقد برز غليون من فمه، بينما بدأ خط شعره ينحسر بالفعل. كان يبتسم لي في الصورة كما لو كان يحبني. لكنه كان يضاجع امرأة أخرى لما يقرب من عامين، قبل أن يتركني أنا وأمي. لم يحبنا بما يكفي للتخلي عن علاقته!

أغلقت الألبوم بأصابع مرتجفة، وأخرجت آخر مكتوبًا عليه: زفاف «سارة» و«جوني»!

لم يأتِ والدي إلى الزفاف. لكن المصور التقط صورًا تمتلئ بالسعادة؛ وأنا أسير متبخترة عبر الممر بالكنيسة، حيث خرجت من تلك الخيمة المرتجلة التي أعدوها، بما أن الأمطار المتساقطة هطلت في حفل زفافنا في شهر يونيو، وقمنا على عجل بإعداد المأوى في اللحظة الأخيرة، وصورة لرمي باقة الورد، التي انطلقت في الهواء لتمر من فوق قطار السيدات اللاتي مددن أيديهن لالتقاطها، الماكياج الذي جعلني أُصاب بالحكة، بالإضافة لصور لكلٍّ من أصدقائي -وأصدقاء «جوني»- بمفردهم أو في مجموعات صغيرة، يحملون كؤوس الشمبانيا، ويلتهمون الكعك، ويتبادلون الحديث.

في وقت لاحق من المساء، رقصنا. كان «جوني» يمسك يدي بإحكام في كل صورنا معًا تقريبًا، ويحدق إلى عيني. هل كان حبه حقيقيًّا؟ لطالما شعرت أن زواجنا حقيقي بالنسبة إلي. هل يمكنني الوثوق بحدسي؟ ليس مع كل تلك الفجوات، والأسئلة، والأدلة على علاقته الغرامية.

تأملت صورة لنا نحن الاثنين على العشاء، في حفل استقبال الزفاف. لماذا لم ألحظ «مونيك» في الخلفية، على المنضدة المجاورة، في ثوب أخضر كاشف بلا أكمام؟ بدت كما لو كانت اتخذت ذلك الوضع خصيصى لإدراكها لوجود

الكاميرا. أراحت ذقنها على يدها، وقد مالت برأسها قليلًا إلى الجانب. شعرها مصفف بشكل متقن، وقد التمع قرطاها الذهبيان. كانت تضحك على شيء قاله أحدهم خارج الكادر، لكنها كانت تحدق إلى مؤخرة رأس «جوني». هل كان الاثنان على علاقة منذ ذلك الوقت حتى؟ لن يساعدني الاستمرار في تخيل الأسوأ. ما سوف يساعدني فعلًا هو بعض النوم.

ذهبت للسرير مخدَّرة ومرهقة، ورقدت في وضع جنيني، بذراعيٍّ حول ركبتي، وعندما كنت قد قطعت نصف طريقي نحو مملكة النوم، سمعت من يطرق على الباب الأمامي بصوت عالٍ!

جلست منتصبة، وقد شعرت بدقات قلبي غير منتظمة، ورأسي مشوشًا. رن جرس الباب.

كنت أعرف من الطارق.

فكرت في عدم الرد، لكنني لا أستطيع تجنبه إلى الأبد.

☆☆☆

الفصل الرابع والعشرون

لم أستطع منع الانفعال الذي ثار بداخلي بينما أنا أسرع نازلة درجات السلم وأنظر من خلال العين السحرية، فقط للتأكد.

حدق وجه «جوني» المشوه بسبب عدسة العين السحرية إلى وجهي، وعندما فتحت الباب، كان يقف عند الشرفة مثل متشرد عجوز مريب، تكاثفت أنفاسه لتتحول لبخار في الهواء البارد المحيط بنا.

أردت أن أعانقه وأضربه في آنٍ واحد، أن أكون معه وأن أقتله. بالنهاية قلت:

- ماذا تفعل هنا؟ نحن في منتصف الليل.
- قدت سيارتي بأسرع ما يمكنني. كان هناك حادث على طريق «ل5» وهذا ما عطلني.
- أخبرتك ألا تأتي!
- كنتِ تريدينني أن آتي، وإلا لم تكوني لتخبريني أين أنتِ.

قالها ثم مد يده ليلمس خدي برقة، كما لو كنت شيئًا قابلًا للكسر، وتركته يفعل.

- هل يمكنني الدخول؟

لم أستطع أن أغلق الباب في وجهه. عدت إلى الوراء وقد وضعت ذراعي فوق صدري. مر بجواري للداخل، فأغلقت الباب. خلع معطفه وعلقه في الخزانة. كان يعرف مكان كل شيء في هذا المنزل. لقد كان هنا في الكريسماس، وأعياد الميلاد، وعيد الشكر، وكل الأعياد التي تتكرر كل عام. ذهب إلى غرفة المعيشة وجلس على الأريكة، كانت هناك هالات سوداء تحت عينيه.

- لماذا هربتِ مني؟

- لم أهرب.

جلست على الكرسي المقابل له.

- أحاول أن أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا.

- كيف عرفتِ بأمر «مونيك»؟ ماذا تظنين أنك تعرفين؟

أخبرته عن زيارتي لـ «جيبسي» وعن المذكرات. حكيت له كيف قدت السيارة مبتعدة وأنا لا أزال في حالة صدمة.

- لم أخبر «جيبسي» لماذا كنت مستاءة لتلك الدرجة، لن يفهم أي شخص آخر موضوع «جولز» و«جيم». لكن الشرطة ستعرف أن «مونيك» كانت في علاقة غرامية.

- سرقت «جيبسي» مذكرات «مونيك»؟

- هل ستقوم بالتركيز على تلك النقطة فقط حقًّا؟

بدا «جوني» كما لو أن شخصًا ما قد لكمه في بطنه بقوة.

- كنا معًا لفترة قصيرة فقط.

ها هو ذا قد بدأ بالفعل في التفسيرات، بينما أنا لم أسأل أي سؤال.

- هل كنت تتوقع أن يبقى هذا سرًّا إلى الأبد؟ أوه، أعتقد أن هذا كان سيحدث، لولا الحريق. لو لم يكن آل «كيمبال» قد عادا إلى المنزل قبل موعدهما المتوقَّع بعدة أيام ثم ماتا فجأة.

- آسف. لا أعرف ماذا أقول.

- هل كنت تحبها؟

- لا. لم أكن أحبها، ولم أحبها قط.

- لكنك أقمت معها علاقة.

- نعم.

- كم مرة؟

- لا أعلم...

- مرتين؟ ثلاث؟

كنت قد شاهدت أفلامًا بها مواقف مشابهة، حيث تتبع الزوجة ضحية الخيانة زوجها في جميع أنحاء المنزل، تحيطه بحرابها من الأسئلة اليائسة.

- عشر؟

- كانت مجرد علاقة قصيرة وسريعة.

- من الواضح من رسالتها أنها كانت مغرمة بك بشدة.

قال «جوني» وهو ينهض من مكانه ليتمشى بأرجاء الحجرة:

- لا، لم يكن حبًّا، كان هوسًا!

- أنت تلقي باللوم عليها في علاقتكما، بجعلها تبدو غير مستقرة نفسيًّا.

- لا، أنا لا أفعل هذا.

هكذا قال وهو يستدير ليواجهني.

- كانت لحظة ضعف، وهي كانت أمامي وقتها.

- وأين فعلت معها هذا؟ هناك في المنزل؟ في سريرنا؟

جلس مرة أخرى وأمسك بذراع الأريكة.

- كنت أعلم أنكِ ستسأليني هذه الأسئلة. سأجيب عنها جميعًا. قلت لكِ إنني سأفعل. لكن لا يهم أين حدث الموضوع.

- إنه مهم بالنسبة إليَّ.

- حسنًا.

شعرت بالغثيان.

- الصورة التي وجدتها في المنزل، المرأة التي جلست على الرصيف، كانت «مونيك»، أليس كذلك؟

- نعم.

- متى تم التقاط الصورة؟

- قبل أن أقابلك.

هل يمكنني تصديقه؟

- لماذا لم تخبرني؟

- بالنسبة إلي، كان الأمر مؤقتًا. لم أظن أنه سيصبح شيئًا أكثر من ذلك بالنسبة إليها.

- مؤقت؟

استطعت أن أشعر بندمه وحزنه. لكني لم أهتم.

- هل أخبرتها بأنك أحببتها؟

- لم أفعل، مطلقًا، لأنني أحبك أنتِ يا «سارة»!

- كيف من المفترض أن أصدق ذلك؟

- لطالما أخبرتك بالحقيقة دائمًا. لم أقل قط إنني أحببت «مونيك». هي فهمت بالضبط مكانتها بالنسبة إلي، أخبرتها.

- أخبرتها بأنها مجرد نزوة مؤقتة؟

قال ببساطة:

- نعم، لكنني لم أستخدم لفظ «نزوة».

- هل كانت متزوجة بالفعل؟

حاولت أن أحافظ على صوتي هادئًا، لكن صوتي ارتجف من الغضب المكتوم.

- كانت هي و«تشاد» يتواعدان، كانا جادين، ربما كان هو جادًا ولم تكن هي كذلك، لا أعلم.

- كان يملك المنزل المجاور لنا، فكيف...؟

- اشترى «تشاد» منزله في نفس الوقت الذي اشتريت فيه منزلي تقريبًا.

- رجلان عازبان.

قال «جوني»:

- كان هو مطلقًا، بينما أنا هجرتني صديقتي الأخيرة.

بدا صوته بعيدًا.

- ثم خانته «مونيك» بالنهاية. هل رغبت في أن تكون معها؟ تلك المرأة الفرنسية الجميلة التي اشتهاها كل رجل بتلك الجيرة، وأنت لم ترغب فيها؟ استغللتها لممارسة الجنس فقط؟ أهذا هو ما تريد قوله؟

تصلب وجهه.

- لم أستغلها. أنا لا أستغل الناس.

- استغللتني أنا، عندما افترضت أنك لست مضطرًا لإخباري بـالحقيقة.

- لم تحدث الأمور بهذا الشكل، هي وأنا؛ كان الأمر متبادلًا. لقد مارسنا... لم يكن يعني شيئًا، كان عرضيًا.

- بالنسبة إليك كان كذلك. يمكنك ممارسة ذلك دون أن تعني لك شريكتك شيئًا.

وهنا ارتفع صوت الثلاجة التي زأرت بطنين عالٍ، بينما ارتفع صرير لوح خشبي في العلية بينما أرضية المنزل تتمدد.

مرر أصابعه من خلال شعره. بالطبع يمكن أن تكون الممارسة مجرد شيء عرضي، أي رجل لا يستغل مثل تلك الفرصة بالنهاية؟ ما الذي ظننتُ أنني أتمسك به؟ زواج ملائكي بلا مثيل؟ افتراضات قابلة للاحتراق مثل كل شيء مادي في منزلي؟ لمسة يده في زفافنا، تلاوة نذورنا، أم الطريقة التي أدخل بها الخاتم برفق في إصبعي، وأمسك يدي بقبضة محكمة؟

هل كان كل هذا كذبة؟

قال:

- أريدك أنتِ فقط، وهذه ليست كذبة.

شعرت بكلماته ترتد عني.

- لم يعد لدي أي فكرة عما هو كذب وما ليس كذلك.

- «سارة»، لا تفعلي هذا.

- لست الشخص الذي يفعل أي شيء بل أنت. أنت من فعلت. متى انتهى كل شيء بالضبط؟ هل كنت لا تزال تفعل ذلك معها بعد أن التقيت بك؟

نظر إلى كفيه.

- كانت هناك فترة قصيرة من... التداخل.

أظلمت الغرفة من حولي، وطالت ظلال الموجودات، وفجأة شعرت بأن هناك زحامًا من الأثاث، والكثير من الفوضى.

- لكم من الوقت استمر هذا... التداخل؟
- لم أكن متأكدًا بعد منك. كنتِ حذرة جدًّا بالبداية.
- لكم من الوقت استمر؟
- ليس لوقت طويل. لم يحدث شيء بيني وبين «مونيك»، ليس بعد أن عرفت أنني أريد أن أكون معك. أخبرتك بهذا.
- كانت تعيش في المنزل المجاور. هل تظنني حمقاء؟

ولكنني حمقاء فعلًا!

لم أستطع ملاحظة إعجاب «جيسي» بـ «تشاد»، ولا لاحظت صراعات «تشاد» الداخلية، ولا لمحت الإعجاب المتبادل بين «جوني» و«مونيك». مد «جوني» يده نحوي، لكنني حافظت على مسافة بيننا، فسقطت يداه إلى جانبه.

- لقد أحببتِ ذلك المنزل، أخبرتك بأنني أريد الانتقال بعيدًا، تتذكرين؟
- أتذكر. وقد أحببته.

قال وقتها: «دعينا نبني حياة جديدة في منزل جديد».

لكنني أجبته: «فيم حاجتنا إلى الانتقال؟ أنا أحب هذا المنزل. سأضيف لمستي الأنثوية».

- كان كل هذا يحدث تحت أنفي. لماذا لم ألاحظ؟

- أخبرتك. لم يكن مقدرًا لي أنا وهي أن نكون معًا. عندما رأيتك في حَدَث «غطسة الدب القطبي»، وناولتِني منشفتك، وبدأنا تبادل الحديث، شعرت بالانجذاب إليك. أمكننا التحدث عن كل شيء؛ الأدب والأفلام. كنا مرتاحين معًا. كان لديكِ نوع من الجمال الذي جعلني لا أستطيع التوقف عن النظر إليه، جمال من الداخل والخارج.

تعثرت، تلاشى تماسكي قليلًا.

- لو أن كلامك صحيح، لماذا واصلتَ مضاجعة «مونيك» إذن؟

- لا أعرف، لم يدم الموضوع طويلًا، كان هناك شيء مميز فيكِ. دائمًا هناك شيء جديد أكتشفه فيكِ. لم أشعر بنفس الشعور قط نحو «مونيك»، كان مجرد انجذاب عابر، نزوة وقتية.

- ماذا عن «ميا»؟ هل هي...؟

- بعد أن قطعت علاقتي بـ «مونيك»، اكتشفت أنها حامل. سألتها إذا كان الطفل طفلي. فكرت وقتها أنه لو اتضح أن «ميا» هي ابنتي، فسأفعل ما تريده «مونيك»، حتى لو كانت تريدني أن أتزوجها، لأساعدها في تربية الطفلة.

- وماذا قالت؟

- قالت إن الطفلة كانت من «تشاد». أخبرتني بأن التوقيت يجعل من المستحيل أن تكون ابنتي.

- هل طلبت منها إجراء اختبار الأبوة؟

- ولماذا أفعل؟ فكرت وقتها أنها تعرف جسدها بما يكفي، وما دامت تقول إنها ليست ابنتي، إذن فهذه هي الحقيقة، فلماذا أصر؟ على أي حال، جعلتني «مونيك» أعدها بأن أترك «ميا» وشأنها، وأن أتخطى الموضوع. أرادت مني الابتعاد. لكنني وجدتك وقتها معجبة بالمنزل وتريدين البقاء فيه.

بدأ المطر يهطل مرة أخرى بالخارج، مصدرًا صوت ارتطام على السطح، والمناور.

- ربما كان الموضوع مجرد ماضٍ بالنسبة إليك، ولكن بالنسبة إلي، إنه معلومات جديدة. لم تكتب «مونيك» عن كل هذا إلا في الآونة الأخيرة فقط.
- لا بد أن شيئًا ما قد حدث.
- كانت هي و«تشاد» يخططان أخيرًا للانتقال. في مذكراتها، كانت تفكر في علاقتها بك.

اتجهت إلى النافذة، وأسندت يدي إلى عتبتها، فشعرت بملمس الخشب المطلي البارد على أصابعي.

- مهما كان ما حدث بيني وبين «مونيك»، فقد حدث في الماضي. أنا لم أكذب عليكِ، ولم أقم بخيانتك.
- ألا تعتقد أن إغفال ذكر ما حدث خيانة؟

كيف نعرف حقيقة الناس الذين نحبهم؟ الناس الذين نريد أن نثق بهم؟ ولكن إذا كانت علاقته بـ «مونيك» حقًّا من الماضي، ربما إذن...

- لقد جالستُ «ميا»! تناولنا المشروبات مع «مونيك» و«تشاد»، وجلسنا في الفناء الخلفي معًا نتحدث عن الكثير من الأشياء التافهة. لماذا لم تخبرني هي وقتها؟ هل جعلتها تعدك بعدم إخباري؟
- لقد سألتني عنك، تحدثنا بالفعل عن كيفية التعامل مع الموقف، أرادت إخبارك، لكنها لم ترغب في تدمير زواجنا أو زواجها.
- كم هي مضحية! كنت أستحق أن أعرف.

كنتُ «موقفًا يحتاجان إلى التعامل معه»!

- معك حق، تستحقين، لكنني اعتقدت أنه يمكنني الاحتفاظ بالماضي في الماضي. الآن أعلم أن هذا ليس ممكنًا.
- كان يجب أن تعرف هذا من البداية.

- أنا آسف، ماذا تريدين أن أقول أيضًا؟

- لا شيء.

كيف أمضيت الكثير من الليالي السعيدة في سريرنا الزوجي في شارع «سيتكا» وأنا بتلك الغفلة؟ كيف ظننت أن سعادتنا هذه ستدوم إلى الأبد؟

- كنت تتلقى مكالمات هاتفية سرية، هل أنت في علاقة غرامية الآن؟

بدا عليه الشعور بالإهانة.

- ماذا؟ لا! بالطبع لا.

- ليلة الحريق لم تكن في غرفتك، لم أستطع الوصول إليك.

- قلت لكِ لماذا.

- في ضوء ما أعرفه الآن، كيف يمكنني أن أصدق أنك كنت تواسي زميلة؟

- كانت قد فقدت مريضًا!

ثم فتح فمه ليقول المزيد، ثم أغلقه.

- وطبعًا لو اتصلت بتلك الزميلة ستخبرني بأن كل ما فعلته هو أنكما شربتما شيئًا معًا في البار.

- نعم، هذا مجمل ما حدث.

- مجمل ما حدث؟

- هذا هو كل ما حدث يومها يا «سارة». كنت أعرفها... قبلًا.

- كما كنت تعرف «تيريزا»؟

- لم أكن أعرف «تيريزا» قبل أن ننتقل إلى الكوخ.

- ولست على علاقة بها أيضًا؟

- لا، وطفلها ليس طفلي أيضًا.

- لكنك كنت تعرفها... تلك الزميلة، من قبل المؤتمر؟

- كنت أعرفها في كلية الطب. هي متزوجة الآن. لديها أطفال.

- الزواج لا يمثل عقبة لبعض الناس على ما يبدو. يستمرون في فعل ما يريدون.

- لم أضاجعها في سان فرانسيسكو!

- أين فعلتها إذن؟

لم يقل شيئًا، وشد يديه معًا، ونظر إلى أسفل نحوهما.

- في كلية الطب؟

لم يرد.

- لا أستطيع أن أصدق هذا.

- الأمر ليس كما تعتقدين. لقد فقدت مريضًا، واحتسينا مشروبًا معًا، أخذت هي تبكي بينما تحتسي الويسكي، ثم ذهب كل منا في طريقه.

شعرت بأنني مستنفدة، ومرهقة للغاية لطرح المزيد من الأسئلة. هل كان لا يزال «جوني» الذي عرفته؟ «جوني» الذي أحبني؟

- ماذا تريدين مني أكثر من هذا؟

سألني في يأس، ولكنه كان يعرف بالفعل. نهض ببطء وتوجه نحو الباب الأمامي، وتتبعته. قال:

- لا يمكنك البقاء هنا، أليس لديكِ حفل توقيع قريبًا؟ رأيت كتبك في الكوخ.

- سأجد حلًّا.

- والدتك ستعود قريبًا. هل ستبقين هنا معها؟

- لم أفكر بالمستقبل لتلك الدرجة، وورائي بعض الأشياء للتفكير فيها.

لانت تعابير وجهه، وظهرت نظرة توسل في عينيه.

- أنا لا أريد أن أكون بعيدًا عنكِ. لقد كنت مخلصًا لكِ. أشعر بأن هناك طريقة لتخطي كل هذا، كما ولا بد أنك تشعرين. لم أخبرك بأمر

«مونيك» لأنني لم أكن أريد أن أفقدك. هذه هي الحقيقة. لا توجد أي امرأة أخرى. تعالي معي للكوخ من فضلك.

لمس خدي وعيناه تنزفان ألمًا.

- أنا بحاجة إلى أن أكون وحدي لفترة من الوقت للتفكير. هذا كل شيء.

- «سارة»...

- أنا بحاجة إلى بعض الوقت.

هز رأسه، وتدلت كتفاه.

- سأنتقل إلى فندق، عودي إلى الكوخ وابقي هناك. سأعطيك المساحة التي تحتاجين إليها. لكن أريدك أن تعلمي شيئًا، أنا أحبك. لن أستسلم. إذا انتهى هذا الزواج، سيكون لأنك قررت المغادرة.

- لا تُلقِ مسؤولية هذا عليَّ!

- لم أقصد الإشارة للأمر بهذه الطريقة. أعني فقط؛ سيكون هذا قرارك. الكوخ لكِ ما دمتِ أنتِ في حاجة إليه.

قالها ثم استدار مبتعدًا، لكن رائحته الباهتة ظلت عالقة في الهواء لفترة طويلة بعد رحيله.



الفصل الخامس والعشرون

عندما وصلت إلى الكوخ ووجدت الممر الذي أمامه فارغًا، شعرت بأعصابي كلها تسترخي، كان «جوني» قد سحب الستائر لتخفي سماء بيضاء كالجليد، قد رحل عن المكان.

بدا صباحًا رماديًا مقفرًا. صمتت الطيور، كما لو أنها شعرت بالبرودة في روحي. وحتى أوراق الشجيرات الموجودة بالخارج تقلصت كأنما تحتمي من ذلك الجو البارد.

وبداخل الكوخ، ترك «جوني» الغرف خالية من كل أغراضه؛ اختفت مجلاته من فوق طاولة القهوة، واختفى حذاؤه من فوق الممسحة أمام باب المنزل، كما اختفت معاطفه هي الأخرى، فتدلت الخطافات النحاسية على الحائط عارية، باستثناء واحد كنت علقت فيه معطفي الواقي من المطر.

لكن رائحته بقيت؛ مزيج من رائحة الصنوبر لعطر ما بعد الحلاقة الذي يستعمله، ورائحة ذكورية لا يمكن تحديدها، ذكَّرتني بالتوابل والبحر المالح. سمعت أن الروائح تستحضر أعمق الذكريات العاطفية؛ كان هذا صحيحًا. تذكرت الطريقة التي كان يمسك بيدي بها على الشاطئ في «أواهو»، وتذكرت عندما توقف مسرعًا عند موقف على جانب الطريق ليشتري لي كيسًا من فواكه الليتشي. كان يتفهم مزاجي، ويشعر بما أحتاج إليه عندما يمارس الحب معي. ما هو مقياس الزواج الناجح؟ هذه اللحظات من الرعاية والاستمتاع؟ أم الأسرار المحجوبة؟

هل عرفت «جوني» الحقيقي؟ كان يتكون من مزيج من المتناقضات، التي تعرت أكثر تحت الضغط، ومع ذلك كان شارد الذهن، فأغفل التفكير في بعض الأمور، معتقدًا أنها ليست مهمة، فمثلًا، بالماضي، كان دقيقًا في

متابعة الماديات، لكنه كان يرمي جواربه بإهمال من حوله. كان يتأكد من كون حسابات ميزانية المنزل مضبوطة، لكنه بنفس الوقت كان يرمي الفتات على سطح المنضدة.

هل كان لا يزال في «شادو كوف»، أم أنه هرب إلى بلدة أخرى، حيث لا يمكن التعرف عليه بسهولة؟ هنا في مجتمعنا المعزول قد يصادف أشخاصًا يعرفهم، وسيطرحون الكثير من الأسئلة.

هل خلع خاتم الزواج، أم أنه لا يزال يرتديه، ويديره بين أصابعه بين الحين والآخر كما اعتاد؟

كان قد اعتاد أن ينزع أي شيء يشعر بأنه يقيده لحظة وصوله إلى المنزل؛ المحفظة، والمفاتيح، والنقود، والعملات المعدنية، كل تلك الأشياء كان يفرغها من جيوبه.

لكنه هذا الصباح أخذ كل محتويات جيوبه معه.

على منضدة المطبخ، ترك لي مخزونًا من أطعمتي المفضلة؛ خبز «الشَّله» الطري، والتوت الأزرق المزروع دون كيماويات، وحليب الصويا، وقهوة مطحونة. كان يعلم أنني غالبًا ما أنخرط في الكتابة، لدرجة أنني أحيانًا أنسى تناول الطعام. أراد أن يذكرني باهتمامه. ولكن هل يمكن للأمور الجيدة التي يفعلها أن تزن أثقل ضد الأكاذيب التي قام بها؟ أو بشكل أكثر دقة، ضد خطايا إغفال ذكر بعض الأشياء؟

كيف يمكنني التركيز على الكتابة؟ شعرت بحفل توقيعي القادم في مكتبة «شادو كوف» حِملًا ثقيلًا على روحي، كيف يمكنني أن أبتسم وأتظاهر بالاحتفال؟ سمعت صوت «ناتالي» يتردد في ذهني: الحياة بشكل جيد والاستمتاع بها هو أفضل انتقام. يجب أن أجد طريقة للعيش بشكل جيد. أو طريقة للعيش على الأقل.

في غرفة النوم، امتد الغطاء فوق المرتبة ودسَّ نفسه تحت الوسائد. استغرق زوجي -الفوضوي عادة - وقتًا لترتيب السرير.

فجأة، أردت الفوضى التي يتركها من حوله، ورؤية أثر رأسه منطبعًا على وسادته، وملابسه المرمية على الكرسي.

شعرت بغرفة النوم الثانية بأنها غير شخصية دون جهاز الكمبيوتر الخاص به، وأقلامه وكتبه وأكوابه. كان الكرسي مفتوحًا في وضع الاستلقاء، كما لو كان قد نام هناك. ربما لم يستطع تحمل فكرة النوم في السرير دوني. هل نام في الفندق؟ أم أنه اكتفى برمي حقيبته، وتنظيف أسنانه، ثم ذهب للعمل مباشرة؟

هل اشتاق إليَّ؟ كنت أُريده أن يشتاق إليَّ، على الرغم من أن جزءًا أعمق بداخلي لم يكن يريده أن يعاني، على الرغم من الطريقة التي خدعني بها. ماذا سأستفيد من كل تلك المرارة؟

ومع ذلك، فلم أستطع منع الأفكار السيئة من التسلل لعقلي. كم من أمسيات قضيناها مع آل «كيمبال»، نشاهد الأفلام، أو نثرثر على مائدة العشاء! كم من مرة لامَسَت ذراع «جوني» ذراع «مونيك» بطريقة بدت صدفة عفوية! كم من مرة مالت نحوه على مائدة الطعام لوضع طبق من الخضار المطهو بالبخار أمامه، فالتقط أنفه لحظتها نفحة من عطرها، أو لمحت عيناه منحنيات صدرها! كم من مرة وضعا الخطط للقاء! كل لحظة مرت تحمل معنى فاحشًا جديدًا عندما أسترجعها؛ الطريقة التي كانت «مونيك» تلحس بها المصاصة في يوم حار، بينما هي تحدق عبر نظارة شمسية باتجاه فنائنا الخلفي، حيث كان «جوني»، عاري الصدر يغطيه العرق، وهو يحفر في الحديقة.

حاول ألا يترك أي شيء وراءه في الكوخ. انتصب درجه من دولاب الملابس بغرفة النوم فارغًا. لقد أخذ كل ملابسه، باستثناء قميصًا وبنطالًا تركهما على رف منشفة خلف باب دورة المياه.

لأول مرة منذ أن عرفته وجدت نفسي أتفقد جيوبه. لو لم يكن يصر على أخذ ستراته للتنظيف الجاف، لربما فحصت جيوبه من قبل، بحثًا عن بعض الأشياء المنسية، كنوع من البحث البريء. لكني الآن بحثت عن دليل على الخداع، ووجدت الإيصال المطوي، والمكتوب بحبر أزرق باهت، مطبوع عليه

شعار «متجر زهور هاربورسايد» في الأعلى، وكان الإيصال بتكاليف وعاء من زهور الكوبية وتوصيلها، وقد تم طلبها في اليوم السابق لذهابنا أنا و«جوني» لتناول العشاء في منزل «إيريس»، وقد تم الدفع نقدًا!

كنت لا أزال أتأمل الإيصال عندما سمعت صوتًا منخفضًا لمحرك سيارة تجوب الطريق، ثم ظهرت سيارة «أدريان» البويك السوداء وهي تتباطأ أمام الكوخ، ثم ارتفع دوي المحرك. خرجت «جيسي» من جانب الراكب.

مسحتُ ما علق بعينيَّ من دموع سريعًا، وفردت سترتي الصوفية بكف يدي، قبل أن أتجه للباب الأمامي وأفتحه. شعرت بوخزات الهواء الشتوي على بشرتي.

- «جيسي»، ماذا يحدث؟ هل أنتِ بخير؟

صرخت الفتاة في «أدريان»:

- دقيقة واحدة فقط، سأعود خلال دقيقة!

ثم خطت فوق العشب قادمة نحوي، مرتدية ملابس لا تليق بهذا البرد، فقط سترة خفيفة ذات قلنسوة، وبنطال جينز ضيق. انزلق حذاؤها الرياضي عندما وصلت للرصيف، ثم استعادت توازنها وسارت وقد رفعت ذراعيها قليلًا إلى الجانب كأنما تريد الحفاظ على اتزانها، كان كحلها ملطخًا وقد سال على وجهها الذي بدا شديد الشحوب.

- ماذا تفعلين هنا؟ ستلقين حتفك، هل تريدين أن أحضر لكِ سترة ثقيلة؟ تعالي للداخل.

قالت:

- كنت قلقة عليكِ. أمي قالت إنكِ ودكتور «ماكدونالد» ستنفصلان!

- ماذا؟ هذا ليس صحيحًا.

شعرت بالدم ينسحب من وجهي. كيف انتقلت أخبار مشكلاتنا الزوجية بهذه السرعة؟ مَن أخبر «بيدرا»؟

عقدت «جيسي» ذراعيها فوق صدرها ونظرت مرة أخرى نحو السيارة، ثم نظرت نحوي مرة أخرى، وقد ارتسمت الحيرة في عينيها المحتقنتين.

- هل هذا صحيح؟ هل انفصلتما فعلًا؟ هل حدث هذا بسبب المذكرات؟ كان في علاقة غرامية، أليس كذلك؟ كان الدكتور «ماكدونالد» على علاقة حميمية مع السيدة «مونيك».

- حميمية؟ مَن أخبرك مثل ذلك الكلام؟

- خمنت هذا. لا بد أن هذا مؤلم، أنا آسفة.

- «جيسي»!

قالت وهي تحيط خصرها بذراعيها:

- لقد جئت لأخبرك بأنني سأرحل.

نقلت وقفتها من ساق للأخرى محاولة أن تقهر البرد الذي غزا أطرافها، قلت لها:

- إلى أين؟ لم لا تدخلين؟ يمكننا التحدث لبرهة، أنتِ تشعرين بالبرد.

- لا أستطيع. «أدريان» يريد الذهاب الآن. لديه مقابلة عمل في «سيلفرديل».

- لم يعد يعمل في مجال البناء بعد الآن؟

هزت رأسها نفيًا على سبيل الإجابة، وركلت الرصيف بحذائها.

- لقد تم طرده!

- ماذا تفعلين معه؟

لكنني عرفت الجواب. استطعت رؤية الإجابة في كتفيه العريضتين، وفي سذاجة «جيسي». قالت:

- يجب أن أرحل من هنا.

- أين ستذهبين؟

نظرت نحو الكوخ، وقد ارتسم الاشتياق في عينيها، استطردت:

- سنحظى بمكان خاص بنا.

- مَن؟ أنتِ و«أدريان»؟

لا يمكن أن يحدث هذا! لا يمكنها الذهاب معه.

أومأت برأسها نحو السيارة، كان «أدريان» يتحدث في هاتفه المحمول، ويومئ برأسه، نظرت نحوي ثانية.

- كنت أنتظر عيد ميلادي.

- هل يعرف والداكِ بهذا؟

خبط «أدريان» على عجلة القيادة بيده، وهنا أجفلت «جيسي».

- تركت لهما رسالة.

قالتها وهي تنظر نحوي بتحدٍّ.

- فكري فيما تنوين فعله هذا!

- لا حاجة بي إلى التفكير، والداي لا يفهمان شيئًا، يظنانه هو من أشعل الحريق، إنهما مخطئان.

هل كان هو من أشعل الحريق فعلًا؟ تساءلت في سري.

- هل أعدتِ الأشياء التي أخذتِها؟

- أعدكِ أن أعيدها.

خرج «أدريان» من السيارة واقترب منا بمشية بدت شديدة الوثوق واللامبالاة.

شعرت بأننا؛ أنا و«جيسي»، ريشتان في مهب الريح أمامه. همست لها:

- لا تذهبي معه!

قلتها وسحبت ذراعها بقوة، فلم تحاول تحرير نفسها، لكنها بنفس الوقت لم تتحرك مستجيبة لندائي.

- هيا يا «جيسي».

هتف «أدريان» وهو يضع يديه بجيبَي معطفه، أخذ يقترب منا، أكثر من اللازم، كان يرتدي بنطالًا وسترة من الصوف، وقد التمع حذاؤه الأسود، بينما صفف شعره إلى الوراء. تقدم أكثر نحونا، فتصاعدت منه رائحة غسول الفم وعطر ما بعد الحلاقة.

- سنتأخر هكذا.

- لم لا تذهب لمقابلتك وتترك «جيسي» معي؟

قلتها له، فبدا التحفز في عينيه.

- هيا يا «جيسي».

كان منزل آل «مينكويسكي» مغلقًا ومظلمًا، ولم تكن السيارتان هناك في الممر، قلت لـ «جيسي»:

- اتصلي بوالديكِ، حالًا! إنهما يحبانك، اتصلي بهما!

لكنها هزت رأسها نفيًا، ونظرت للأرض.

- لن أعود لهما مرة أخرى.

- تعالي معي.

استحثها «أدريان»، فقلت:

- لن تأتي معك!

انفتح باب منزل «إيريس» الأمامي بتلك اللحظة، قبل أن ينغلق من جديد، ظهرت «إيريس»، التي لم تلبث أن تقدمت نحونا في خطوات سريعة عبر سياج الشجيرات الذي يفصل بين المنزلين، وقد ارتدت سترة ثقيلة ذات قلنسوة، وحذاءً طويل العنق.

نظر «أدريان» نحوي كما لو كنتُ مجرد مطب على الطريق.

- أنتِ تلك الكاتبة.

- أنا أكتب بالفعل.

أجبته وأنا أشعر بدقات قلبي تتسارع داخلي، أضاف مزمجرًا:

- قصص أطفال، أليس كذلك؟

تدخلت «جيسي»:

- بل تكتب ألغازًا مثيرة.

- لكنها من بطولة جرذ أو ما شابه، هل يجدر بي الاتصال بشركة إبادة القوارض؟

علق مازحًا، فقلت:

- من بطولة فأرة في الواقع.

- أوه، فأرة... وهل الكتابة عن تلك القوارض المقززة هي السبب في هجران زوجك لكِ؟ أقصد بسبب كل تلك الجرذان التي تعشش برأسك؟

قالها وهو يتفحصني من أعلى رأسي لأسفل، تصلبت «جيسي».

- توقف يا «أدريان»! لا لزوم لإهانتها هكذا!

- لم لا تذهبين للداخل يا «جيسي»؟ اتركي «أدريان» يرحل.

أخرج إحدى يديه من جيب معطفه، ووجه إصبعه السبابة نحوي:

- أرأيتِ يا «جيسي»؟ ماذا أخبرتك؟ ألم أقل لكِ إن الجميع سيحاولون إيقافنا؟

كانت «إيريس» قد قطعت نصف المسافة نحونا، وأخذت تتحرك سريعًا، تفادت «جيسي» النظر نحوي قائلة:

- لا يمكنني البقاء يا «سارة».

- هيا بنا!

هتف «أدريان» وهو يسحب «جيسي» من ذراعها نحو سيارته.

- سنرحل حالًا!

- توقف! اتركها!

صحت فيه، فكان رده:

- اذهبي للجحيم! دعينا وشأننا.

اقتربت «إيريس» منا، ملوِّحة بهاتفها المحمول بالهواء، وهتفت:

- توقف حالًا!



الفصل السادس والعشرون

- ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟ أنا أتصل بالشرطة!

قالتها «إيريس» عندما وصلت أمامي، فهتفت «جيسي»:

- لا تفعلي!

لكنها ابتعدت عن «أدريان». وهو من جانبه لم يحاول أن يسحبها نحوه مرة أخرى، وإنما ظل ينظر نحو «إيريس» بحذر.

- ماذا تفعل بتلك الشابة؟

وجَّهت «إيريس» سؤالها لـ «أدريان»، لكنه لم يرد، استجدتها «جيسي» وهي تتعلق بذراعي:

- لا تتصلا بأحد، أرجوكما، لا تتصلا بالشرطة، لا حاجة لكما بهذا، فلم أعد قاصرًا.

- لكنك في خطر.

هكذا أجبتها وأنا أنظر نحو «أدريان» بغضب.

- لا، لستُ بخطر، نحن فقط بحاجة إلى تبادل الحديث.

- أي حديث؟ لقد بدا لي كأنه على وشك انتزاع ذراعك من مكانها!

أجابتها «إيريس» وقد رفعت حاجبيها، قال «أدريان»:

- لم أكن أنتزع ذراع أحد! لقد فهمتِ الموضوع خطأ، لم يعد أمامنا إلا عشر دقائق للوصول لمكان المقابلة يا عزيزتي.

- إذن اذهب أنت، لأنها ستبقى هنا.

هكذا أجبته، لكن «جيسي» قالت بصوت مرتجف:

- سأنتقل للحياة معه.

- حقًا؟

انتقلت نظرات «إيريس» بيني وبين «أدريان» و«جيسي».

- عزيزتي، إنه لا يناسبك.

وهنا انفجر «أدريان» في ضحكة قاسية، بينما قالت «جيسي»:

- أنتِ لا تفهمين الموضوع، لا أحد يفهم.

- هي تريد المجيء معي.

هكذا علق «أدريان»، وقد احمرت وجنتاه، باعد يديه عن جسده وقد كوَّر قبضتيه.

قالت «إيريس» بخفوت:

- بوسعها التحدث عن نفسها، لقد ضربكِ بالفعل من قبل، أليس كذلك؟

وهنا شحب وجه «جيسي» وقالت:

- لم يضربني!

- المرة القادمة، سيكون الضرر أكبر، فهل أنتِ واثقة من أنك تريدين الذهاب مع هذا الرجل؟ فكري بخصوص مستقبلك.

- لقد فكرت.

- على أي حال أنا أريد صديقك خارج أملاكي، حالًا!

هكذا قالت «إيريس»، فنظرتُ نحوها، مدهوشة من اللهجة القاسية التي ظهرت في صوتها، لكن «أدريان» تمسك بموقفه.

استطردت «إيريس»:

- حالًا! ابتعد!

تراجع «أدريان» للخلف نحو سيارته.

جذبت «إيريس» ذراع «جيسي» وسحبتها للدرب المحاط بالشجيرات، فتبعتهما.

- ماذا لو كنت لا أرغب في المجيء معك؟

قالتها «جيسي»، لكنها لم تهرع عائدة لـ «أدريان»، قالت «إيريس» وهي تضع يدها على كتف الفتاة:

- صدقيني يا عزيزتي، أنتِ تريدين البقاء مع عائلتك، أنتِ محظوظة لأن لديكِ عائلة تهتم لأمرك من الأصل.

- إنهما مقرفان!

قالتها «جيسي» وهي تتمخط، لكنها ظلت معنا، ركب «أدريان» سيارته وبدأ بتشغيل المحرك، قالت «إيريس»:

- كل المراهقين يكرهون أهلهم، هذا معتاد، لكنك ستدركين كم كنتِ محظوظة بهما لاحقًا.

وغزت لمحة من المرارة صوتها مع عبارتها الأخيرة، أجابت «جيسي»:

- لا، لن أندم!

وأتبعت عبارتها بأن انفجرت بالبكاء، بينما «أدريان» ينطلق بسيارته التي احتكت عجلاتها بالأسفلت، ولم يلبث أن غاب بها أسفل الطريق.

☆☆☆

الفصل السابع والعشرون

انهارت «جيسي» باكية عند الشرفة، فحاولت أنا و«إيريس» مواساتها قدر استطاعتنا، لكنها تكورت حول نفسها، وأخذت تردد كأنها جهاز راديو معطل:

- أحبه، أحبه، أحبه!

لكنني لم أعرف من تقصد، «أدريان»، أم «تشاد»، أم هل تقصد الاثنين؟

قامت «إيريس» بتوصيلها لمنزلها، بينما عدت للكوخ وأنا أرتجف شاعرة بالارتباك، وإيصال محل الورد الخاص بـ «جوني» لا يزال في جيبي، راودني شعور أن هذا الموقف قد لا يكون نهاية «الدراما» الخاصة بـ «جيسي».

في الكوخ، لم أستطع أن أظل ساكنة. الآن بعد أن عرف «أدريان» أين كنت أقيم وحدي، لم أعد أشعر بالأمان!

لكن لماذا؟ لم يقم الفتى بتهديدي أو بتهديد أي شخص آخر. لكنني لا أزال أتذكر منظر عينيه الخاليتين من التعبير وهما ترقبانني.

عندما عادت سيارة «إيريس»، تجاوزت ممر سيارتها وأتت للكوخ. كانت حبيبات الجليد قد بدأت تتساقط من السماء وتغطي الأرض في شكل شظايا صغيرة متلألئة. قالت من مكانها:

- لقد فعلت ما بوسعي.

بدت متماسكة، على الرغم من الطقس البارد.

- هل هي بخير؟

- من يعرف، ربما نعم، وربما لا، حاولت التحدث معها، ولكن ليس هناك الكثير لأفعله، أو ليفعله أي شخص آخر، كنت في عمرها، وكنت وقتها أكثر جموحًا منها.

- هل عادت لمنزلها؟

قالت «إيريس»:

- نعم، في الوقت الحالي على الأقل.

وأتبعت جملتها بأن خلعت قفازاتها ووضعتها على النضد.

- سأعد لنا بعض الشاي، اتفقنا؟

بعد بضع دقائق، جلسنا في ركن الإفطار مع كوبين من الشاي.

- هل تريدين أن نتحدث عن الموضوع؟

سألتها:

- أخبرَك؟

- نوعًا ما، هل سيحدث طلاق؟

- مجرد انفصال في الوقت الحالي.

في الخارج، ذابت حبيبات الجليد متحولة لقطرات من المطر.

- هل كان؟ أعني، قام بـ...؟

- نعم.

أجبتها، فواستني بصوت خافت:

- آسفة للغاية.

- هأنذا وحدي مرة أخرى، أشرب الشاي.

- أنت تحظين ببعض الوقت للتفكير ولتدركي ما يحدث داخل أعماقك، ألم تسمعي القول «المرأة مثل كيس الشاي، لا تعرف أبدًا ما بداخلها حتى تغمسها في الماء الساخن؟».

- هاهاها.

ضحكت، وقد أمسكت الكوب بين يدي، تاركة حرارته تتسرب إلى جسدي. مدت ذراعها نحوي، ووضعت يدها الدافئة على معصمي.

- يا له من أحمق!

- لقد كنا تحت الكثير من الضغط. النيران أحرقت ما هو أكثر من مجرد منزل. لقد أحرقت كل ما أؤمن به. آسفة إذا كنت أبدو درامية أكثر من اللازم، لكني أشعر بهذا، أشعر أنني مشرَّدة. لا تفهميني خطأ. أنا مقدرة لوجودي في هذا الكوخ للغاية، الأمر فقط أن...

- أعرف ما تعنينه.

قالتها ثم نَظرَت عبر النافذة نحو منزل «مينكويسكي».

- أنا أفهم تمامًا الشعور بالتشرد. لقد نشأت في عدة ملاجئ.

- أوه، لم أدرك...

- لم يكن لدي منزل حتى صنعت واحدًا لنفسي. تعلمت أن آخذ زمام الأمور، لا أحد آخر.

قلت:

- لقد أبليتِ بلاءً حسنًا.

- لقد تغلبت على عقباتي. دائمًا ما أفعل.

قالتها ثم أشارت بإصبعين إلى عينيها، ثم مدت إصبعيها إلى الخارج.

- أضع هدفًا نصب عيني، وأحصل عليه. الصبر والمثابرة يؤتيان ثمارهما.

- سلوك جيد. أنا معجبة بك.

تراجعت للخلف في كرسيها، ونظرت إلى يديها، ثم إليَّ.

- ماذا تريدين الآن بعد أن رحل «جوني»؟

صححت لها:

- لم يذهب للأبد.

- الرجل خدعك، وتنوين العودة له بتلك البساطة؟

- لا، ولكن، أعني... قال إنه لم يخُني بعد أن تزوجنا.

شعرت بنفسي أبدو ضعيفة بشكل سخيف، بينما الأدلة في جيبي. قالت «إيريس»:

- أوه، فهمتك.

ثم نهضتْ، ونظرت إلى ساعتها، ثم إليَّ.

- على أي حال، أنتِ مرحب بك للبقاء هنا طالما أردتِ ذلك.

لكنني في لحظة تخيلت هيئة «جوني» وهو يرقِدني على السرير ويقبل شفتي، ورقبتي، و... قلت:

- لست متأكدة من رغبتي بالبقاء هنا، لقد صنعنا الكثير من الذكريات هنا.

بدا عليها التفكير.

- أريد أن أريكِ شيئًا. انتظري هنا.

ثم ذهبت إلى سيارتها وعادت بحقيبتها، أخرجت منها صورًا لمكان يصلح كخلوة كاتب مثالية؛ كوخ من طابقين، مثالي لشخص واحد.

- كان معروضًا في السوق لفترة من الوقت. صحيح أن سعره مبالغ فيه قليلًا ومكانه بعيد، لكن يمكنني التفاوض مع البائع. أنا جيدة في الإقناع.

أظهرت الصور كوخًا مبنيًا من مواد مستدامة من الناحية البيئية، نوافذ ضخمة تطل على المحيط. غرفة برج ذات نوافذ في جميع الجدران. كلٌّ من الجو العام في الصور ومدى ملائمة المكان ليكون معتكف كتابي، لمس جزءًا عميقًا من روحي.

- إنه مذهل، لكن...

- يمكنك استخدام البرج كمعتكف للكتابة...

أشارت إلى صورة ساحرة لغروب الشمس، بينما أشعتها تنعكس على نوافذ البرج. شعرت بشيء من الإثارة يعتريني. علقت:

- ولكنه على بعد ساعتين من هنا.

قالت:

- صحيح، مما يعني أنك ستعيشين في مدينة جديدة بالكامل، وأشياء مختلفة بالكامل تحيط بك. يمكنني تحديد موعد لتريه بالغد قبل أن تستقري على رأي.

نظرت حولي إلى الظلال والأماكن الفارغة التي تحيط بي، لا شيء يبقيني هنا، قلت أخيرًا:

- حسنًا، أود أن أرى المكان.

☆☆☆

في أول ليلة لي في الكوخ وحدي، حلمت بزفافنا، وقد وقفت عند المذبح بانتظار «جوني»، لكن عندما استدرت، كانت «مونيك» تسد الطريق، وكانت ترتدي ثوبها الأخضر الضيق، وتمسك بكأس الشمبانيا الخاصة بها. ثم هتفت بالفرنسية:

- هل «جولز» بخير؟ يا للأسف!

كنت أرتدي فستان زفاف أبيض في الحلم، على الرغم من أنني في الواقع كنت يومها أرتدي فستانًا كريمي اللون، تزينه قطع من الدانتيل الفضي. طلبت أنا و«جوني» من ضيوفنا التبرع للخير بدلًا من تكليف أنفسهم وشراء هدايا لنا، استأجرنا مركز سيتكا الاجتماعي، الذي يقع على قمة تل يطل على المحيط، لكن لم يسر أي شيء كما هو مخطط له يومها!

سقطت كعكة الزفاف كبداية، والشاب الذي كان سيعقد قراننا، والذي كان حديث العهد بحفلات الزفاف، نسي سطوره، وكما لو لم يكن كل هذا كافيًا، فقد أسقط «جوني» الخاتم.

في الحلم، حاولت دفع «مونيك» لتبتعد عن الطريق!

استيقظت لأجد نفسي وحدي، على صوت المطر المتساقط بالخارج.

في وقت لاحق من ذلك الصباح، توجهت شمالًا مع «إيريس» في سيارتها ذات الدفع الرباعي، إلى ذلك المعتكف الكتابي. تجاذبنا أطراف الحديث طوال الطريق عن العقارات، والطقس، والأزواج السابقين. نشأت «إيريس» في دور رعاية في كاليفورنيا، وعندما تحررت منها، انتقلت إلى أقصى الشمال بقدر ما استطاعت الذهاب، قبل أن ينتهي بها الأمر في ألاسكا.

عندما وصلنا أخيرًا إلى الكوخ الذي يشبه البيوت في الحكايات الخرافية، والذي انتصب على أحد التلال المغطاة بالأشجار المطلة على المحيط، شعرت أنني وجدت منزل أحلامي، المنزل الذي مشيت فيه حافية القدمين في أعمق أحلامي، قبل أن ألتقي بـ «جوني».

قبل أن أقع في حبه، تخيلت ملاذًا مماثلًا، بعيدًا عن الحضارة، غارقًا في ضوء الشمس، مليئًا بالأسقف المقببة، والأرضيات الخشبية الصلبة، ومقاعد فاخرة بجوار النافذة، وأرفف الكتب الملتحمة بالحائط. صغير بما يكفي لي فقط.

قلت وأنا أدخل إلى غرفة المعيشة:

- جيد، إنه مفروش، أريكة ريفية، واو، هل سيتم بيع المنزل بالأثاث، أم...؟

ابتسمت «إيريس» مجيبة:

- كل الأثاث متاح لك، هناك ركن للإفطار معاد تشكيله حديثًا، وهناك العديد من الأجهزة الجديدة. المهندس المعماري بذل الكثير من المجهود لاستغلال المساحة المتاحة، مع الأخذ في الحسبان أن المنزل صغير الحجم.

تخيلت «ميا» تلعب في غرفة المعيشة في رداء نومها المرسوم عليه شخصيات أميرات ديزني، ثم تركض إلى المطبخ لتناول الإفطار، وشعرها لا يزال مشعثًا من النوم.

تراقص الضوء فوق أسطح المناضد ذات اللون الأزرق الداكن، لينعكس فوق الزجاج المزخرف. كان اللون الأزرق هو لون «ميا» المفضل. قلت:

- جميل.

لكنني ترددت، بينما استعاد عقلي منظر «شادو كوف»، وتذكرت «جوني».

- توجد غرفتا نوم، ودورتا مياه، وهناك مفاجأة أخرى في هذا المنزل الصغير؛ لن تضطري لانتظار أن تفرغ دورة المياه أبدًا إذا كان لديكِ ضيف.

- كيف عرفتِ أنني أهتم بتلك النقطة؟

سألتها وأنا أستنشق رائحة الخشب الجديد الخفيفة.

- كنتِ تتحدثين عن منزل أحلامك على العشاء يومها، ألا تذكرين؟

رفعت «إيريس» حاجبها الأيسر مجيبة، فسألتها مستغربة:

- هل فعلت؟ لا أتذكر.

- لقد كان تعليقًا سريعًا وسط الحديث، لكنني ماهرة في الاستنتاج من مثل تلك التعليقات السريعة.

أجابتني «إيريس» ضاحكة، ثم أكملت:

- كلنا نريد نفس الأشياء، ألا تظنين؟ مجرد مكان ندعوه بيتنا؟

- هذا المنزل يجعلني أشعر بالتفاؤل مرة أخرى.

- هذا يسعدني.

هتفت «إيريس»، عن قرب، ظهرت خطوط دقيقة بجانب فمها، وآثار من التعب تحت عينيها، لمسات بشرية على وجه خالٍ من العيوب.

- هذا هو ما تحتاجين إليه بالضبط.

- ربما هذا صحيح، سأفكر بالأمر.

أو ربما سنتمكن أنا و«جوني» من حل مشكلاتنا، لكن كيف سنتمكن من فعل هذا؟



الفصل الثامن والعشرون

كمظهر من مظاهر الدعم، دعتني كلٌّ من «أورلا»، و«بيدرا»، و«إيريس» لتناول طعام الغداء في مقهى «شادو». كانت «أورلا» ترتدي سترة سوداء وبنطالًا رماديًا من الصوف، بينما كان قميص «بيدرا» الساتان والجينز الأسودان اللذان ترتديهما يلائمان مقاسها بالضبط، وقد بدت الأزرار كأنما تهدد بأن تنفك في أي لحظة. جلست «بيدرا» على يساري، وقد انبعثت منها رائحة عطر غردينيا قوية، في حين جلست «إيريس» على الجانب الآخر وقد ارتدت قميصًا قطنيًا أخضر اللون وبنطالًا أسود، وأحذية مشي سوداء. ثلاثتهن أعلنَّ ولاءهن لي بالفعل، على الرغم من أنني لم أكن قد قررت بعد هل أسعى للحصول على الطلاق أم لا. سألتني «أورلا»:

- هل أنتِ واثقة بخصوص القيام بهذه الخطوة وكل شيء؟

علقت «إيريس» مبتسمة:

- إنها متأكدة. المنزل مثالي بالنسبة إليكِ. ستقومين بشرائه، أليس كذلك؟

أجبتها:

- لا أزال أفكر بالأمر.

كان «جوني» يتصل للاطمئنان عليَّ. أراد العودة إلى الكوخ، وعليَّ أن أعترف، كنت أحلم به وأفتقده.

قالت «بيدرا» وهي تربت على ذراعي برفق:

- نحن هنا من أجلك، يا للهول، لا يجب على شخص واحد أن يتعامل مع كل هذا الكم من المشكلات في وقت واحد. النيران أولًا، والآن هذا.

قالت «أورلا» وهي تقطع شريحة من سمك السلمون أمامها:

- أتعرفن أنهم قد عثروا على أدلة جديدة؟

- أدلة على ماذا؟

سألت بفضول، فأجابت:

- لا يخبرون أحدًا.

- إذا لم يخبروا أحدًا، فكيف عرفتِ بالأمر؟

سألتها «بيدرا» وهي تحتسي شايها المثلج. قالت «إيريس»:

- إنها لا تعرف.

قالت «أورلا»:

- «لوكاس» يعمل كرجل إطفاء متطوع. «ليني» ليس مهتمًا بالأمر.

- لم تذكري ذلك قط.

شعرت بقشعريرة مفاجئة.

- ماذا عرف عن الموضوع؟

- لا يعرف أي شيء على وجه اليقين.

نظرت «أورلا» إلى كل واحدة منا على الترتيب، وقد ضيقت عينيها وخفضت صوتها إلى حد الهمس بطريقة درامية، مجبِرة الجميع على الانحناء نحوها.

- ربما يكون المُخرِّب قد أشعل النار في المنزل الخطأ!

أسقطت السكين في طبقي بصوت عالٍ.

- ماذا تعنين بالمنزل الخطأ؟

ضحكت «إيريس» معلقة:

- أين سمعتِ ذلك؟

تراجعت «بيدرا» للخلف وقد شحب وجهها سائلة:

- نعم، أين سمعت هذا الكلام؟

قالت «أورلا»:

- من مصدر موثوق به، ربما كان المقصود بالنار منزلًا آخر في مربعنا السكني.

هربت الدماء من وجهي.

- أي منزل؟

أجابت «أورلا»:

- ليس لدي أي فكرة، ربما منزلي.

عبست «إيريس» معلقة:

- لكن كيف يمكن لمشعِل حريق أن يرتكب مثل هذا الخطأ؟

قالت «أورلا»:

- كل بيوتنا تبدو متشابهة.

تدخلت «بيدرا» معلقة وهي تنظر في طبقها:

- أوه، لا أعرف، أشعر كأن كل منزل له شكل مختلف.

قالت «أورلا»:

- لكن في الظلام، يبدون متطابقين. كلهم يبدون نفس الشيء في أثناء الليل.

- ما هو الدليل الذي يمكن أن يكون لديهم؟

تساءلت «إيريس»، فأجابتها «أورلا»:

- أظن هاتفًا محمولًا.

مطت «إيريس» فمها.

- تظنين؟

شعرت في تلك اللحظة بقلبي يخفق بشدة وسط ضلوعي. لماذا لم يذكر «رايان جرين» أي شيء من هذا عندما أتى إلينا؟ ربما لم يكن يعرف بأمره عندما جاء إلى الكوخ؟ قالت «أورلا»:

- يعتقد ابني أنه رأى واحدًا في حقيبة أدلة حملها رجال الشرطة.

سكبت «إيريس» الصلصة على سلطتها معلقة:

- حسنًا، لكن ألا يمكن أن يكون الهاتف ملكًا لـ «تشاد» أو «مونيك»؟

قالت «أورلا»:

- إذن لن يكون ذلك دليلًا.

أصرت «إيريس»:

- بل بالطبع سيكون كذلك، لكن المحققين لن يشاركوا النتائج التي توصلوا إليها مع رجال الإطفاء المتطوعين.

نظرت «أورلا» نحوها باستياء.

- ماذا سيكون على الهاتف المحمول على أي حال؟

سألت، وقد بدأت أشعر بعدم راحة، فقالت «أورلا»:

- عناوين، أو رسائل تدين شخصًا ما. على الجانب الآخر، فالهواتف التي تُستعمل لمرة واحدة لا يمكن تعقبها.

- أي نوع من الرسائل؟ أي عناوين؟

سألتها في إصرار.

- ربما عنوان البيت المستهدَف في المربع السكني؟

قالت «إيريس» وهي تعبث بملعقتها في طبق السلطة الخاص بها:

- كل هذه مجرد تكهنات. لم يجدوا أي هاتف محمول. ولماذا نتحدث عن هذا أصلًا؟

قالت «أورلا»:

- إنهم يحللون الأدلة على الأرجح. يستخدمون مطياف الغاز والكروماتوغرافيا. لقد أجريت بعض البحث عن إشعال النيران من أجل قضية تزوير منذ عامين. يمكنهم تحليل المحفزات الموجودة تحت السجاد أو ألواح الأرضية.

- المحفزات؟

سألت «بيدرا» مستغربة، فأجابت «أورلا»:

- الأشياء التي تسرِّع الحريق، مثل البنزين أو أي شيء يزيد الاشتعال.

لم أعد أشعر بالجوع. بقيت معظم سلطة المكرونة الخاصة بي تفترش طبقي، وقد بدت رائحة الدخان كأنما هي مغروسة بشكل دائم في أنفي. قالت «إيريس»:

- ألا يستخدم كل مَن يتعمد إضرام حريق محفزًا؟ يلقون ببعض البنزين هنا وهناك، أو يقومون بإلقاء زجاجة مولوتوف عبر النافذة؟

- إذا وجدوا آثار الوقود، فسيكون له نوع خاص به من بصمات الأصابع، شيء أشبه بالحمض النووي.

هكذا أجابتها «أورلا» وهي تشير بيدها، قبل أن تكمل:

- في بعض الأحيان يمكنهم تتبعه حتى يصلوا إلى محطة الوقود التي تم شراؤه منها، ويمكنهم البحث من خلال تسجيلات الكاميرات، وربما يتعرفون على من اشترى هذه العلبة بالتحديد من البنزين.

قالت «بيدرا» وهي تهز رأسها بدهشة:

- واو. كم هو مذهل ما يمكنهم فعله هذه الأيام.

علَّقت «إيريس»:

- لكن هذا صعب للغاية في التنفيذ، أليس كذلك؟

أجابتها «أورلا»:

- على الإطلاق، لديهم أساليب معقدة في الطب الشرعي هذه الأيام.

ارتفع حاجبا «إيريس» لأعلى، بينما التَوت شفتاها إلى أسفل.

- إذا كان هذا صحيحًا، فأنا مبهورة. ربما يكون مشعل النيران هو نفس المجرم المختل الذي أشعل حرائق أخرى في جميع أنحاء المدينة.

شعرت بجسدي يتخدر، بينما طبق المكرونة أمامي يصير ضبابيًا غير واضح المعالم، هل كانت «أورلا» على حق؟ هل عثر المحققون على هاتف محمول وسط الأنقاض؟ هل أضرم المخرِّب النار في المنزل الخاطئ؟

أنا بحاجة إلى التحدث مع «رايان جرين» على الفور!

☆☆☆

الفصل التاسع والعشرون

قادني «رايان جرين» إلى مكتب جيد التهوية ومزين بلوحات تذكارية وصور لثلاثة أطفال -صبيَّان صغيران وفتاة مراهقة- لكن دون زوجة. لاحظت لأول مرة عدم وجود خاتم زفاف حول إصبعه. كيف يمكن لرجل وسيم مثله ألا يكون متزوجًا؟

على الفور فكر عقلي في قائمة من الأسباب: إما أنه خان زوجته، أو هي مَن خانته، أو أنه كان باردًا عاطفيًا، أو كانت هي كذلك. أو ربما كان مثليًا... لا، على الأرجح لا.

كبحت جماح مخيلتي وركزت على خزانة مكدسة بالأوراق في الأعلى.

- كيف يمكنني مساعدتك؟

سألني من مكانه خلف مكتبه. بدا منتعشًا كأنه قد استحم وحلق لحيته للتو. جلست أمامه.

- سيد «جرين».

- لا داعي للرسميات، نادِني باسم «رايان».

- سأتطرق للموضوع مباشرة، هناك شائعة تدور حول التحقيق.

قال وهو يتراجع إلى الخلف:

- هذا لا يفاجئني.

- هل كان منزلنا هو المقصود يومها؟ أم منزل آخر في منطقتنا؟

لم يجفل أو يظهر عليه أي تعبير، ولم يتغير تنفسه المنتظم. وضع يديه على مكتبه.

- ما الذي يجعلك تقولين هذا؟

- أجب عن سؤالي من فضلك!

شعرت بالوقت يتباطأ من حولنا، بينما تحلقت جزيئات الغبار في هواء الغرفة.

- مَن قال هذا؟

- هل هذا يهم؟ المهم هل هذا صحيح أم لا؟

قال وهو ينقر بأصابعه على طاولة مكتب.

- التحقيق جارٍ.

- أنت لا تنكر الشائعة.

سكت للحظة، ثم قال:

- هل تصدقين أن زوجك كان حيث قال في ليلة الحريق؟

شعرت بسؤاله يصفعني على وجهي. نظرت إلى الصورة الكبيرة المعلقة على الجدار، والتي تُظهِر أبناءه المبتسمين الذين لوحتهم أشعة الشمس، وشعرت بعقلي يتجمد.

- بالطبع أصدقه. لماذا لا أفعل؟

لكنني في الواقع لم أكن متأكدة على الإطلاق. هز «رايان» كتفيه، غير منزعج مما بدا عليَّ من عدم ارتياح.

- كنت فقط أتساءل.

- لا، لم يكن مجرد سؤال، أنت تشك أن له علاقة بالحريق!

- نحن نحاول اتباع كل خيط ممكن.

- وتظن أن زوجي أحد هذه الخيوط؟ ألهذا السبب لا يمكنك إخباري ماذا يحدث وعما إذا كنتَ قد وجدتَ هاتفًا محمولًا وسط الأنقاض أم لا؟

- هاتف محمول؟ هل هذا جزء من الإشاعة؟

- نعم، أنك وجدت هاتفًا محمولًا كدليل.

- لا يمكنني تأكيد ذلك.

- لكنك لا تنكر أنه قد يكون لديك دليل يشير إلى أن منفذ الحرق كان يحاول استهداف منزل آخر في مربعنا السكني، ومن خط استجوابك لي الآن، أظنك تعتقد أن زوجي ربما يكون متورطًا، هل جُنِنت؟

قال وهو يرسم ابتسامة مغتصبة على شفتيه:

- بالفعل لقد تم اتهامي بالجنون من قبل.

- كيف يمكن لأي شخص أن يخطئ في منزل آل «كيمبال» بمنزل آخر في الشارع؟ صحيح أن المنازل متطابقة، لكن هناك اختلافات تميز كل منزل.

- مضرمو الحرائق يُخطِئون أحيانًا. حدث هذا مؤخرًا في شيكاغو، ومرة أخرى في ويلز. أحدهما كان حريقًا انتقاميًا، أُلقيت قنبلة من سيارة على المنزل الخطأ. ومرة أخرى في مدينة «بيند» بأوريغون. اعتقدَ فتى أنه كان يضرم النار في منزل صديقته السابقة، لكنه استهدف منزل جيرانها العجائز عن طريق الخطأ، تخيلي أمامك منزلان متطابقان، تحيط بكليهما مجموعة كبيرة من أشجار الأرز، والمنزلان يحترقان بنفس الليلة. املئي أنتِ الفراغات. فكري بالموضوع قليلًا.

- فكرت فيه بما يكفي، وما أظنه هو أن هناك من أضرم النيران بمنزل آل «كيمبال» لأي سببٍ كان، والنتيجة هي تلك المأساة التي حدثت لنا ولهم.

لكن هناك ذكرى ما أزعجتني. ذات مرة، بعد وقت قصير من زواجنا أنا و«جوني»، كنت على وشك الدخول إلى ممر سيارات منزل آل «كيمبال» في وقت متأخر من الليل، ولكنني استدركت خطئي في اللحظة الأخيرة. بعد ذلك الموقف، وضع «جوني» مرآة عاكسة في نهاية الممر لتحديد منزلنا من منزلهم. لكن لم يكن أحد المخرِّبين الغرباء ليعرف مثل تلك المعلومة!

- لماذا قد يرغب أي شخص في أن يؤذي شخصًا آخر في منطقتنا؟ كلنا أناس طيبون. ليس لدى أي منا أعداء.

- يبدو لي أن «فيليكس كالاسيس» يفكر بطريقة أخرى.

- ماذا قال؟
- فقط أن هناك شخصًا مريب المظهر قد مر في شارعكم تلك الليلة. لم أستطع استخلاص أي شيء آخر منه. هل لمحتِ وجود أي شخص مريب يومها؟

قلت بآلية:

- لا.
- أنتِ مؤلفة. هل تلقيتِ أي بريد من معجب مختل؟
- لا، على الإطلاق.
- ماذا عن زوجك؟ ألديه موظف أو مريض ساخط عليه؟
- ليس على حد علمي.
- كيف حال زواجك؟ هل أنتِ مقيمة حاليًا مع زوجِك؟

شعرت بكرة صغيرة من الغضب تتصاعد بداخلي.

- ما علاقة هذا بالموضوع؟

شعرت بالهواء ثقيلًا مقبضًا من حولي.

- سيدتي، إذا لم أطرح كل الأسئلة الممكنة، إذن فأنا لا أقوم بعملي كما يجب.

نهضت بساقين مرتعشتين.

- أنت تسأل كل الأسئلة الخاطئة.

غادرت بسرعة، وجلست في السيارة، وأخذت عدة أنفاس عميقة، قبل أن أقود السيارة مبتعدة.



الفصل الثلاثون

في شارع «سيتكا»، أوقفت سيارتي عند الرصيف وحاولت تهدئة أعصابي.

كان طاقم التنظيف قد نظّف بقايا المنزلين المحترقين، اللذين بديا الآن مهجورَين بالكامل. رقدت عربة يد صدئة على جانبها على العشب الأمامي الخاص ببيت آل «كالاسيس»، وقد تساقطت منها الزهور. بالبيت المجاور، وقفت شاحنة ضخمة تابعة لشركة «ماي فلاور» في الممر.

حمل زوجان شابان باديا القلق بعض الصناديق داخل المنزل، بينما أخذ ولدان يلعبان في الفناء الأمامي. اختفت لافتة «للبيع» من المكان، واستُبدِلت بها دراجة أطفال، بينما تناثرت الألعاب هنا وهناك فوق العشب.

ترجلت من السيارة وصعدت لأطرق على باب بيت آل «كالاسيس» الأمامي، وبعد لحظات ظهرت «مود» في ملابس منزلية.

- «سارة»، لكم تسرني رؤيتك. تفضلي للداخل. سمعت عما دار بينك وبين «جوني».
- نحن منفصلان مؤقتًا فقط.

كنت قد اتصلت به وأنا على الطريق، لأسأله عن المرأة التي طاردته. قال إن الموضوع كان بالماضي وانتهى، وقال إنه يفتقدني، وإنه قادم في حفل توقيع كتابي.

أغلقت الخط وقد شعرت بالاضطراب. المشكلة أنني أفتقده أيضًا.

- أتمنى أن تنجحا في تسوية الأمور بينكما.

هكذا واستني «مود» بلطف وهي تقودني للداخل وتغلق الباب. تصاعدت رائحة معطر الجو برائحة الأزهار، ممزوجة برائحة مكتومة. اجتاحتني موجة

من «النوستالجيا». تصميم المنزل بدا مألوفًا؛ السلالم الصاعدة لأعلى من الردهة، والبهو الذي يقود إلى غرفة المعيشة. لكن «مود» و«فيليكس» اختارا أثاثًا مبهرجًا ينتمي لطراز «آرت ديكو»، وقد تم طلاء الجدران بظلال قوطية من القرمزي والأزرق.

صرخ صبي في الخارج، وأجفلت «مود».

- هؤلاء الأطفال يقودونني للجنون. كان لدينا أصدقاء أرادوا شراء هذا المنزل، لكن... لا بد وأن هناك من قدم لهم عرضًا أفضل.

- هذا يحدث كثيرًا.

لم تذكر «إيريس» أنها تلقت أي عروض منافسة للمنزل الموجود عند الزاوية. تصاعدت أصوات التلفزيون من الطابق الثاني. قلت:

- أتساءل عما إذا كان بإمكاني التحدث إلى «فيليكس». لقد حاول إخباري بشيء ما ذلك اليوم لكنه لم يتكلم.

قالت «مود»:

- يمكنك المحاولة، أحيانًا يتذكر الأشياء، لكن دون معرفة متى حدثت. ربما حدثت الأسبوع الفائت أو العام الماضي. سيقدم لكِ مزيجًا من المعلومات، حقيقية أو متخيلة، لا أستطيع التحديد.

- أود أن أجرب حظي.

- إنه في الطابق العلوي، اتبعيني.

قادتني «مود» في الطابق العلوي إلى غرفة نوم خلفية غارقة في اللون الفيروزي، حيث رقد «فيليكس» ضعيفًا على السرير، متكئًا على العديد من الوسادات، يشاهد برنامجًا عن الحياة البرية على شاشة تلفزيون مسطحة عُلقت على الحائط المواجه له. قالت «مود» وهي ترفع صوتها:

- «فيليكس»، لديك زائرة.

خفَّض صوت التلفزيون ونظر إليَّ وابتسم.

- فتاتي العزيزة.

ربت بكف يده على السرير بجانبه.

- تعالي واجلسي بجواري.

تنفست الصعداء. لقد تمكن من التعرف عليَّ. جلست بجانبه على المرتبة الناعمة. كانت الأغطية مكدسة من حوله، وقد تناثر بعض الفتات على وسادته وعلى وجنتيه. وضعت يدي على يده.

- قلتَ لي أن احذري. هل تتذكر ذلك؟

نظر إلى طائر مالك الحزين وهو يحلق عبر شاشة التلفزيون.

- احذري؟

- ليلة الحريق، ماذا رأيت؟ هل كنت تنظر من خلال منظارك المقرب؟

حدق إلى الفضاء، بينما وقفت «مود» عند المدخل. رن جرس الهاتف، فاندفعت نازلة درجات السلم.

أمسكتُ بيديه الرقيقتين الباردتين بين يديَّ وأنا أقول:

- «فيليكس»، أحتاجك أن تتحدث معي. قل لي ماذا رأيت ليلة الحريق!

بدا الانتباه في عينيه قليلًا.

- كنت أعرف دائمًا أن تلك المرأة ستتسبب في مشكلة.

- أي امرأة؟ «مونيك»؟

- كان يتحدث معها ويتجادل.

- مع مَن؟ مَن تلك التي كان يجادلها؟

وهنا سحب يده، وأخذ يشد في خصلة شاردة من الشعر الرمادي تطل من فوق قمة رأسه. كان ينظر من النافذة للخارج. نحو ماذا؟ ذهبت إلى النافذة. من هنا كان بإمكاني رؤية منزل آل «راميريز»، خصوصًا غرفة «جيسي» في الطابق السفلي، من الزاوية. أمكنني تمييز الخطوط العريضة لمنضدة الزينة. قلت:

- لقد رأيت «جيسي»، «جيسي» و«أدريان»، ربما؟

نظر «فيليكس» إليَّ، وهو لا يزال يبدو غير فاهم. تمتم:

- مشكلات، لا شيء يأتي من ورائها غير المشكلات.

كنت أرغب في الوصول إلى دماغه وفتحه وإيجاد الحقيقة.

- هل رأيت «جيسي»؟

ردد «فيليكس» كأنه صدى صوتي:

- «جيسي».

ارتفع صوت خطوات على السلم، ابتعدت عن النافذة بينما عادت «مود» إلى الغرفة.

- آسفة بشأن ذلك. كيف تجري الأمور؟

نقلت «مود» نظراتها بيني وبين «فيليكس».

- هل وصلتِ لما كنت تريدينه؟

- للأسف لا، من الأفضل أن أذهب.

قلتها ثم توجهت نحو الباب.

- أخشى أن «فيليكس» لم يستطع إخباري بأي شيء.

☆☆☆

الفصل الحادي والثلاثون

لم يرد أحد على جرس الباب في منزل آل «راميريز»، الدرب أمام المنزل كان فارغًا، لكنني شعرت بوجود من يراقبني. توجهت إلى غرفة «جيسي». كانت الطحالب المتكونة أسفل النافذة مخدوشة ومسطحة.

من الممكن أن تكون قد تسللت إلى الخارج وسقطت على الأرض وزحفت على طول جانب المنزل حتى وصلت إلى الطريق. وربما رآها «فيليكس كالاسيس» في أثناء فترات الأرق الخاصة به والتي يلتصق فيها بمنظاره للرؤية الليلية، وربما راقبها وهي تفعل شيئًا ما.

تحولت أفكاري لجياد جامحة تجري هنا وهناك داخل عقلي في اتجاهات مجنونة. هل أضرمت «جيسي» النارَ في منزل آل «كيمبال»؟ هل كانت تغار من «مونيك»؟ هل كانت تتوقع بطريقة ما أن ينجو «تشاد» ويبقى على قيد الحياة؟

- ماذا تفعلين؟

ارتفع صوت قريب يسألني، التفت لأرى «جيسي» تقترب مني عبر العشب.

- كنت أبحث عنك.

أجبتها، فسألتني متصلبة:

- لماذا؟

بدا على «جيسي» الحذر، وبدت مرهقة، وقد سالت الماسكارا تحت عينيها.

- أنا منهكة للغاية. كل شيء انتهى.

- أنا سعيدة لأنك في المنزل.

كانت ترتدي أقراطًا كبيرة دائرية، نفس الأقراط التي كانت ترتديها ليلة الحريق. في تلك اللحظة، أدركت ما كان يزعجني بخصوصها.

- لقد كنتِ مستيقظة بالفعل عندما بدأ الحريق. كنت ترتدين ثيابك عندما أتيتِ.

- حسنًا، وماذا في ذلك؟

تراجعت «جيسي» إلى الوراء، وقد شعرت بجدار غير مرئي يرتفع حولها.

- لقد ارتديتِ ملابسك يومها بسرعة كبيرة. من الصعب ارتداء الجينز الضيق، أليس كذلك؟ عليك أن تستلقي على السرير، وتحبسي أنفاسك، و...

- هل تستجوبينني؟

- هل تسللتِ من نافذتك تلك الليلة؟

انحنت «جيسي» على أحد فخذيها، ونظرت إلى حذائها القماشي الأبيض. كان بالفردة اليسرى من الحذاء قَطع صغير بالقرب من موضع إصبع القدم.

- لقد سألوني بالفعل آلاف الأسئلة في ذلك التحقيق اللعين الذي لم يفد بشيء!

- وماذا يفترض بهم أن يفعلوا غير أن يسألوا؟

هزت «جيسي» كتفيها ثم نظرت نحوي من خلال عينيها الواسعتين اللتين أحاطت بهما دوائر الكحل.

- المفترض أن يمسكوا بالفاعل.

كانت تسير نحو الشرفة الأمامية، وتبعتها.

- لقد غادرتِ من خلال نافذة غرفة نومك لمقابلة «أدريان»، أليس كذلك؟

امتلأت عينا «جيسي» بالدموع.

- ليس لي أي علاقة بإشعال الحريق. أقسم لكِ!

- ماذا عنه هو؟ هل كان له علاقة به؟ هل يمكن أن يكون قد... ترك شيئًا في مكان الحادث؟

- شيء مثل ماذا؟ كان معي. عندما عدنا، اندفع «أدريان» نازلًا الطريق وكانت أنوار سيارته مطفأة... وعدت أنا إلى المنزل.

- تسللتِ عبر نافذتك مرة أخرى.

نظرت نحوي وقد امتلأت عيناها باليأس.

- لا تخبري أحدًا بهذا.

- لا يمكنني أن أعدك بأي شيء.

- «سارة»، من فضلك! لم أفعل أي شيء. و«أدريان» لم يفعل شيئًا أيضًا. أقسم لكِ!

عضت «جيسي» شفتها، ونظرت إلى حذائها وهو ينقر على درجات السلم.

- لماذا يعتقد الجميع أن «أدريان» مجرم ما؟

- هل رأيتِ أي شخص آخر في تلك الليلة؟

- لا أحد.

تحولت نظرتها إلى هاتفها المحمول، فقد وصلتها رسالة للتو. نظرت إليَّ.

- سمعت أنكِ سترحلين.

- ماذا؟ من قال لكِ ذلك؟

- سمعتهم يتحدثون، في مكان ما في الشمال؟

ثم نظرت إلي.

- لقد رأيت مكانًا لطيفًا، نعم.

- لم تكوني تريدينني أن أهرب، لكنك الآن تهربين!

- أنا لست بصدد الهروب. لدي حفل توقيع كتاب الأسبوع المقبل، وأشياء يجب أن أقوم بها هنا. أنا لست راحلة لأي مكان.

كان هذا صحيحًا. لا أستطيع الابتعاد عن «جيسي»، أو «ميا»، أو «هارييت»، أو «ناتالي»، عندما تعود تلك الأخيرة من رحلتها، أو من «جوني»!

قالت «جيسي»:

- سأحاول أن أحضر يوم توقيع كتابك.

ظهرت سيارة «أدريان» البويك السوداء عند الزاوية، وقد علا صوتها الغريب على طول الطريق.

- هل ما زلتِ معه؟

سألتها.

- كاد أن ينتزع ذراعك!

- لم يقصد ذلك، إنه ليس عنيفًا.

- كيف يمكنك أن تقولي ذلك؟

- أنا في المنزل، أليس كذلك؟ أليس هذا ما أراده الجميع؟

- أوه، «جيسي»، الأمر يتعلق بمستقبلك.

- هذا هو مستقبلي.

توقفت السيارة عند الرصيف، وقد بدأ المحرك يهدأ، بينما خفض «أدريان» صوت الموسيقى. لم يتسن لي الوقت لأسألها المزيد من الأسئلة. كانت «جيسي» تسرع بالفعل في الممر متجهة نحوه، ولم يكن بوسعي فعل أي شيء لمنعها من ركوب السيارة مع «أدريان» والابتعاد معًا.

☆☆☆

الفصل الثاني والثلاثون

لم أتمكن من إنجاز الكثير من الكتابة في الكوخ، اشتقت إلى «جوني»، المشكلة أنني أحبه...

الحب شيء غامض، لا يمكن تفسيره، وربما يكون مدمِّرًا للروح!

شعرت بالحرمان دونه، كأنني شبح يتظاهر بأنه حي. عندما تخيلت قضاء أيام وشهور وسنوات دونه، شعرت بعضلاتي تتقلص، وبألم ينهش رأسي.

كنت أجد نفسي أبكي في أوقات غريبة؛ أحيانًا في منتصف الليل دون سبب، أو إذا رأيت أرنبًا في الغابة، أو إذا لمحت قوس قزح عند الفجر، أو لو لمحت غزالًا يقف بلا حراك عند حافة الغابة... أكون على وشك الذهاب ومناداة «جوني» ليأتي ويرى المشهد، ثم أتذكر أنه ليس هناك، ثم أشعر بقلبي يسقط كالحجر لأسفل، وكلما طالت فترة غيابه، شعرت ببعده عني.

يبدو أن آل «مينكويسكي» قد رحلوا. هل كانت «تيريزا» عبارة عن علاقة عابرة مؤقتة أخرى؟ عندما واجهته بشأن رحلاته الجانبية السرية إلى منزل آل «مينكويسكي» قال إن الموضوع ليس كما أظن. ظلت «إيريس» تستحثني على تقديم عرض لشراء مهجع الكاتب بالشمال. لكن صديقتها التي تمتلك المكان لم تكن في عجلة من أمرها للبيع. وأنا لم أتمكن من إجبار نفسي على اتخاذ قرار نهائي بالموضوع. اتصلت بالفندق الموجود في سان فرانسيسكو. تطلَّب الأمر بعض التنقيب هنا وهناك، وبعض أعمال البوليس السري، لكني وصلت في النهاية إلى النادل الذي كان في الخدمة في الليلة التي التقى فيها «جوني» بزميلته في الحانة. كانت الزميلة قد غادرت دونه يومها، وبقي «جوني» في الحانة لفترة من الوقت يتحدث إلى صديق، قبل أن يعود إلى غرفته، أي أن نتيجة التحقيق في صالح «جوني».

ولكن، مع ذلك، ظلت العديد من الأسئلة دون إجابة. من الذي ظل يتصل به ويغلق المكالمة؟ أهي امرأة أخرى لا أعرف عنها أي شيء؟

كنت قد ألغيت تقريبًا حفل توقيع الكتاب، لكن «إيريس» شجعتني على الذهاب، أعارتني سترة سوداء ماركة شانيل بحواف ذهبية. قالت:

- سوف تستمتعين، سيكون حفل التوقيع إلهاءً جيدًا لعقلك. المكتبة جميلة أيضًا.

وكانت محقة.

كان اللون الأزرق الأنيق يسيطر على أرجاء المكتبة التي تقع في «شادو كوف»، على منحدر تل لطيف يطل على المحيط.

في ليلة التوقيع استقبلتني المالكة «ماري ويلز» عند الباب بابتسامة واسعة.

- هل أنتِ متأكدة من أنك قادرة على القيام بذلك؟

سألتني. كانت قد أعدت بعض المنشورات والملصقات، ورصت بعض قطع الكعك والمشروبات على منضدة، ورصت كتبي فوق بعضها. كيف يمكنني أن أقول لا؟ قلت:

- أنا بخير، شكرًا لكِ على كل شيء.

سرعان ما بدأت العائلات تظهر مع أطفالهم، حتى تشكل حشد كثيف على صفوف من الكراسي أمام المنصة. لم أتخيل وجود هذا الكم من المعجبين في مثل هذه البلدة الصغيرة. قدمتني «ماري» للموجودين بثقة، وشكرتها، ثم صعدت للتحدث.

عم السكون الغرفة. كان علي أن أنجو من هذا الموقف، حفل إطلاق آخِر أعداد سلسلة ألغاز الفأرة «معجزة».

كان الكتاب جديدًا لدرجة أن النسخة أصدرت صوت طقطقة خافتًا عندما فتحت أول صفحة. أثارت رائحة الورق المطبوع حديثًا بعض الحماس داخلي، على الرغم من حزني، وذكرتني أنني ما زلت على قيد الحياة.

تحدثت قليلًا عن أصول الفأرة «معجزة»، وممَ استوحيتها، ثم قرأت بعض المقتطفات من الكتاب. شعرت بالمغامرات تافهة، لكن الأطفال أحبوا الكتاب ومحتواه، جلسوا القرفصاء في الصف الأمامي مبتهجين، ثم وصل «جوني». وقف وراء الحضور، وقد غرق نصفه في الظل. كان لا يزال يرتدي قميص العمل الرسمي. وصلت «تيريزا» في نفس الوقت، فوقفت هي و«جوني» جنبًا إلى جنب. تهدل شعرها حول وجهها دون تصفيف، كما لو لم يكن لديها الوقت لتصفيفه، فكشف عنقها الجذاب.

تلعثمت للحظة، ثم واصلت القراءة، مصممة على الوصول إلى نهاية الفقرة التي كنت أقرؤها، ارتفع التصفيق من صف الأطفال الأمامي، وهتف أحدهم:

- المزيد! استمري!

وقفت «ميا» و«هارييت» في الركن، بالقرب من قسم كتب الأطفال. قالت «ماري» وهي تتجه لتقف أمام الحضور:

- الآن ستوقع «سارة» الكتب، إذا كان هناك من يرغب في طرح أي أسئلة، فقد حان الوقت الآن.

ارتفعت أيدي بعض الحضور، في الخلف، مالت «تيريزا» برأسها قليلًا، والتفتت نحو «جوني»، الذي انحنى إلى أسفل، وكوّرت هي قبضتها نحو أذنه، وهمست بشيء ما، فاعتدل ثانية مبتسمًا، كيف أمكنهما فعل هذا؟ كيف يمكنهما المجيء إلى حفل توقيع كتابي معًا؟ ويتهامسان كذلك؟ هل كانا يسخران مني؟

أشارت «ماري» لأحد الموجودين لطرح سؤال، كان رجلًا أبيض الشعر في الصف الثاني. وقف وتنحنح قبل أن يتحدث:

- سؤالي هو: ما طقوس عملية الكتابة الخاصة بك؟

ابتسمت له وأنا أحاول صياغة إجابة. هل لا يزال لدي ما يدعى «طقوس عملية» بعد الآن؟

- أكتب كل صباح لبضع ساعات قبل أن تتدخل الالتزامات الأخرى.

لكنني كنت أكذب، لقد فعلت ذلك مرة واحدة فقط، الآن أنا أجاهد لفعلها.

- صارت الكتابة جزءًا مني. كل يوم أفعلها.

كذبة أخرى. أومأ الرجل برأسه وجلس. همست «تيريزا» لـ «جوني» مرة أخرى. كيف يمكن أن يكون لديها كل هذا لتقوله له؟

انتبهت لنظراتي نحوها ولوّحت لي، لكنني لم ألوح لها. تصاعدت المزيد من الأسئلة من باقي الحضور، حول مصدر أفكاري (لم يكن لدي أي إجابة عن هذا)، وهناك سؤال حول ما إذا كانت الفأرة «معجزة» تشبهني، وهل قصصها تعَد السيرة الذاتية الخاصة بي أم لا. أخيرًا، أنقذتني «ماري»، فتناولت ذراعي وهي تبتسم للحضور قائلة:

- والآن فلنصطف في طابور، لتقوم «سارة» بتوقيع الكتب الآن.

قلت لها:

- يجب أن أستريح قليلًا.

لم أعد أرى «جوني» بين الحشد. هرعت إلى دورة المياه، لكن «هارييت» أوقفتني. بدا وجهها شاحبًا ممتقعًا، وقفت «ميا» بجانبها، وقد اتسعت عيناها، وأمسكت بيد جدتها.

- «ميا»، «هارييت»! شكرًا لقدومكما.

قلت، وقد أدركت لحظتها أنه كان ينبغي لي تحيتهما في وقت سابق. انحنيت لأسفل وعانقت «ميا».

- كيف حال أميرتي الصغيرة؟

- أنا بخير، شكرًا.

بدت «ميا» مهذبة أكثر من المعتاد، استطردت:

- هل سآتي إلى منزلك؟

- لا أعرف، ماذا تقول جدتك؟

قالت «هارييت»:

- تقول الجدة إننا ذاهبان إلى المنزل في الوقت الحالي.

لمست ذراعها.

- كيف حالك؟ تركت لكِ بعض الرسائل.

أجابتني «هارييت»:

- أردت معاودة الاتصال بك، لكني كنت مشغولة، لا بد لي من الذهاب في أقرب وقت مرة أخرى.

- «هارييت»، رباه.

- هل يمكنك أن تستضيفي «ميا»؟ أعرف أنني أخبرك متأخرًا دون أن أمنحك وقتًا كافيًا للاستعداد.

دفعني رجل بينما هو يمر، أجبتها:

- لا توجد مشكلة، طبعًا يمكنني أخذها، سأكون سعيدة لفعل هذا، لكن متى؟

يجب أن أقوم بها هذه المرة بمفردي. جذبت «ميا» ذراع جدتها وهي تقول بحماس:

- أريد أن أذهب إلى منزل العمة «سارة». لديها أرجوحة على شكل كعكة الدونات.

- يمكنك المجيء في أي وقت يا عزيزتي.

هكذا أجبتها مبتسمة، فشكرتني «هارييت» بابتسامة ممتنة:

- شكرًا يا «سارة».

كان أحدهم يناديني، وسرعان ما اختفت «ميا» و«هارييت» وسط الحشد. هرعت إلى دورة المياه، وأغلقت المكان على نفسي، ونثرت بعض الماء البارد على وجهي. لا أستطيع العودة إلى هناك، لا أستطيع مواجهة كل هؤلاء الأشخاص، لكن ليس هناك مخرج آخر من الحمام. ليس لدي أي خيار. كان علي أن أقوم بتوقيع الكتب.

عندما فتحت الباب كان «جوني» يقف أمامي. كانت لديه نظرة منهكة مضطربة، وبدا في أسوأ حال. أخذني بين ذراعيه، وأمسك بي بقوة، قال:

- افتقدتك كثيرًا.

- أنا أيضًا افتقدتك.

كانت هذه هي الحقيقة. لكن جسدي لم يقوَ على الاسترخاء بين ذراعيه كالماضي.

- أريد أن أعود إلى المنزل.

- المنزل؟ تقصد الكوخ؟

- أيًا كان. منزلي هو المكان الذي تكونين فيه.

- أنا لست مستعدة لهذه الخطوة بعد، وماذا عن «تيريزا»؟

وابتعدت عنه قليلًا، وقد شعرت بجسدي يتصلب.

- أريد أن أريك شيئًا. كنت أرغب في القيام بذلك في وقت سابق، ولكن آل «مينكويسكي» كانوا بعيدين وقتها.

- يجب أن أوقع الكتب.

- لا بأس.

قالها «جوني» وأخذ يدي وأعادني للحشد.

- سوف أنتظرك.



الفصل الثالث والثلاثون

تبعني «جوني» إلى الكوخ في سيارته التويوتا الواقفة خلف سيارتي، وأخذني إلى منزل عائلة «مينكويسكي». تهاطلت قطرات خافتة من المطر وسط الظلام.

- ماذا نفعل هنا؟

سألته، فتناول يدي.

- أردتِ معرفة ما يجري، وسأفعل.
- إذن، كنت تأتي إلى هنا لرؤية «تيريزا».
- أعطني فرصة للتفسير.

قالها ثم نظر إلي تلك النظرة الواضحة الصادقة.

- كنت أنوي الانتظار، ولكن الآن، نظرًا لأننا لم نعد ننام تحت سقف واحد، يجب أن أريكِ.
- ماذا تقصد، ماذا ستريني؟
- تحمليني قليلًا.

قادني إلى أعلى درجات السلم، وعبر الباب الأمامي. لا بد وأن «تيريزا» كانت تتوقع قدومنا.

شممت تلك الرائحة الكيميائية مرة أخرى، والعطر. قال «جوني»:

- «كادين» خرج مع والده.

قالت «تيريزا» وهي قادمة نحونا من الردهة:

- مرحبًا يا «سارة».

بدت شديدة الفتنة وقد عقصت شعرها لأعلى.

- ماذا يحدث هنا؟

سألت، وقد شعرت بمرارة تغزو فمي.

- تعالي إلى الخلف. أريد أن أريكِ شيئًا.

أفلت «جوني» يدي وأشار لي بالتقدم أمامه. تبعت «تيريزا» لنهاية الردهة، ودخلنا غرفة فسيحة بالخلف. بقي «جوني» ورائي مباشرة. كانت الأضواء خافتة، والنوافذ الضخمة تطل على الفناء الخلفي. الغرفة مبطنة بالرفوف والمستلزمات: زجاجات منظفات، وكيماويات، وعبوات ورنيش، وزيوت. هناك فرش وعبوات صمغ كذلك. انتصبت منضدتان طويلتان تناثر عليهما عدد لا يُحصى من الأعمال الفنية والخزف، في حالات مختلفة من التلف أو الإصلاح، حسب وجهة نظرك للموضوع.

كان هناك حامل مغطى بالخيش. دخلت «تيريزا» إلى مركز الغرفة، ثم مدت ذراعيها وأخذت نفسًا عميقًا.

- هذه هي ورشة العمل المنزلية الخاصة بي.

قالتها وهي تتبادل مع «جوني» نظرة تفاهم أخرى. تخيلته ينحرف عن الطريق الرئيسي في الغابة، ثم يتجه هنا للقاء «تيريزا».

أعطاها «جوني» إيماءة خفية، فرفعت الغطاء القماشي وقلبته فوق الحامل. رفرف الغطاء على الأرض، بينما تصاعدت رائحة الطلاء أقوى. تنحت «تيريزا» جانبًا لتكشف عن لوحة لم أتوقع رؤيتها مرة أخرى. شهقت، غير قادرة على الكلام.

- هذا ما كنت أعمل عليه عندما يتسنى لي الوقت.

قالت «تيريزا».

- أحضرها «جوني» بعد الحريق.

حدقت إلى لوحة الفأرة «معجزة» التي تم ترميمها جزئيًا. كانت دون إطار، وقد غطت طبقة رمادية من السخام الثلث السفلي منها، وقد بدت الألوان

أغمق كما لو كان هناك ظل دائم قد سقط على القماش. لكن الظلام أفسح الطريق للنور بأعلى اللوحة، فقد بدا الثلثان العلويان من اللوحة جديدين... نابضين بالحياة.

تحركت بحركة بطيئة نحو اللوحة، مددت يدي، ثم سحبتها ثانية، كان الطلاء لا يزال رطبًا، تأملت الفأرة العزيزة، وقد عادت شعيرات شاربها للحياة، حتى أكاد أشعر بها ترتعش. التمعت نظاراتها وعيناها، وقد انقلبت إحدى أذنيها إلى الأمام، بينما انزلقت النظارات المستديرة أسفل أنفها.

التفتُّ إلى «جوني»، وقد امتلأت عيني بالدموع.

- متى عثرت عليها؟ كيف نجت اللوحة من الحريق؟

- كانت الشيء الوحيد في مكتبك الذي لم يحترق بالكامل. معجزة، اسم على مسمى أعتقد.

- نعم.

هكذا همست. قالت «تيريزا»:

- كانت سوداء ومشوهة، اللوحة القماشية متشققة في عدة مواضع، وقد تعرضت لأضرار بالغة بسبب النيران. عندما أحضرها «جوني» لي، لم يكن متأكدًا مما إذا كان هناك أمل في إنقاذها، ولا أنا أيضًا، لكنني أخبرته بأنني سأحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، قال إن تلك اللوحة تعني لكِ الكثير.

انزلقت الدموع على وجنتيَّ.

- شكرًا، نعم، جدتي رسمتها، اعتقدت... اعتقدت أن الفأرة «معجزة» قد ذهبت للأبد.

- يمكنني تفتيح بقية اللوحة، لكن الأمر سيستغرق وقتًا.

قالت «تيريزا»، بينما أضاف «جوني»:

- كنا سنقدمها لكِ بحلول عيد ميلادك في ديسمبر، لكنك ظللتِ تتبعينني لهنا، كنت آتي هنا للتحقق من مدى تقدم عمل «تيريزا» فيها، ولكنك قررتِ بعد ذلك أن تصبحي بوليسًا سريًا يراقبني.

ماذا كنت أرى؟ بصيصًا من حياتنا السابقة، كأنه شعاع وحيد من ضوء الشمس يسطع وسط الظلام.

- أنا... لم أكن أدرك، «تيريزا»، شكرًا لكِ، لقد أثبتِّ أن بوسعك صنع المعجزات.

- لا يمكنني صنع المعجزات، لكنني أحاول، لا يمكن إنقاذ كل شيء، لن تكون «معجزة» جديدة تمامًا مرة أخرى، لكن يمكنني أن أجعلها قريبة للغاية مما كانت عليه.

قال «جوني»:

- الترميم هو تخصصها، كنت سأعطيها لكِ عندما تنتهي، فكما ترين، لم تنتهِ منها بعد.

قلت:

- لهذا كنت تأتي إلى هنا.

فأومأ برأسه، بينما نظرت «تيريزا» إلى حذائها.

- عندما بدأتِ في طرح الأسئلة عليَّ، كان يجب أن أفكر سريعًا. ظللت أؤلف أكاذيب، لست معتادًا على فعل ذلك. أنا لست مثاليًا، لكني كذلك لست كاذبًا.

مسحت دموعي.

- أشعر بخيبة أمل لأنها لن تكون مفاجأة.

ابتسمت «تيريزا» لـ «جوني» وهي تقول:

- لقد أخفينا الموضوع قدر المستطاع.

هز كتفيه ونظر إلى الأرض. عدنا جميعًا إلى الباب الأمامي، وسار «جوني» بجواري حتى عدنا إلى الكوخ. قال:

- متى يمكننا حل هذا؟ أريد أن أكون معك.

نظرت في عينيه، غير متأكدة مما رأيته هناك. بدا شديد الإخلاص والندم في تلك اللحظة.

- أنا أصدقك، وما فعلته كان... كان رائعًا.

اقترب مني.

- لا أريدك أن تبتعدي عني. لا أستطيع النوم. لا أستطيع أن آكل.

- ولا أنا.

- أنا بحاجة إلى مزيد من الوقت، لإصلاح كل شيء، هل هناك فرصة لنا أن نستمر معًا؟

سألني، فترددت للحظة، ثم قلت:

- نعم، هناك فرصة.

وهنا تنفس الصعداء، وجسده كله يسترخي.

- عظيم.

ربت على خدي بلطف، وبينما هو يستدير ليتوجه إلى سيارته، ظهر «رايان جرين» في سيارته ووقف بالقرب منا. عندما ترجل منها، كان متجهم الوجه. بدا كما لو كان أحدهم قد قاطعه في منتصف التمرين. كان ينتعل حذاء جري ويرتدي سترة للركض أظهرت كم كان طويلًا مفتول العضلات، وقد تطاير شعره المبلل مع الريح.

شعرت بالتوتر على الفور، ورغبت في الاستدارة والابتعاد عنه. أتمنى ألا يكون قد أتى لاستجوابي ثانية، قال «رايان»:

- اعتقدت أنكما ستودان أن تعرفا آخر الأخبار، نعتقد أننا قد توصلنا لمشعِل الحريق!



الفصل الرابع والثلاثون

سجلات «شادو كوف»

تم العثور على مشتبه به في إشعال حريق ميتًا جراء جرعة زائدة من المخدرات.

تم العثور على «تود سيفرسون»، البالغ من العمر أربعين عامًا، ميتًا في منزله اليوم بسبب جرعة زائدة من الميثامفيتامين، وفقًا للشرطة، على الرغم من أنه لن يتم الإفراج عن مزيد من التفاصيل قبل إجراء تشريح للجثة. كان السيد «سيفرسون» من بين المشكوك فيهم في التحقيق المتعلق بالحريق المتعمد الذي أدى لوفاة اثنين من سكان « شادو كوف» في الشهر الماضي، وتدمير منزلين في حريق في شارع «سيتكا»، بالإضافة إلى حرائق أخرى لم يتم حلها في المقاطعة.

«لا يمكننا استخلاص أي نتائج حتى هذه اللحظة»، هكذا صرح نقيب قوات المطافئ «رايان جرين» من قسم الإطفاء في «شادو كوف».

وفقًا لجيران «سيفرسون»، كان رجلًا هادئًا كتومًا، يدير شركة خاصة لتصليح البيوت وإعادة بنائها، ويساعد مختلف السكان في عدة مشاريع حول المدينة، كما كان رجل إطفاء متطوعًا.

«مستحيل أن يتوقع المرء أبدًا أنه كان يتعاطى المخدرات! صحيح أنه بعد أن غادرت زوجته صار كتومًا أكثر من السابق، وصار يشغل نفسه بالعمل أكثر بكثير لكن...» هكذا علقت الجارة «كاثي ماكلينون»، التي تبلغ تسعة وأربعين عامًا.

بينما رفضت زوجة «سيفرسون» المنفصلة عنه التعليق...

أنزلت «إيريس» الصحيفة وهزت رأسها.

- لا أستطيع تصديق أنه كان مُشعل الحريق. لقد جعلته يأتي إلى كوخك، وكان يعمل في عقارات أخرى!

- لم يكن بإمكانك أن تعرفي.

قلتها وأنا جالسة على المنضدة في مطبخ «إيريس»، بينما فاحت رائحة كعك مافن التوت من الفرن. حذرني «تود» من بعض المجانين في «شادو كوف»، لكن يبدو أنه يقصد نفسه. لم يكن من المفترض أن يموت أحد. استطردت «إيريس»:

- ماذا كان سيحدث لو أنه أشعل عود ثقاب عندما لم يكن أحدنا في المنزل؟ كان الرجل مصابًا بجنون إشعال الحرائق، ظننت أنني أعرفه.

قلت:

- بدا نادمًا، ربما كان يعتقد أن المنزلين خاليان.

- ولماذا سيعتقد هذا؟

- ربما كان يراقب منزل آل «كيمبال» في أثناء وجودهم بعيدًا، ولم يكن يتوقع عودتهم إلى المنزل مبكرًا.

علقت «إيريس»:

- لن يمكننا معرفة ما كان يدور في ذهنه أبدًا.

- وجدوا بعض الميثامفيتامين في بيته. لكنه لم يبدُ مثل المدمنين.

- لا أحد يبدو كذلك أبدًا.

مسحت «إيريس» النضد بمنشفة، ثم أعادت عبوة الحليب للثلاجة. حدقت عبر الأشجار باتجاه الكوخ، وكان مرئيًا بوضوح من هنا.

- كان رجل إطفاء. ما زلت لا أفهم كيف أمكنه فعل ذلك.

- هل سبق لك أن شاهدتِ فيلم «باك درافت»؟ كان مشعل الحريق واحدًا من رجال الإطفاء كذلك، إنهم ينجذبون إلى النيران. يشعلون واحدة، وبعد ذلك يعودون إلى مسرح الجريمة ويصبحون أبطالًا بإطفاء النيران، ضربة مزدوجة.

قلت:

- ليس كل رجال الإطفاء هكذا.

- لا، لكن ها نحن رأينا مثالًا عمليًا على هذا.

- لقد بدا نادمًا فعلًا.

هزت «إيريس» كتفيها.

- بالحديث عن الندم، ماذا نويت أن تفعلي بزوجك؟

- لقد كنت قاسية جدًّا عليه.

- ستجدين من هو أفضل.

- لقد أخطأ، لكن ألسنا نخطئ جميعًا؟

- بعضنا يخطئ أكثر من البعض الآخر.

أخرجت «إيريس» طبقًا من الزبد من الثلاجة، ثم انشغلت في إخراج الأطباق من الحوض ووضعها في غسالة الصحون.

- لم يكن الأمر كله كذبًا. أعني، لقد جرحني، لكنني أعتقد أنه يحبني. يتمنى لو كان قد أخبرني عن «مونيك» من قبل.

- لا شك لديَّ في تمنيه هذا.

أطفأت «إيريس» الفرن وأخرجت صينية الكعك لتضعها على سطح الموقد لتبرد. اندفعت الدموع إلى مؤخرة عينيَّ. جاءت «إيريس» وجلست بجواري، وأراحت يدها على يدي.

- شعرت بالحزن على زوجي السابق أيضًا، لكنني تخطيته، وأنتِ كذلك ستفعلين، فلديك أصدقاؤك، وكتاباتك، أنتِ قوية.

أومأت برأسي في صمت، ما زلت أشعر بالحزن.

- كان يرمم لوحة عزيزة عليَّ للغاية. إنه رجل طيب.

- بالتأكيد هو كذلك.

قالتها «إيريس» وهي تومئ برأسها متعاطفة، ثم نهضت وأخذت عبوة من الزبادي من الثلاجة.

- أتحبين أن أعد مشروب «سموثي» لينعشك؟

- نعم، شكرًا.

كنت بحاجة إلى التحدث إلى «ناتالي»، لكن كان عليَّ الانتظار، فهي لا تزال في طريق عودتها إلى المنزل. ألقت «إيريس» الزبادي في الخلاط، ثم قطعت الموز لشرائح وشغلت الخلاط، فشعرت بالضوضاء الصارخة تخترق طبلة أذني، لكن العصير الناتج كان منعشًا، قلت:

- واضح أنك خبيرة في هذا، أشعر بتحسن بالفعل.

جلستْ بجواري مرة أخرى وابتسمتْ.

- عصائر السموثي الخاصة بي هي وصفتي ضد الحزن. أنا واثقة أن حياتك ستتحسن.

- أتمنى ذلك.

حدقت إلى كوبي نصف الفارغ -أو نصف الممتلئ- لكن لم يكشف العصير عن أي أسرار.

- سأقوم بالمخاطرة، سأحاول مرة أخرى مع «جوني».

نظرت «إيريس» إليَّ بفضول وقلق.

- تعتقدين أنه يستطيع التغير؟

شربت آخر العصير، وتركت السائل البارد والسميك ينزلق عبر حلقي.

- لا يمكنه تغيير ما فعله قبل أن يقابلني.

أومأت «إيريس» برأسها.

- كما قلت، كنتُ جامحة بعض الشيء عندما كنت صغيرة، لكنني تجاوزت تلك المرحلة، لقد نضجت. لا أحب أن يحكم أي شخص عليَّ بسبب ماضيَّ أنا الأخرى.

- هذا ما أعنيه.

انتهيت من العصير، وأخذت أقلب الكوب الزجاجي الفارغ بين يدي، بينما ألقت شمس بعد الظهر شعاعًا من الضوء الأبيض على الأرضية المغطاة بالبلاط، وأخذ انعكاس الضوء وأوراق الشجر يتراقصون عبر الحائط فوق الحوض. قالت «إيريس» وهي تنهض:

- أنا أفهم، ولكن قد تندمين على ذلك لاحقًا.



الفصل الخامس والثلاثون

- أين العم «جوني»؟

سألتني «ميا» وهي تدخل الكوخ، حاملة دمية باربي التي ترتدي ثوب الأميرات، بينما انتعلت «ميا» زوجين جديدين من أحذية الأميرات البراقة.

كنا في فترة بعد ظهر ثقيلة ورطبة، وقد بدت السماء كأنما تريد تحذيرنا بقرب هلول عاصفة قادمة بالطريق. قلت:

- إنه بعيد، في «سياتل».

أخذت «ميا» تقفز لأعلى وأسفل في الردهة وهي تكرر ورائي:

- «سيييياتتتتل»، متى سيعود؟

- في وقت متأخر.

لكنه سيأتي، المفترض أن يعود في ذلك المساء. كنت في حالة فوضى كاملة بسبب الترقب، وغير قادرة على التركيز. في طريق العودة من المستشفى، حيث تركت «هارييت»، اختلست نظرة إلى «ميا»، محاولة اكتشاف أي تشابه في ملامحها مع ملامح «جوني». ماذا عن إبهامي «ميا» اللذَين تتمكن من ثنيهما أكثر من الطبيعي؟ وماذا عن الطريقة التي تخرج بها لسانها؟ هل يمكن أن تكون قد ورثت أيًا من هذه الصفات منه؟

لا، هكذا فكرت، وأنا أحمل حقيبة متعلقات «ميا» الثقيلة لأدخلها للكوخ. كان بذقنها شق طفيف، تمامًا مثل «تشاد». كررت «ميا» بإصرار وهي تدق بقدميها على الأرض:

- أريد العم «جوني» أن يقرأ لي كتاب «تصبح على خير أيها القمر»!

- لكنه ليس موجودًا يا عزيزتي كما أخبرتك.

- أريد العم «جوني»!

عبست «ميا» بفتور، وسحبت مجموعة جديدة من كتب د.«سوس» من الحقيبة. لا عجب أن الحقيبة اللعينة كانت ثقيلة جدًا.

- إنه يقوم بالتدريس في الجامعة، قد يتأخر.

كان قد تمت دعوته لإلقاء محاضرة حول أمراض الأطفال الجلدية العامة. بالكاد أتيحت لي الفرصة للتحدث معه في الأسبوع الماضي، فقط لكي أخبره بأني على استعداد للجلوس معه لمناقشة المستقبل. أصبح صوته مبتهجًا ومليئًا بالأمل. قال لي «حالما أعود».

الليلة، الليلة، الليلة. ألم تكن تلك أغنية؟

افتقدت سماع صوته، والطريقة التي يترك بها الصحف متناثرة على المنضدة، والفتات تحت كرسيه.

افتقدت اهتمامه بطهو الطعام الهندي، والطريقة التي كان يقرأ بها لي في كثير من الأحيان بصوت عالٍ قبل النوم.

افتقدت كذلك الطريقة التي يلمسني بها ببطء، كما لو لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه ولا أي شيء آخر ليقوم به لبقية حياته. شعرت بالكوخ ضخمًا وفارغًا بشكل غريب دونه.

ذهب آل «مينكويسكي»، وكان منزلهم مغلقًا، والستائر مسحوبة. سافروا إلى فلوريدا، لأن والد «كادين» توفي فجأة.

ظلت لوحة الفأرة «معجزة» في الأستوديو الخاص بـ «تيريزا»، في انتظارها لإنهاء الترميم. كانت «إيريس» في المنزل، ولكنها في كثير من الأحيان تكون مشغولة في الاجتماعات، أو عقد صفقات عقارية مربحة. كانت ثرثرة «ميا» المستمرة تشكل تشتيت انتباه لا بأس به بالنسبة إلي. لم تتعب قط من إيجاد طرق جديدة للعب. ساعدتني في خبز كعكة، مما خلق فوضى من الدقيق في جميع أنحاء المطبخ. أخيرًا، انهارت على سرير الأطفال لتحظى بقيلولة بعد الظهر. أخذ صدرها يعلو ويهبط بإيقاع منتظم، وقد غطى وجهها تعبير مسالم.

بدت أشبه بـ «مونيك» في صغرها في ضوء المصباح الخافت. لم أرَ أي دليل على حزنها منذ أن وصلت إلى الكوخ لحسن الحظ، لكن على ما يبدو، لا يزال الحريق مختبئًا في مكان ما أسفل طبقات ذاكرتها، فقد استيقظت في منتصف الليل وهي تبكي كأنما تذكرت خوفها في أثناء الحريق.

جلستُ على الأريكة لأكتب على جهاز الكمبيوتر المحمول، ممتنة لصحبة «ميا». ربما كانت جدتها تقدر وجودها حولها أيضًا. بدت «هارييت» أضعف من المعتاد في ذلك الصباح. ذكرت شقيقتها في فيرمونت. ستأتي إذا كانت بحاجة إليها. ألم تكن «هارييت» بحاجة إليها الآن؟ كانت وحيدة في المستشفى.

بقيت أنا و«ميا» هناك لبعض الوقت، لكن «ميا» أصبحت عصبية، لذلك عدت بها إلى المنزل، سوف نعود لرؤية «هارييت» لاحقًا.

تركت رقم هاتفي مع الممرضة. غفت «ميا» لنحو خمس عشرة دقيقة عندما ارتفع رنين هاتفي المحمول، فشعرت بقلبي يثب من مكانه، ربما يكون «جوني» هو المتصل! ربما أنهى محاضرته مبكرًا.

لكن لم يكن هو المتصل، وإنما كانت «جيسي».

- هل يمكنك المجيء واصطحابي؟

كان صوتها عالي النبرة وبدا كأنها تبكي، أجبتها بصوت منخفض:

- «ميا» نائمة. ما الخطب؟ هل أنتِ مع «أدريان»؟

- لا. أنا في طريقي سيرًا لمنزلك. هل يمكنك اصطحابي؟

- سرتِ إلى منزلي من أين؟

- أنا في منطقة «سيدار درايف»، ولكن لا يزال أمامي نحو ميلين آخرين لقطعهما، والسماء تمطر.

- لا يمكنني ترك «ميا» بمفردها. ألا يمكنك الاتصال بوالديكِ؟ ماذا حدث؟

- أرجوكِ يا «سارة». لا يمكنني الاتصال بهما.

ثم انهارت «جيسي» في موجة من البكاء. سألتها:

- هل أنتِ بخير؟ هل تحتاجين إلى إنهاء المكالمة والاتصال بالنجدة؟
- لا، أنا بحاجة إليك أنتِ.
- هل يمكنك أخذ سيارة أجرة إلى المنزل؟
- أخذت سيارة أجرة حتى هنا، لكن نقودي نفدت.
- استمري بالسير في طريق «سيدار»، وسأعثر عليك.

ثم اتصلت بـ «إيريس» لتأتي وتعتني بـ «ميا»، وبعد بضع دقائق ظهرت «إيريس» عند الباب، مرتدية بنطالًا جينز وسترة مطر، وقد أمسكت مظلة بيدها. خلعت أحذيتها الموحلة.

- أين الطفلة؟

همست، بدت شاحبة، وقد أحاطت الدوائر السوداء بمنطقة أسفل عينيها. سألتها:

- أنتِ بخير؟
- بخير.

لكنها لم تبدُ كذلك. ربما تشاجرت مع صديقها، لم يأتِ منذ بضعة أيام.

- إنها في غرفة النوم.

أريتها «ميا» النائمة على سرير الأطفال وهمست:

- سأعود في الحال.

قالت «إيريس»:

- لا تقلقي، سأعتني بها جيدًا.
- شكرًا لمساعدتك.

أمسكت بمفاتيحي ومحفظتي. همست:

- لا أعرف ماذا حدث لـ «جيسي»، لكن يبدو الأمر سيئًا.
- هل اتصلتِ بوالديها؟

همست «إيريس».

- تركت رسالة لأمها.

- هيا إذن، أسرعي لتلحقي بها.

قالتها «إيريس» وهي تلوح مودعة إياي.

قدت سيارتي ببطء على طول طريق «سيدار درايف»، وقد أخذت أمسح بعينيَّ الأرصفة من بين طبقات المطر الكثيفة.

بالنهاية، لمحت جسدًا منحنيًا. توقفت وفتحت الباب الجانبي الخاص بالراكب. دخلت «جيسي»، وهي مشبعة بالمياه حتى العظام، كانت ملابسها -سترة من الصوف بقلنسوة- غارقة في المياه بالكامل، وقد أخذت يدا الفتاة البائسة ترتجف وهي ترمي حقيبة ظهرها المبللة كذلك على المقعد. مددت يدي فوقها وأغلقت الباب. كانت رائحتها مزيجًا من سجائر القرنفل والصوف الرطب. قلت:

- ارتدي حزام الأمان.

أغلقت «جيسي» حزام مقعدها بأصابعها المرتعشة، فعدت بانتباهي إلى الطريق، وقمت بالدوران. نظرَت إليَّ من تحت قلنسوتها، وقد بدا الرعب على وجهها.

- إلى أين نحن ذاهبتان؟

- سآخذك إلى المنزل.

- اعتقدت أننا ذاهبتان إلى منزلك أنتِ.

- لا يمكننا الذهاب إلى منزلي، أنتِ بحاجة إلى التحدث إلى والديكِ.

- لا أستطيع.

غطت وجهها بيديها وقد أخذت كتفاها تهتزان.

- لم لا؟

- هذا هو السبب.

قالتها وهي تخلع قلنسوتها لتكشف عن وجهها، كانت هناك كدمة سوداء على وجنتها وقد تورمت عينها، بينما كانت شفتها المتشققة تنزف. شهقت وكدت أدخل بالسيارة في بركة مياه.

- سأقتل ذلك القذر!

لم تقل «جيسي» شيئًا، وظلت شفتاها ترتعشان. قلت:

- سآخذك إلى المستشفى.

- لا يا «سارة»، أرجوكِ.

- لا تجادليني.

- وقتها سيعرف والداي ما حدث.

- سوف نتخطى هذا معًا، اتفقنا؟

توجهت مباشرة إلى مستشفى «كوف»، وقد اعتصرت أصابعي عجلة القيادة. قاومت الشتم بصوت عالٍ.

- يجب أن تقومي بتحرير محضر ضده!

مسحت «جيسي» أنفها براحة يدها.

- أنا أكره نفسي.

- لا تقولي ذلك. لا تقولي ذلك أبدًا!

- أنا حمقاء للغاية!

- لست حمقاء. أين هو؟ يجب أن نقوم بالاتصال بالشرطة.

- لا أريد ذلك. لا أعرف كيف عرف.

- عرف ماذا؟

- بموضوع «تشاد». أحدهم أخبره.

- كيف يمكن لأي شخص آخر أن يعرف يا «جيسي»؟ ربما خمَّن.

- لا أريد الذهاب إلى المستشفى.

- أنتِ بحاجة إلى بعض الغرز.

دخلت ساحة انتظار السيارات في مستشفى «كوف».

- هيا ندخل.

خرجت، واتصلت بـ «بيدرا» بينما المطر يكاد يخترق بشرتي. قدت «جيسي» إلى داخل المستشفى، نحو غرفة الطوارئ.

- يا للهول! سآتي حالًا.

هتفت «بيدرا» عبر الهاتف. بعد ذلك، اتصلتُ بـ «إيريس»، التي شهقت، ثم أخذت تلعن الفتى.

- لا بد أنك تمزحين! أبقِني على اطلاع بالمستجدات.

بعد عشر دقائق، كانت «بيدرا» تركض في هلع إلى غرفة الانتظار، و«دون» وراءها مباشرة، وقد شحب وجه الأبوين.

- «جيسي»، ماذا حدث؟

هكذا هتفت «بيدرا» وهي تحتضن وجه «جيسي» بين يديها، لتنسكب أنهار من الدموع الصامتة على وجنتي «جيسي». سحبتُ «دون» جانبًا قبل أن أهمس له:

- يجب عليَّ أن أذهب، فأنا أعتني بـ «ميا» في الوقت الحالي، وقد تركتها مع إحدى جاراتي.

أومأ برأسه، وقد بدا مزيج من الارتباك والغضب بعينيه، فقلقت بشأن ما سيفعله لـ «جيسي»، هل سيلومها؟ هل سيتشاجر معها بعد رحيلي؟ لكن المشكلة أن عليَّ أن أعود، فعانقت «جيسي»، وضغطت على يدها، ثم اتصلت بـ «إيريس» مرة أخرى وأنا في طريق العودة إلى السيارة.

- هل استيقظت «ميا»؟

- استيقظت، كنا نلعب معًا.

بدا صوتها باهتًا وبعيدًا، كما لو كانت قد فتحت مكبر الصوت.

- هل أنتِ في طريق العودة؟

- سأكون عندك خلال عشر دقائق.

عندما وصلت كان الكوخ مظلمًا وهادئًا، باستثناء صوت طنين ناعم من الثلاجة ومروحة جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي، والذي نسيته مفتوحًا

في خضم عجلتي للخروج، لكن لم تكن هناك أي علامة على وجود «ميا» أو «إيريس»!

لا بد أن «ميا» قد استيقظت، ولا بد أن «إيريس» قد أخذتها للمنزل المجاور، اتصلت بهاتف «إيريس» المحمول، لكن الاتصال تم تحويله مباشرة إلى البريد الصوتي.

في غرفة النوم الرئيسية، استلقت مذكراتي على السرير. المذكرات التي سجلت فيها بدقة كل ما حدث بعد الحريق؛ كل فكرة وكل شعور مر بي. لا أتذكر أنني تركت المذكرات على السرير، لكن لا بد أنني فعلت.

كنت لا أزال أرتدي المعطف الواقي من المطر وحذائي طويل العنق، هرعت للخارج وانطلقت عبر درب الأشجار الذي يقود إلى منزل «إيريس». طرقت على الباب الأمامي، لكن لم يجب أحد، حاولت الاتصال بهاتف «إيريس» المحمول مرة أخرى، لكن تم تحويلي للبريد الصوتي من جديد. كانت سيارة «إيريس» لا تزال قابعة في الدرب أمام المنزل، لكن المنزل نفسه كان مظلمًا. اتبعت طريقًا متهالكًا قادني إلى الخلف، واختلست النظر عبر النوافذ، لكن لا توجد علامة على وجود أحد.

لم يجب أحد على باب المطبخ الخلفي، لكن الباب كان مفتوحًا، فدخلت.

- يا «إيريس»! يا «ميا»!

أخذت أنادي، ثم لمحت طبقًا على المنضدة، وقد تناثر عليه فتات الخبز المحمص، وبجانبه فنجان قهوة وملعقة صغيرة. أما في غرفة الطعام، فقد فاحت في الهواء رائحة طلاء برتقالي.

- يا «إيريس»! «ميا»! أين أنتما؟

ناديت من جديد، لكن لا إجابة. تصاعدت موسيقى كلاسيكية ناعمة من الطابق الثاني.

- «إيريس»! «ميا»!



لا جواب كذلك، تتبعت مصدر الموسيقى في الطابق العلوي، حتى وصلت إلى غرفة «إيريس» الهادئة. كان عزف كونشيرتو «براندنبورغ» الناعم هو مصدر الصوت. طرقت الباب، لكن لم يجب أحد. أدرت مقبض الباب، ولدهشتي انفتح الباب بسهولة.

- هل أنتما هنا؟

هتفت وسط الظلام.

لم يكن هناك مصدر للضوء غير نافذة واحدة ألقت بضوء شحيح على شراشف مجعدة، وحدود دولاب وكرسي ورف كتب. ربما أحضرت «إيريس» «ميا» هنا لتهدئتها؟

لكن مرة أخرى، لم يُجِب أحد.

كان هواء الغرفة ثقيلًا، معبئًا برائحة البخور والعطور. أدرت مفتاح إضاءة على الحائط المجاور للباب، فومض خط من الأضواء فوق رأسي. شهقت وكدت أسقط للخلف، بينما استمر عزف الكونشرتو، متناقضًا مع المشهد الذي لا يصدَّق الذي ارتسم أمامي. لم يكن هناك أحد بالغرفة، لكن «إيريس» حوَّلت الغرفة إلى ضريح، أو معبد، لكن ليس لعبادة أي إله في هذه الغرفة، وإنما لأن «إيريس» كانت مهووسة بـ «جوني»!

☆☆☆

الفصل السادس والثلاثون

خطوت لداخل الغرفة، وقد شعرت بتنفسي يزداد سرعة، بينما تسارعت دقات القلب كأنها جواد جامح.

أي نوع من الهوس المرضي كان هذا؟

كانت تلك الغرفة المعطَّرة قد تحولت إلى ضريح مُتقَن لـ «جوني»، وقد حدق وجهه نحوي من خلال الصور الملصَقة على مرآة الدولاب، والصور المعلقة خلف زجاج على الجدران.

هذه هي غرفتها السرية الهادئة!

في الدولاب المفتوح، عُلِّقت عباءة من الحرير بألوان قوس قزح؛ أحمر، وبنفسجي، وفيروزي. اصطفت بعض الأشرطة الرفيعة وملابس من الدانتيل، ومعهم بعض الأحذية ذات الكعب، والملابس الداخلية الضيقة، وزجاجات الكولونيا، في الدولاب. كما تراصت مجموعة أخرى من المستحضرات، وأدوات المكياج، وفُرش الشعر. واستلقت مجموعة من الواقيات الذكرية، التي كانت لا تزال داخل أغلفتها الملونة، على طبق، كأنها مقبِّلات في حفلة ما!

ماذا عن السرير الموضوع بجوار النافذة والبطانيات التي اعتلته في فوضى متشابكة؟ هل نامت «إيريس» هنا كل ليلة على تلك الوسادة، تحدق إلى صور «جوني»؟ هل هذه هي غرفة نومها؟ مَن يمكن أن يعيش في مكان مثل هذا، مليء بالشوق والولع المرضي؟

انتصبت زجاجة نبيذ على منضدة بجانب كأسين لم يمسهما أحد، في انتظار رجل قد لا يأتي أبدًا، ولم تكن مجرد زجاجة نبيذ، كانت زجاجة «شاردونيه» التي قدمها «جوني» لـ «إيريس»، وكانت مغلقة. لم تعرض فتح

الزجاجة في أثناء العشاء، وإنما سحبت الزجاجة بعيدًا، وعادت بزجاجة نبيذ التوت التي قدمت منها لنا.

على رف الكتب، تم ترتيب الكتب الطبية حسب الترتيب الأبجدي للعنوان، وكانت بعضها لا تزال ملفوفةً بغلافها البلاستيكي، مما دل على أن «إيريس» قد اشترتها ولكن لم تزعج نفسها قط بفتحها. وهناك مجلات عن العمارة كذلك، وكتب تنمية ذاتية؛ كيف تجذبين انتباه الرجل وتحتفظين به، وكتب عن كيف تحبين ذاتك، وكتب عن صحة البشرة والجلد. من يقرأ مثل هذه الكتب هذه الأيام؟ بدأت سرعة تنفسي تتزايد، وقد صاحبها شعور بالغثيان.

خذي نفسًا عميقًا...

فكري...

ماذا يحدث هنا؟ استقر تليسكوب ضخم عند حافة النافذة. كانت «إيريس» تتمتع بإطلالة رائعة على الكوخ من موقعها هنا؛ خط مباشر أسفل الدرب وعبر الغابة، يكشف لها ما يكفي، صحيح أنها لا تستطيع رؤية ما بداخل الغرف من هذه المسافة، لكن يمكنها أن تشاهدني أنا و«جوني» نأتي ونذهب. كما يمكنها التسلل لداخل الكوخ عندما لا نكون في المنزل، لو أن هناك مفتاحًا إضافيًا، وهي بالتأكيد معها واحد.

كانت قد لصقت مجموعة من الصور المختلفة حول محيط مرآة الدولاب، منها صورة لـ «جوني» وهو يخرج من العيادة مرتديًا سترته، ومنها صورة لـ «جوني» يجلس داخل سيارته التويوتا، ومنها واحدة لـ «جوني» وهو يسير في الدرب، أو «جوني» وهو يخرج من المنزل في شارع «سيتكا» ليركب سيارته. لا بد وأن «إيريس» استخدمت عدسة مقربة لتتمكن من التقاط مثل هذه الصور، كانت قد أضافت «جوني» إلى بعض صورها، بينما أزالت الأشخاص الأصليين من الصور، وكانت النتيجة هي «إيريس» و«جوني» في حمام سباحة، على منحدر تزلج، يحدقان إلى بعضهما بعضًا فوق ضوء شموع موضوعة فوق منضدة، ثم صورة «جوني» على رصيف المرسى -لا بد وأن «إيريس» قد سرقتها من الكوخ- وقد أزالت «مونيك» من الصورة.

شعرت بجسدي كله يرتجف، لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا. كان هناك ثلاثة قمصان عليها شعار حَدَث «غطسة الدب القطبي» مرمية على كرسي، كلها بمقاس «إيريس»، لكنها بنفس الوقت مطابقة لقمصان «جوني». هل ذهبت للبحث عنهم؟ هل ارتدتهم من الأصل؟

كانت قد رتبت مجموعة من الشموع على شكل دائرة فوق الدولاب، وكانت هناك ملاحظة مكتوبة بخط اليد في المنتصف، بجانب صورة مقطوعة لوجه «جوني». كانت الكلمات المكتوبة هي: سيأتي الوقت الذي نجتمع فيه معًا يا حبيبي.

كنت غائبة بشكل واضح عن كل الصور الموجودة بالمكان. لم تكن هناك ولو صورة واحدة قد تم قطع وجهي منها، ولا حتى أي صورة مقربة لوجهي وأنا أتحرك، لا، بالنسبة إلى «إيريس»، أنا لست موجودة من الأصل، إذا كنت في أي من الصور مع «جوني»، فقد تم حذفي ببساطة.

كيف تمكنت «إيريس» من التظاهر بكل ذلك اللطف والود تجاهي بينما هذه هي مشاعرها الحقيقية؟

عندما ادعت أنها وقعت في الحب، لم تكن تتحدث وقتها عن «ستيف»، وإنما كانت تشير إلى «جوني»، الرجل الذي ظنته عالقًا في زواج فاشل غير سعيد، وأخذت تنتظر تحرره من شباكه، كانت هناك نسختان من «إيريس»، واحدة منهما تظهر هنا، والأخرى التي تظهر في الخارج، والنسخة التي تظهر هنا أخافتني حتى الموت.

أما النسخة التي بالخارج فتحتفظ بـ «ميا»!

☆☆☆

الفصل السابع والثلاثون

خرجت مسرعة من الغرفة، وأخذ صوت الموسيقى ينحسر من ورائي وأنا أتعثر نازلة درجات السلم، بينما أتصل على عجل برقم النجدة على هاتفي المحمول، صارخة أن جارة مختلة قد اختطفت «ميا كيمبال»، وأن يأتوا على الفور. تركت رسالة لـ «جوني»: «أسرع بالعودة. «إيريس» أُصيبت بالجنون، و«ميا» معها، لقد أخذَتْها إلى مكان ما».

بعد ذلك تركت رسالة لـ «رايان جرين»، وركضت إلى الخارج، عدوت عبر الدرب إلى الشارع، أصرخ منادية «ميا».

أين يمكن أن تأخذها «إيريس»؟ إلى النهر. عند مدخل الدرب، تدلى شريط شعر «ميا» الوردي من فرع شجرة، كما لو أن «إيريس» قد وضعته هناك لإغرائي. كان المطر قد توقف، لكن هناك عاصفة خريفية مدمرة أتت زاحفة وسط مجموعة من السحب السوداء. لقد تركتُ «ميا» مع مختلة عقليًا. كيف كنت بهذا الغباء؟

بينما أنا أركض في الطريق الموحل، شرعت بالبكاء وأنا أصرخ منادية «ميا»، ولكن بلا إجابة!

هطلت الأمطار وسط عاصفة مفاجئة، لتشكل جدولًا صغيرًا ضيقًا من المياه على الدرب، ثم لم تلبث أن انزلقت داخل معطفي الواقي من المطر، وحذائي الذي غرق على الفور. كان بوسعي سماع نفسي أصرخ منادية «ميا»، وقد حملت الريح صوتي بعيدًا. ثم لمحت أخيرًا «إيريس» في معطف المطر الأصفر الخاص بها، عند ضفة النهر العالية، ممسكة بشخص أصغر حجمًا بكثير، ولا يكف عن التذمر.

- «ميا»!

صرخت وأنا أركض نحوهما.

- «إيريس»، دعيها تذهب!

صاحت «إيريس»:

- لا تقتربي ولو خطوة واحدة!

سحبت «ميا» نحو الهاوية، بينما هوت الريح بمخالبها فجلدت الأشجار من حولنا. سقط فرع فوق مياه النهر، التي لم تلبث أن سحبته في جشع نحو الأعماق.

- لا تفكري في إيذائها!

صرخت وأنا أرتجف، ثم هتفت:

- ابتعدي عن الحافة!

- وإلا ماذا ستفعلين؟ ابقَي حيث أنتِ!

اقتربت «إيريس» من الجسر. سقطت كتل من التربة نحو النهر.

- أعيدي «ميا» إليَّ!

تصاعد بكاء «ميا»، وشدت «إيريس» ذراعها بقسوة، فكادت تفصله عن الجسد، بينما هي تصرخ فيها:

- اخرسي أيتها العاهرة الصغيرة.

فصمتت «ميا». كررتُ:

- دعيها تذهب.

حاولت البقاء هادئة.

- «ميا»، كل شيء سيكون بخير.

- عمة «سارة»!

صرخت «إيريس»:

- لا تتحدثي معها.

- ماذا تريدين؟

سألتها، فصرخت:

- أنتِ تعرفين جيدًا ما أريده.

- لا، لا أعرف، أتمنى أن تتفضلي وتخبريني.

- كان المفترض أن تموتي في الحريق، ووقتها لم يكن ليحدث أيٌّ من هذا!

« كان المفترض أن تموتي».

شعرت بالكلمات تخترق جسدي كأنها إعصار شديد.

- دعيها تذهب. «ميا»، لا بأس. أنا هنا. العمة «سارة» هنا. فقط أخبريني ماذا تريدين يا «إيريس»!

- ذلك الأحمق لم يعرف ما كان يفعله. أشعل الحريق في البيت الخاطئ. كلهم يبدون متشابهين في هذا الحي اللعين. وبالتالي، عليَّ أن أصلح كل شيء!

- أنتِ من أرسل «تود» لإضرام النار في منزلنا!

- كان الأحمق مصابًا بهوس إضرام الحرائق بجانب إدمان المخدرات. لم يعرف كيف يتوقف!

«تود سيفرسون»، كان يعمل لحساب «إيريس» طوال الوقت، يصلح البيوت ويشعل الحرائق في أوقات فراغه. قلت:

- لا تُقحِمي «ميا» بالموضوع، أعطِها لي.

ماذا لو لم ترَ الشرطة شريط شعر «ميا» على الفرع؟ ماذا لو لم يعرفوا إلى أين يذهبون؟ أخرجت هاتفي المحمول. قالت «إيريس»:

- لو أجريتِ مكالمة واحدة، سترين «ميا» تقفز قفزتها الأخيرة إلى النهر.

- النجدة!

صرخت «ميا»، فزجرتها «إيريس» بقسوة:

- اخرسي!

قلت:

- ليس لها علاقة بهذا الأمر.

أجابتني «إيريس» بصوت طفولي:

- ذهبتُ إليه، لكنه لم يفهم بعد.

- ذهبتِ لمن؟ «جوني»؟ متى؟

- أعطيته الوقت الذي يحتاج إليه. لقد تحرر منك أخيرًا. لذا ذهبت لرؤيته، لكنه لم يكن مستعدًّا.

- ماذا تقصدين؟

سألتها وأنا أتقدم ببطء إلى الأمام، محاولة قياس المسافة التي تفصل بيني وبين «إيريس». لو اندفعتُ نحوها الآن، فسيظل لدى «إيريس» الوقت الكافي لإلقاء «ميا» في النهر. قالت «إيريس»:

- توقفي مكانك! أنتِ تحاولين دائمًا فعل شيء ما. لماذا لم أقم بالعمل بنفسي من البداية؟ لأنني لطيفة. أثق في الناس بسهولة. وثقت في ذلك الأبله أنه سيقوم بالمهمة على أكمل وجه، وماذا كانت النتيجة؟ لكنني بعد الحريق أعدت التفكير في كل شيء، هناك شخصان بريئان ماتا، ولم يكن ذلك في نيتي، كما أن تلك الطفلة المسكينة عانت بشدة. الكل عانوا مما حدث، حتى «جوني». لم أرغب قط في أن يختبر ولو لحظة ألم واحدة.

- سوف يتألم أكثر إذا آذيتِ «ميا».

اصطكت أسناني، بينما ارتفع أنين «ميا».

- لا، لن يفعل. هو لا يريدها.

- بل يريدها.

- فكرت، بما أن «تود» قد تسبب في كل هذه الفوضى، فالأفضل أن أتصرف بطريقة أكثر رحمة. ثم فكرت، ربما لم يرتكب خطأ إلى ذلك الحد بالنهاية. قرأت يومياتك عن علاقة «جوني». استحقت «مونيك» الموت!

- لا، لم تستحقه.

لقد كتبت الكثير في تلك المذكرات الجديدة، هل قرأت «إيريس» كل شيء؟

- قرأت عن إعجاب «جيسي» بـ «تشاد»، يا له من تصرف قذر! وفكرت أنه يجدر بصديقها الجذاب «أدريان» أن يعرف، ألا تظنين ذلك؟
- أنتِ من أخبرتِه؟
- أنا آخذ مسؤولياتي على محمل الجد.
- هل لديكِ أي فكرة عما فعلتِه؟ كان يمكن أن يقتلها.
- أوه، كان سيفعلها من نفسه في النهاية. كان أمر «جيسي» و«أدريان» سهلًا، أنتِ من كنتِ الأصعب. حاولت أن أجعلكِ تستوعبين أنكِ لستِ المرأة المناسبة لـ «جوني». لكن كل الأدلة التي رميتها في وجهك لم تكن كافية!
- أي أدلة؟
- «تيريزا»، إيصال الزهور...
- أنتِ من وضع الإيصال في الكوخ!

تقدمت إلى الأمام قليلًا، خطوة ضئيلة كل مرة.

- أعطيتك الكثير من الفرص. حتى إنني عرضت عليكِ مهجع الكتابة الصغير المثالي، لطيف وبعيد.
- وأخبرتِ الجميع أنني و«جوني» سننفصل.
- لم تشتري المهجع. أنتِ حمقاء.

اتخذتُ خطوة أخرى إلى الأمام.

- دعينا نتحدث عن هذا في مكان ما دافئ وجاف.
- اخرسي!

تراجعت «إيريس» نحو الحافة حتى كادت تنزلق، فصرخت «ميا»، سقطت بعض الصخور في النهر المتدفق.

- كنتِ عمياء. ماذا كان من المفترض أن أفعل؟ أنتِ لم ترغبي في الرحيل قط!

قلت:

- أرى كل شيء الآن، أنتِ و«جوني» مقدَّران أن تكونا معًا. سأرحل كما تريدين، لكن عليكِ أن تعطيني «ميا».
- أتظنينني غبية؟ لقد ثرثرتِ كثيرًا عن كم تفتقدينه، ثم كتبتِ كل تلك «الميلودراما» في دفتر يومياتك. كتبتِ أنك ما زلت تحبين زوجك. إلخ إلخ إلخ.

كافحت لرؤية «إيريس» التي اعتقدت أنني أعرفها؛ المرأة الواثقة من نفسها، السمسارة الخدومة، وصديقتي. هل لا تزال موجودة في مكان ما داخل تلك المهووسة التي تقف أمامي؟

- دعيها تأتي إليَّ، وسأعطيكِ كل ما تريدينه.
- ما أريده ليس ملكك من الأصل لتعطيه لي. لقد كنتِ دائمًا عقبة في طريقي. من أول لحظة التقيت فيها بـ «جوني» وأنا متأكدة أننا مقدَّران لبعضنا! كل العلامات على أننا ملائمان لبعضنا كانت ظاهرة. في آخر موعد للمتابعة التقينا فيه تحدثنا عن كل شيء، العقارات والفن والعمارة، وعن أحلامنا. أنتِ لا تعرفين كيف تتحدثين معه حتى، لا تشاركينه أيًا من اهتماماته. لقد سحرتِه للزواج بكِ!
- «جوني» ليس طفلًا، ولو لم يكن يرغب فيَّ لم يكن ليتزوجني.

خطوة أخرى ويمكنني وقتها الاقتراب بما فيه الكفاية للإمساك بـ «ميا». كانت «إيريس» تدلي الفتاة فعليًا من على الحافة.

- لا أفهم ما يعجبه فيكِ من الأصل، طيلة الوقت ترتدين ملابس رثة، وطيلة الوقت مترددة ولا تفهمين ما يدور من حولك بطريقة تثير الغيظ! لكنك لا تزالين مسيطرة عليه تحت تأثير تعويذتك. هل تهددينه بشيء ما؟
- ماذا عن «ستيف»؟ هل ستتركينه بتلك السهولة؟

- أتركه؟ إنه محامي الطلاق الخاص بي أيتها الحمقاء!

أوه! عبوسه وطريقته الفظة. هذا منطقي. قلت:

- سآخذ «ميا» للمنزل.

ومض البرق فوق رؤوسنا في تلك اللحظة، ليرسم خطًّا خشنًا متعرجًا لم يلبث أن شق طريقه وسط الغيوم. وبعد لحظة، تبعه صوت الرعد. انفجرت «ميا» في البكاء.

- عمة «سارة»، أمي! أريد ماما!

فلتذهب «إيريس» إلى الجحيم، هرعت إلى الأمام، لكن بعد فوات الأوان. شقت صاعقة أخرى طريقها عبر السماء، بينما دفعت «إيريس» «ميا» إلى أسفل الجسر، لترسل الفتاة الصارخة وهي تنزلق على المنحدر الحاد.

- «ميا»! تمسَّكي بأي فرع شجرة بجوارك، أمسكي فيه بقوة!

هتفت، لكن «ميا» استمرت في الانزلاق لأسفل وهي تصرخ، فيما بدا لي بالحركة البطيئة، ويداها الصغيرتان تحاولان التشبث بالشجيرات، والأغصان البارزة، ولكنها انزلقت من بين يديها، فلم تجد شيئًا تمسك به بينما هي تسقط في النهر.

- «ميا»!

ركضت ذهابًا وإيابًا على طول الجرف، ووجدت فتحة، وانزلقت على ردفيَّ، بينما يداي تحتكان بالصخور الخشنة.

- تماسكي يا عزيزتي، أنا قادمة!

لكن التيار كان قد أسر «ميا» بالفعل وسط قبضته، وحملها بعيدًا. ألقيت نظرة خاطفة لأعلى نحو الجرف، لكني لم أرَ أي علامة على وجود «إيريس». كان الجسر شديد الانحدار هنا؛ لم يعد بإمكاني الانزلاق لأسفل أكثر من هذا، يجب أن أقفز لأغوص في المياه. لم يكن لدي خيار. حبست أنفاسي وسقطت في أعماق النهر الأسود المتدفق الجليدية.



الفصل الثامن والثلاثون

أنا أغرق!

كان تيار النهر يمزقني، ولم أعد قادرة على رؤية «ميا». ماذا لو كانت قد ماتت بالفعل؟

حجب المطر المتساقط الرؤية عني. كنت ألمح بين الحين والآخر ظلال أشجار تتمايل على الساحل البعيد. لكن لم أرَ الفتاة، لقد ذهبت للأبد!

لا، ها هي ذي هناك، كان رأسها يبرز إلى السطح، ووجهها مبلل وقد غطاه شعرها. لا لم تمت بعد. ضربت سطح المياه متجهة نحوها، محاولة قطع مساحة المياه السوداء التي تفصل بيننا، ولكن التيار سحبني؛ ابتلعت بعض الماء بينما النهر يبتلعني لأسفل، فامتلأت رئتاي بالسائل الموحل، لكنني جاهدت لأشق طريقي إلى الأعلى وأنا أشعر برئتيَّ تكادان تنفجران، فلا يمكنني تحمل المزيد، لكني في تلك اللحظة شعرت بنفسي أكسر سطح المياه الداكنة، وأبتلع دفقات من الهواء البارد.

بصقت الرمل والطمي، ومعهما الطعم المعدني للجليد الذائب المنحدر من الجبال، وهنا سمعت صوت زئير الشلال. لن أصل إليها في الوقت المناسب!

سوف تندفع من فوق الحافة، وتهوي على الصخور بالأسفل. وسأتبعها، لنتمدد كلتانا محطمتا الجسد بالأسفل. ها هي ذي مرة أخرى، وقد ظهر وجهها الشاحب وسط الظلام.

- «ميا»! أمسكي بأي شيء حولك!

أخذت أصرخ، لكن النهر الهادر ابتلع صوتي. لا يمكن أن تنتهي الأمور هكذا. لقد أنقذتها مرة، وبوسعي إنقاذها مرة أخرى. شحذت ذهني، وقد

أدركت فجأة وجود الغابة، وقد رفرفت حشرة يعسوب طائرة في قوس فوق النهر، بينما حلق عصفور بالقرب من الشاطئ.

بقي جزء من عقلي هادئًا. لا داعي للذعر. الطيارون لا يصابون بالذعر عندما تنقلب طائراتهم رأسًا على عقب، وبالمثل لا يُصاب رواد الفضاء بالذعر إذا نفد الهواء، وإنما يعملون على معالجة المشكلة، فالذعر لا ينقذ الأرواح.

وماذا عن غواصي الكهوف؟ تلك الأرواح الشجاعة، الذين لا يرتدون معدات الغوص وينزلون لمئات الأقدام في تلك الكهوف المليئة بالمياه، والتي تكونت على مدار آلاف السنين؟ يسحبون معهم خيوطًا من النايلون، ويتمسكون باتباع تلك الخيوط حتى عندما يمتلئ مجال رؤيتهم بالركام ولا يتمكنون من رؤية أي شيء أمامهم، فيصبحون غير قادرين على تمييز الطريق لأعلى، يظلون متشبثين بالخيوط الرفيعة، ومن خلال هذا التشبث، ينجون.

تسارعت هذه الأفكار في داخل عقلي في لحظة شعرت بها خارج الزمن، بدأت ألحق بـ «ميا»، ظهر وجهها على سطح المياه وهو مقلوب رأسًا على عقب، وقد انتفش شعرها من حولها كأنها حورية البحر. غاب رأسها لثوانٍ تحت السطح، ثم عاد ليظهر من جديد، بذلت قصارى جهدي متمثلًا في دفعة أخيرة، وبالنهاية وصلت إليها وأمسكتها وقلبتها ليعود رأسها لأعلى، كانت عيناها مغلقتين، ووجهها شاحبًا ساكنًا، بينما غزا شفتيها اللونُ الأزرق.

- ابقَي معي!

قلتها وأنا أسحبها نحو الشاطئ. كنت أفقد قوتي بسرعة، وكان الماء باردًا للغاية، بينما أخذ التيار يسحبني لأسفل مرة أخرى، وكدت أفلت «ميا» من قوة التيار!

أخذت الطفلة تطفو كأنها دمية بالية، ظهرت هيئة شخص ما بالأعلى فوق الجسر، «إيريس»!

كانت تتبعنا على طول الجرف نحو الشلال. تزايد ضجيج الماء لدرجة تصم الآذان. ظهر ظل «إيريس» بالأعلى عند الشاطئ، وهي تترنح وسط المطر. نحن ميتتان؛ «ميا» وأنا، ربما كان مُقدرًا لنا الموت منذ البداية.

بينما أنا أغرق، ظهر ضوء في السماء، عبر سطح المياه، شعرت بعضلاتي تسترخي، بلا أدنى قدرة على المقاومة لأكثر من هذا، لم أعد أستطيع التنفس، ولا عاد بوسعي الصمود. انزلقت «ميا» من قبضتي.

- «سارة»!

سمعت شخصًا ما يناديني، بدا كصوت «جوني»، ولكن كيف يمكن أن يكون هنا؟ لا بد أنني أتخيل صوته، رأيت يده تمتد لأسفل كأنما تمتد من السماوات لتسحبني إلى الشاطئ.

☆☆☆

الفصل التاسع والثلاثون

تكدست الصناديق في بهو الكوخ.

لم يمضِ علينا أنا و«جوني» إلا القليل من الوقت هنا، ولكن تراكم الكثير من المتاع لدينا بالفعل. ربما هي الطبيعة البشرية التي تجعل المرء منا يتشبث بالعالم المادي، لتذكير أنفسنا بأننا على قيد الحياة.

ومع ذلك، فقد تعلمت الاكتفاء بأقل عدد من الممتلكات، لإدراك جمال اللحظات والاستمتاع به. شروق الشمس في هذا الصباح الشتوي مثلًا، أو منظر العصافير وهي تحلق مغردة بين الشجيرات، أو انطلاق صوت البوق البعيد الخاص بعبَّارة بينما هي تنزلق في المرفأ.

لكن يمكنني الاستغناء عن اندفاع النهر. كنت أراني في كوابيسي وأنا ابتلع الماء، وأنا لا أزال أحاول الوصول إلى «ميا» بينما هي تنزلق بعيدًا. أنقذها «رايان جرين» في الوقت المناسب لحسن الحظ. كان قد أحضر معه عددًا من المسعفين، واعتقلت الشرطة «إيريس». لكن كانت يد «جوني» هي التي سحبتني لبر السلامة. «جوني»، ملاكي الحارس.

حمل «جوني» صندوق الأطباق من المطبخ مباشرة إلى حقيبة سيارته، ثم عاد بخطوات طويلة واثقة، على الرغم من أن شعره كان لا يزال مشعثًا على أثر الاستيقاظ من النوم. قال:

- كادت أن تمتلئ.

- لحسن الحظ أننا على وشك الانتهاء.

التقطتُ صندوقًا من الملابس، لكنه أوقفني قائلًا:

- ليس من المفترض أن تحملي أي شيء!

- أنا بخير.

لكن الحقيقة أن رئتيَّ كانتا لا تزالان تؤلمانني قليلًا، أراد الطبيب أن يبقيني في المستشفى لليلة ثانية، لكن كان عليَّ أن أخرج، فقد حظيت بأكثر من حصتي في الإقامة بالمستشفى لبقية العمر.

- سأحمله أنا.

قالها وهو يوازن بين صندوقين من الملابس فوق ذراعيه، لكنه لم يلبث أن أعادهما للأرض. وصل «رايان جرين» في شاحنته، عندما ترجل منها بدا وكأنه حطَّاب في عطلة نهاية الأسبوع، يرتدي بنطالًا جينز باليًا، وقميصًا منقوشًا، وحذاءً طويل العنق. قال:

- صباح الخير. ستنتقلان اليوم؟

أجبته:

- نعم، حان الوقت لهذا.

- أين أنتما ذاهبان؟

صافح «جوني» «رايان» وهو يجيبه:

- استأجرنا بيتًا بمنطقة وسط المدينة.

أضفت أنا:

- حتى نقرر ماذا سنفعل.

أومأ «رايان» برأسه، ونظر إلى حذائه، ثم رفع رأسه إليَّ.

- لقد مررت للتو بشارع «سيتكا»، رأيت جاركما المدعو «فيليكس كالاسيس».

- كيف حاله؟

- لقد رأى «إيريس كوجلان» ليلة الحريق وهي تتجادل مع «تود سيفرسون».

تلك المرأة مشكلة!

- ظننته رأى «جيسي» ليلتها تتسلل للخارج، لكن يبدو أنه كان يقصد «إيريس».

علَّق «رايان»:

- لست متأكدًا من أنه يعرف ما رآه بالضبط.

وأتبع جملته بأن سحب شيئًا من جيب بنطاله الخلفي وسلمه لي. صفحة مطوية تغطيها الكتابة اليدوية. خط يدي أنا!

شعرت بأعمق مشاعري تنكشف على الملأ، فغزاني إحساس بالخيانة. كانت صفحة تمت إزالتها بعناية من دفتر يومياتي لكيلا ألاحظ اختفاءها. ارتسم خطي الغاضب والفوضوي أمامي عبر الصفحة.

- ما هذا؟

سأل «جوني» بفضول، وهو يأتي ليقف بجواري.

- لا شيء!

أجبته وأنا أعيد طي الصفحة على عجل لأحشرها في جيبي، وقد احمر وجهي، لم أستطع النظر إلى «رايان»، لا بد أنه قرأ كلماتي. شعرت كما لو أنه رآني عارية.

- ماذا تقصدين بلا شيء؟ ماذا كان؟

سألني «جوني»، فأجبته:

- «إيريس»، سرقت صفحة من دفتر يومياتي.

ارتفع حاجبا «جون» لأعلى. قبل أن يقول:

- أوه، حسنًا!

ثم تبادل هو و«رايان» النظر، ثم قال «جوني»:

- أي صفحة؟

- فقط... تأملات.

ثم استجمعت شجاعتي للنظر إلى «رايان».

- أين وجدتها؟

- بين ممتلكاتها، اعتقدت أنك قد ترغبين في استعادتها.

هكذا أجابني، فسألته:

- ألا تحتاج إليها... كدليل؟

- لدينا ما نحتاج إليه، الصفحة ملكك.

ظل يحدق إليَّ...

- لا أصدق أن تلك المرأة أخذتها. أشعر... بالانتهاك.

علَّق «رايان»:

- لا أستغرب هذا.

- شكرًا لكَ على إعادتها.

- لا مشكلة. ليس من حق أي شخص غيرك الاحتفاظ بها.

أخذ «رايان» ينظر نحو منزل «إيريس»، فتابعت أنا و«جوني» نظراته، كان قد تم تطويق العقار بالكامل بشريط المعمل الجنائي كمسرح جريمة، وقد قبعت سيارتان تابعتان للشرطة في الدرب أمام المنزل. كان المحققون لا يزالون يمشطون الغرف.

كانت «إيريس» تختبئ خلف تلك النوافذ العاكسة تراقبنا، في انتظار اللحظة المناسبة للتسلل إلى الكوخ وسرقة أسراري أو إضافة أدلة مسمومة تدمر حياتي.

في أثناء وجودي في المستشفى، شرح «رايان» كل شيء؛ هوسها غير العقلاني بـ «جوني»، والأدلة الجنائية التي ربطتها بـ «تود سيفرسون»، وهي الأدلة التي توصلت لكونه الجاني الذي اشترى الوقود الذي أشعل به النيران ليلة الحريق. قال «جوني»:

- من حسن الحظ أنها قد تم القبض عليها.

قالها ثم تناول يدي، فشعرت بأصابعه دافئة ومثيرة للراحة، أومأ «رايان» برأسه له.

- المكالمات الغريبة التي كنت تتلقاها على هاتفك المحمول. تتبعناها واكتشفنا أنها هي من كانت تقوم بها.

علَّق «جوني»:

- يا لها من مختلة!

أجابه «رايان»:

- لم تكن المرة الأولى لها، وجدنا طبيبًا قد طاردَته منذ بضع سنوات. قبل أن توجِّه تركيزها عليك. كانت تكتب له خطابات وبطاقات...

قال «جوني»:

- اللعنة.

- لا بد وأنها هي من أرسلت البطاقة المرسوم عليها الثوم، التي قالت فيها إن الحريق تمهيد لأشياء أفضل، أليس كذلك؟

أومأ «رايان» برأسه إيجابًا.

- على الأرجح.

وأتبع جملته بأن عاد إلى شاحنته. أفلتُّ يد «جوني» وتبعته.

- ماذا سيحدث لها؟

- الخطوة الأولى هي توجيه الاتهام. سأبقيكما على اطلاع.

ثم استقل الشاحنة، وأنزل زجاج النافذة ونظر إليَّ. هو وأنا صرنا نتشارك حميمية غريبة الآن؛ فقد صارَ يعرف ما كتبته عن زوجي من المشاعر اللاذعة الرهيبة.

استطعت الشعور بـ «جوني» ورائي، صامتًا، كتومًا. سأل «رايان»:

- هل رأيتما الطفلة؟

- بالأمس، إنها بخير.

في منزل «هارييت»، لعبت «ميا» بهدوء بدمى باربي الجديدة التي جلبناها لها. كانت صامتة لا تتحدث، لكنها على قيد الحياة على الأقل، قال «رايان»:

- أمامها طريق طويل، من الصعب التعافي مما مرت به.

قلت له:

- شكرًا لك على إنقاذها.

قال «رايان»:

- أنتِ مَن أنقذتِها، مرتين.

ثم انسحب من الممر وانطلق نحو الطريق، دون أن يترك سوى خيط من العادم في أعقابه.

☆☆☆

الفصل الأربعون

أوقفت سيارتي عند الرصيف في شارع «سيتكا»، أمام الأرض المجردة حيث انتصب المنزلان المتهدمان ذات يوم. تخيلت منظر المنزل الذي تشاركت السكن فيه مع «جوني»، ومنظر الضوء المتسلل عبر النوافذ، ومنظر أزهار الكوبية. تخيلت خاتم زواجي الذي فقدته وسط الحريق، ثم تخيلت منظر «مونيك» واقفة على السطح وهي تمد يدها لتتناول حقيبة الفحم، بينما شعرها الأشقر الثلجي يلمع في ضوء الشفق.

- «سارة»؟

استدرت لأرى «بيدرا» تسرع في ممر بيتها، مرتدية بنطالًا جينز وقميصًا أزرق اللون، على عكس ألوان ملابسها الزاهية المعتادة، ظلت صامتة وهي تتجه نحوي، واحتضنتني دون كلام، ثم تراجعت للوراء، وأخذنا ننظر إلى بعضنا بعضًا. عيناها حمراوان منتفختان من البكاء، أمسكت ذراعي بيأس.

- أوه، «سارة».

قلت:

- لقد تلقيت رسالتك، آسفة، لقد استغرق الأمر بعض الوقت للوصول إلى هنا.

- هل اتصلت «جيسي» بك؟

- لا. ماذا يحدث هنا؟

وهنا انهالت الدموع من عينيها، فمسحتها.

- تعالي، يجب أن تشاهدي بنفسك.

ثم قادتني «بيدرا» عبر الشارع إلى منزلها، وأرتني غرفة «جيسي»، والتي بدت مرتبة بشكل غير معتاد، تراصت كتبها مرتبة حسب الطول على الأرفف.

لكن كانت هناك ثغرات، وكأنها لا تستطيع تحمل الافتراق عن أشيائها المفضلة. وأخذت علبة المجوهرات وبعض المستحضرات وزجاجات العطور. كانت الزجاجات المتبقية مرتبة بنظام، لم تكن هناك أي ملابس ملقاة هنا وهناك، لم يكن هناك أيٌّ من ملابسها الداخلية مرمية بأي مكان، ولكن على السرير، تركت خلفها صندوقًا به ملاحظة مكتوبة بخط اليد: «لقد سرقت هذه الأشياء». كلها تنتمي إلى «مونيك كيمبال». فتحت الصندوق، وبداخله رأيت قلم الحبر الخاص بـ «مونيك»، وبعض أدوات التجميل الخاصة بها، ودفتر يومياتها.

- هل قرأت مذكراتها؟

سألتُ «بيدرا»، التي أومأت برأسها بالإيجاب وهي تبكي. تمتمتُ:

- أنا آسفة جدًّا، هل تعرفين أين ذهبت؟

هزت «بيدرا» رأسها مرتجفة.

- الشرطة تقول إنها لا تستطيع فعل شيء لأنها في الثامنة عشرة.

- لم توجه اتهامات ضد «أدريان»، أليس كذلك؟

شعرت بقلبي يغرق فجأة.

- حاولَ «دون» حملها على فعل هذا، ذهب إلى شقة «أدريان». لقد اختفيا، المكان فارغ. لقد ظننت أنها ربما تكون قد اتصلت بك، إنها لا ترد على هاتفها.

عانقتُ «بيدرا» مرة أخرى.

- لم تتصل بي على الإطلاق، أنا آسفة.

- لقد حاولت بشدة. أنا و«دون» حاولنا إبقاءها تحت السيطرة، لكنها كانت تحت تأثير ذلك الصبي بالكامل كأنها مسحورة.

- أعلم أنكِ قلقة عليها، لقد فعلتِ كل ما بوسعك. عليها أن تنقذ نفسها. ليس أمامنا غير أن نتشبث بالأمل في أن تأتي من نفسها.

أرحتُ وجه «بيدرا» على كتفي وتركتها تبكي. لا يوجد شيء آخر يمكنني فعله لها للأسف.



الفصل الحادي والأربعون

أخذنا أنا و«جوني» الطريق الحجري في 24 جادة «أوشين فيو». كان المنزل غير مفروش، وقد منعنا قفل ثقيل على الباب الأمامي من الدخول.

سرت على أطراف أصابعي على العشب إلى نافذة بارزة للخارج، وقد شعرت بالنسيم يداعب شعري. لفتت الغرف الداخلية انتباهي، بأرضياتها المصنوعة من خشب البلوط اللامع، والمدخل المبطن بالبلاط، والسقف المقبب. استطعت أن أرى طريق العودة كاملًا من خلال الأبواب الفرنسية المنزلقة للكثبان العشبية والمحيط الذي انعكس عليه نور الشمس.

أتى «جوني» فوقف بجواري. كوَّر يديه لينظر عبر النافذة.

- منظر رائع، ما رأيك؟

- لا بد لي من رؤية الداخل.

أخرج المفتاح الذي اقترضه من السمسار، وفتح الباب قبل أن يدفعه للداخل.

في الداخل، فاحت رائحة طلاء المنزل الجديد. اتجه «جوني» إلى الردهة الفسيحة المؤدية إلى غرف النوم، بينما بقيت أنا في البهو، ألمس الخطاب المغلق المستلقي في جيبي. بالكاد كان لدي الوقت لأخذ البريد في طريقي للخروج. لم يكن بصندوق البريد إلا شيئان؛ فاتورة بطاقة الائتمان، وهذا الخطاب. لكنني لم أطلِع «جوني» بعد عليه.

- تصلح تلك الغرفة لتكون معتكف الكتابة الخاص بك.

سمعت صوته من مكان ما بالداخل.

- وعندما تعود أمك، ستحب غرفة الضيوف.

- والدتي لن تبقى.

أجبته بهدوء، سرت عبر المطبخ، وفتحت الأبواب الزجاجية المنزلقة التي تقود للشرفة الضخمة. ترامى لمسامعي صوت الأمواج مختلطًا مع صوت طيور النورس. تصاعد حفيف الريح من خلال أعشاب الكثبان الرملية، وظهرت هيئة رجل ما يتجول على الشاطئ على مبعدة، يصاحبه كلب أسود يدور من حوله.

- هل سمعتِني؟

أتى «جوني» ووقف ورائي، وقد تصاعدت قرعات حذائه طويل العنق على الأرض.

- نعم، سمعتك.

أمكنني أيضًا سماع صوت «ناتالي»، قاطعًا كل تلك المسافة من الهند. ماذا لو حدث فيضان تسونامي آخر؟ ستكون قريبة جدًا من المحيط. سمعت صوت «جوني» يسألني:

- لم يعجبك؟

- المنزل جميل.

- لكن...؟

- لا أعلم.

شعرت أنني لا أعلم حقيقة شعوري بصدد الكثير من الأشياء.

- سوف أذهب لأتمشى قليلًا.

قلتها ثم اتخذت طريقي عبر الكثبان الرملية، لكن «جوني» لم يتبعني، وكأنه شعر بحاجتي إلى أن أكون وحدي. عندما وصلت إلى خط الماء، أخرجت الرسالة. على مبعدة، لمحت طيور الغاق طويلة العنق تركب الأمواج، وأبعد من تلك الطيور، انزلقت سفينة شحن على طول الأفق.

فتحت المظروف ومن بعده الرسالة. في الجزء العلوي كان شعار خدمات اختبار الحمض النووي في معامل الشمال الغربي. اهتزت أناملي وأنا أقرأ:

«بناءً على تحليل الحمض النووي، فإن الأب المزعوم، والمدعو «جوناثان ماكدونالد»، لا يمكن استبعاده كالأب البيولوجي للطفلة المدعوة «ميا بومونت»، لأنهما يتشاركان نفس العلامات الجينية. احتمال العلاقة المذكورة محدد أدناه كنسبة مئوية، مقارنة مع شخص غير ذي صلة بهما، وينتمي لنفس العرق. النسبة الاحتمالية: ٪99.9942».

امتزجت الكلمات معًا بطريقة ضبابية أمام عينيَّ، بينما تخللت أمواج المياه حذائي، فلمست أصابع قدمي بأناملها الباردة، لكني بالكاد لاحظت ذلك.

كان «جوني» يناديني الآن، قادمًا عبر الكثبان الرملية. هتف:

- هل أنتِ بخير؟ هيا بنا نعود، فهناك عاصفة قادمة.

هأنذا إذن، أقف محاولة التماسك بين الأرض والبحر، بين الماضي والمستقبل، المطر يبلل بشرتي، والريح تعصف بشعري.

تمت

شكر وتقدير

أنا ممتنة للغاية لجميع الأشخاص الذين شجعوني وآمنوا بي عبر السنين، بما في ذلك أقاربي، وزوجي، وأصدقائي، و«مارلين لوندبرغ». شكر جزيل مستحق كذلك للمحررة الرائعة في «أمازون للنشر»، والمدعوة «تارا بارسونز»، والمحرر الرائع «بين غروسبلات»، وفريق أمازون الرائع؛ وإلى وكيلتي الأدبية الرائعة «بايج ويلر»، ومساعدتها «آنا ماريا بونر» وقراءتهما الذكية للنص. وكذلك وكيلتي العظيمة للحقوق الأجنبية «تارين فاجيرنس».

كالعادة، أنا ممتنة للمؤلفين الموهوبين والداعمين في مجموعتي الكتابية: سوزان ويغز، وشيلا روبرتس، وإلسا واتسون، وكيت بريسلين، ولويس داير.

وأما رئيس وحدة الإطفاء بمدينة «كيتساب»، والمدعو «واين سينتر» (متقاعد): شكرًا لك لقضاء ساعات على الهاتف معي، والرد بصبر على أسئلتي الكثيرة، وحكي كل القصص الغريبة ذات الصلة من حياتك المهنية المتميزة في مكافحة الحرائق. الحقيقة أغرب من الخيال فعلًا. شكرًا لك أيضًا على قراءة المقاطع المتعلقة بالحريق في النص، للتأكد من دقتها الفنية. وشكر كثير لدعمك وحماسك لمشروعي هذا، أنا مدينة بشدة لـ «ماجي كروفورد»، المحررة الرائعة الخبرة، والتي أرشدتني من خلال المراجعات الدقيقة للنص، ودفعتني لأبذل قصارى جهدي.

كذلك يجب أن أشكر «ريتش بينر» و«ستيفن ميسر»، اللذين اطّلعا على النسخة الأولية من الفصول الافتتاحية الخاصة بالرواية وقدما ملاحظات مفيدة. كذلك شكر واجب لرفاقي «راندال بلات»، و«ديان جاردنر»، و«باتريشيا ستريكلين»، و«إليزابيث كوركوران موراي»، ماذا كنت سأفعل دونكم؟

شكر خاص كذلك لـ «أندريا هيرست»، الزميلة والمرشدة والصديقة الرائعة.

وشكر جزيل لمجموعة العصف الذهني في أثناء شاي يوم الجمعة، ومن ضمنهم، على سبيل المثال لا الحصر، «تيريل هوفمان»، و«توني بونيل»، و«كارول كالدويل»، و«ساندي هيل»، و«جانا بورن»، و«جان سيموندس»، و«ميستي ماكولغان» (أعطتني «ميستي» الوحي الخاص بلوحة الفأرة «معجزة» الرائعة).

هل ذكرت «أنيتا» و«كريستا لاري» اللتين ساعدتاني في تبادل الأفكار في أثناء تناولنا الغداء؟

هناك أيضًا «سانتان جاراتانو»، شكرًا لك على جلسة العصف الذهني التي قمنا بها عند حمام السباحة.

وأخيرًا، شكر وتقدير شديد للخمس قطط الرائعة اللاتي أملكها واللاتي ساعدنني في شحذ إلهامي كثيرًا: روبي، وتيدي، وسيمون، ولونا، وتيني. أنتن أفضل كرات فراء يمكن أن يمتلكهن بشريٌّ.



قالوا عن الرواية:

«نتوقع أن تزيح رواية "الفتاة المفقودة"Gone Girl. خلال فترة بسيطة عن عرشها!».

- مجلة "هاربر بازار"

«رواية تشويق وإثارة نفسية مليئة بمفاجآت مستحيل أن تتوقعها!».

- روبرت دوجوني، الكاتب الأعلى مبيعًا وفقًا لقوائم نيويورك تايمز

«لقد أحببتها! لم أتمكن من ترك الكتاب منذ أمسكته وحتى النهاية!».

- صوفي حنا

«في رواية "الحريق" تلعب "إيه جيه بانر" على العديد من أعظم مخاوفنا - أن الشخص الذي وضعنا ثقتنا الكبرى به ليس مَن نعتقد.. رواية مشوقة للغاية بأحداث متلاحقة حتى تحل النهاية المفاجئة التي يستحيل أن تتوقعها. لا يجب تفويتها!».

- كاثرين ماكنزي



إيه جيه بانر

وُلِدت بالهند، وعاشت معظم حياتها بأمريكا الجنوبية، وقد تلقت درجتها الجامعية من جامعة "كاليفورنيا".. نشأت على قراءة روايات "أجاثا كريستي" و"دافني دو مورييه" البوليسية، ويبدو أنها قد قررت الانضمام للقائمة.

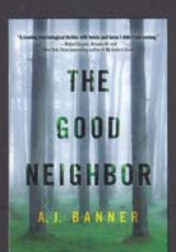
"الحريق" هي روايتها البوليسية الأولى، ومتوقع لها أن تكون بمكانة "الفتاة المفقودة"Gone Girl. خلال فترة بسيطة، بعدما ظلت مُعتلِيَة قائمة أمازون للروايات الأكثر مبيعًا لأكثر من شهر كامل!

تعيش "إيه جيه" في شمال غرب المحيط الهادئ مع زوجها وخمس قطط مُتبناة.

الحريق

بلدة "شادو كوف" بواشنطن هي واحدة من تلك البلدات الهادئة التي يحلم الجميع بالعيش فيها؛ الشوارع الجذابة الهادئة، والغابات الخضراء المورقة، والجيران الطيبون.

هذا ما كانت تعتقده سارة وهي تستقر هناك لتبدأ حياتها مع زوجها جيمي، بعدما تزوجا ببضعة أشهر. لكنها سرعان ما تكتشف أنها كانت مُخطئة.



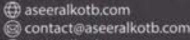
وفي إحدى أمسيات أكتوبر عندما كان جوني بعيدًا في رحلة عمل، حلت مأساة مفاجئة لتحطم سعادة سارة واستقرارها بالكامل، كاشفة وجود الكثير من الأسرار المرعبة والمخيفة التي ظلت في الخفاء طويلًا...

تصميم الغلاف كريم آدم









contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb